الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة ابي بكر بلقايد
Université Abou Bekr Belkaid
تلمسان الجزائر

كلية الآداب و العلوم الاجتماعية

قسم : الثقافة الشعبية

تخصص: انثروبولوجيا

أطروحة التخرج لنيل شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا

رعاية الطفل الرضيع قراءة في العادات و التقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس مع مقارنة بالأساليب الطبية الحديثة

إعداد الطالبة: ..... تأطير الأستاذ المحترم:

❖ مهيدة دهيبة - سعيدي محمد

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د/ عبد الحق زريوح	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د/محمد السعيدي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ.د/ نور الدين صبار	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
د/ فقيه العيد	أستاذ محاضر-أ-	جامعة تلمسان	عضوا
د/عتو بن عون	أستاذ محاضر-أ-	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
د/ فتيحة الزاوي	أستاذ محاضر-أ-	جامعة وهران	عضوا

السنة الجامعية 2010-2011 م

انتماءنا –كباحثين– إلى هذه المجتمعات التي لا تزال إلى غاية اللحظة ترتكز على سلم من القيم الاجتماعية تمليه و تتجلى فيه الكثير من هذه العادات السائدة ، مجتمعات مقاومة للتغيير إلى حد ما .. لماذا إلى حد ما ؟ لأنه ثبت أن مجتمعنا على غرار باقي المجتمعات العربية يعيش حراكا سسيوثقافيا و اقتصاديا عميقا ليس منتظم الوتيرة رافقته تغيرات عميقة و تطورات متلاحقة في شتى ميادين الحياة خصوصا منذ العقود الثلاث التي خلت– و عموما فان هذه التغيرات يشهدها العالم أكمل– و أمام مراوحتنا المكان بين تقاليد لا تزال مستحبة في النفوس و بين رغبة في نفض غبار الماضي و التخلص من بقايا مجتمع جماعي تحكمه العادات و الأعراف و المعتقدات بغية ولوج فضاء مجتمع تعاقدي تفرضه الظروف العالمية فإننا لم نتخلص كليا بل قد لن نتخلص أبدا من تلك الظلال الجاثمة على يومياتنا و المشكلة من العادات و التقاليد و الأعراف و المعتقدات التي لا تزال لها الكلمة الأولى في الكثير من ممارساتنا الثقافية.

بعيدا عن الإرادة التي تراودنا مند مدة في تركيز البحث على الصمود أو الضمور الذي يكون قد طرأ على عاداتنا و تقاليدنا أو التطور و الاختلاف الذي يكون قد طرأ على أدوارها و وظائفها في المجتمع فإننا اخترنا كموضوع للبحث الكشف عن العادات و التقاليد المحيطة برعاية الرضع و السعي لوضعها على المحك للكشف عن مدى صمودها أمام تطور الاستعانة بالأساليب الطبية الحديثة و التي قد تكون أكثر أمنا و سلامة للرضع ، فهل مازلنا متمسكين بالعادات و التقاليد كما كانت الأجيال السابقة ؟ هل لازلنا نحترمها بل و نقدسها

كما فعل أسلافنا؟ و هل مازلنا نلجأ إليها في رعاية فلذات أكبادنا؟ هل مازالت محل ثقتنا؟ لتتجلى محاور إشكالية هذا البحث في ما يلي أولا : الكشف عن أهم العادات و التقاليد الممارسة في عملية رعاية الرضع و القيام بمسحها و وصفها و تحليلها، و تحليل تلك الآلية التي تحكم الاستعانة بها أي ثنائية "الوسيلة و الهدف"، و بالتالي الكشف عن سلم القيم الذي يملي علينا الاستعانة بهذه العادات و هو ربما ما يشكل قوة ذاتية في العادات الاجتماعية تجعلها صعبة التغيير لصالح ما هو علمي حديث .

ثانيا : وصف الأساليب الطبية الحديثة مع رفع التناقضات بين ما هو طبي وما هو تقليدي مع محاولة الكشف عن الطريقة المثلى لرعاية فلذات أكبادنا ، مع ضرورة تقصي الآثار التي قد تتركها هذه العادات و التقاليد على فسيولوجية الطفل و إذا كانت دائما مفيدة أم لا ؟ ثم أي الطريقتين أكثر فعالية وأكثر انتشارا في الواقع ؟

إن ما نراه اليوم يؤكد تطور و انتشار الأساليب الطبية الحديثة بنسبة أكبر

مما كان عليه الأمر سابقا ، فمبدئيا يبدو الآن أن الأدوات متاحة للإطلاع والاستعانة بالأساليب الحديثة نظرا لوسائل الإعلام بكل أنواعها من كتب، مجلات و الانترنت التي جعلت في ظرف قياسي العالم بين أيدينا، و على حافة أطراف أناملنا ، أو تعدد القنوات الفضائية الموضوعاتية و المتخصصة ، أو تعدد الإذاعات الجوارية ، كل هذا جعل من المعلومة العلمية أو بالأحرى النصيحة الطبية متاحة و منتشرة أكثر من أي وقت مضى ، و مع هذا فليس من مؤشر يؤكد لنا الاستغناء عن العادات و التقاليد المتوارثة في مجال رعاية الرضع ، في مقابل تفضيل الاستعانة

بالنصائح الطبية و في هذا السياق حاولنا في أول خطوة الاحتكاك بالواقع – الذي كان بمثابة الجولة الاستطلاعية –و مكننا ذلك من وضع الفرضيات التي شكلت إجابات ممكنة و مبكرة لأسئلة الإشكالية و ساعدت على تحديد وجهة البحث دون وجود لبرهان صدقها أو ثباتها إذ تعين علينا توخي الحذر بغية التمتع بهامش من الحرية لتقبل ما قد يجود به الميدان.و التي كانت كالآتي :

الفرضيات:

- إن قوة العادات و التقاليد المتوارثة تكمن في منظومة القيم التي يسعى المجتمع لتكريسها و الحفاظ عليها،و هذا ما يجعلها محتفظة دائما بمكانتها في نفوس الأفراد و صامدة في وجه التغيير و الحداثة و التفتح العالمي .
- إن افترضنا بأن هناك تغيير في طبيعة المكانة التي تحتلها العادات و التقاليد داخل المجتمع فقد تكون الظروف الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية هي السبب في إقبال أو إدبار الناس عن التعلق بها في مقابل الإدبار أو الإقبال عن إتباع الأساليب الطبية الحديثة.
- بالرغم من مكانة العادات و التقاليد في النفوس إلا أنها لا تضاهي الأساليب الطبية الحديثة في الأمن و السلامة الصحية للأطفال.

منهج البحث

لقد تعددت المناهج و المقاربات التي تناول من خلالها علماء لاجتماع و الأنثربولوجيا دراسات مثل هذه مرتكزة على المجتمع و التغير الاجتماعي أو العادات و التقاليد ،و أهمية المنهج تكمن في اعتباره بمثابة المسبار أو العدسة العلمية التي من خلالها يمكننا أن ننظر إلى ظاهرة ما بغية تحليلها و شرحها و فهمها ، و ارتأينا أن يكون المنهج البنائي الوظيفي أسلوب لدراستنا هذه و ذلك بوصف و تحليل ما يحدث داخل بنى المجتمع و ما يستجد أو يطرأ على هذه البنى من تغيير و كيف تتفاعل الأنساق الفرعية داخل المجتمع باعتباره نسقا عاما من أجل تحقيق التوازن العام و الضروري لوجوده ثم ماذا عن حيثيات الوظائف الساعية للحفاظ على هذا التوازن وفقا للمنظور البنيوي الوظيفي الذي استحدثه تالكوت بارسونس ..و لكن و قبل التحليل البنيوي الوظيفي استدعت دراسة كهذه اعتماد و صف العادات و التقاليد المنتشرة و الخاصة برعاية الرضع من أجل تأملها و رصد دواعي استمرارها أو أسباب زوالها .

مجتمع البحث

قبل التطرق للعينات المختارة ،تجب علينا الإشارة إلى المجال الجغرافي الذي تم الاعتماد عليه و هو منطقة سيدي بلعباس لماذا؟ قلنا منطقة و ليس ولاية سيدي بلعباس ..لأن التقسيم الإداري لا يأخذ في الحسبان الانتماءات القبلية في الجزائر و لا يهمنا هذا التقسيم الرسمي و لكن ما يهمنا هو

الاختلاف و الثراء الموجود في المنطقة و الذي يكون عبر الزمن و بفعل الاحتكاك و التحوير الذي يطرأ على الثقافات في محاولة إعادة تشكل و تموقع من أجل الاستمرار قد اصطبغ بصبغة محلية تميزه عن باقي جهات الوطن هذا من جهة ومن جهة أخرى ربما وجب أيضا تبرير اختيار المنطقة على حساب مناطق أخرى ؟و هذا ما يجد جوابه في كوننا من هذه الولاية ولدنا و ترعرعنا فيها و مدينة ألفناها أيضا إضافة إلى أنها مدينة حديثة نسبيا مقارنة بباقي المدن المحيطة بها كتلمسان أو وهران أي أنها مدينة –عمرانا – بناها المستعمر و عرفت على مر فترات متلاحقة من الزمن توافد الكثير من القبائل و البطون التي كانت تعيش على ضفاف وادي مكرة و التي أخذت في النزوح أكثر فأكثر منذ أم شرع المستعمر في وضع المعالم العمرانية الأولى و كان سهل ملاتة و المياة المتوفرة من أكثر ما يستهوي الناس على الاستقرار بها [1] و بالنظر لعدد البطون المتواجدة في المنطقة تعتبر في نظرنا عبارة عن فسيفساء من حيث التركيبة البشرية و هو ما يزيد الزخم الثقافي الموجود بها غنى و تنوعا.

المعاينة و التقنيات المعتمدة

إن العينة هي مجموعة من الناس أو الوحدات الذين تم اختيارهم ليكونوا ضمن الدراسة و اختيار العينة هو اختيار لهؤلاء الأفراد أو الوحدات أو المنظمات من مجتمع بعينه بحيث أننا إذا درسنا ظاهرة ما أمكننا بعد ذلك تعميم نتائج الدراسة على

[1] و هي كلها تفاصيل نجدها بدقة أكثر في المدخل الخاص بالفضاء التاريخي و الجغرافي للمدينة.

المجتمع الذي اخترناها منه ، و لدواعي تفرضها طبيعة الموضوع ارتأينا أن تكون طبيعة عيناتنا قصدية و اختلفت وحداتها ، إذ في البداية و قصد مسح العادات و التقاليد السائدة في المنطقة و التعريف بها توجهنا إلى سيدات مسنات و جدات كانت لهن فرصة الإشراف على رعاية أولادهن ثم أحفادهن و تباين انتماءهن بين مناطق ريفية و أخرى حضرية كلها كانت في منطقة سيدي بلعباس و تجدر الإشارة هنا إلى أننا و قبل الشروع في المقابلات التي كانت فردية اعتمدنا أسلوب المقابلات البؤرية و التي كانت بمثابة البحث الاستطلاعي و يمكن القول بأنها أتيحت لنا بشكل عفوي حيث كنا نتحين فرصا تمكن من الاتصال بهؤلاء النسوة في العديد من المناسبات و كنا في الغالب نعمد إثارة مواضيع خاصة بالعادات و التقاليد و الحنين إلى الأزمنة التي ولت و انقضت – و هي حاجة من الممكن استثارتها و استثمارها بسهولة لكونها شعور عام يقتسمه العديد من الأفراد في الوقت الراهن– و قد ساعدتنا هذه المرحلة على بلورة و تحديد الأسئلة النهائية التي من شأنها أن تساعدنا في جمع معلومات ذات طبيعة كيفية حول العادات المنتشرة و الخاصة برعاية الرضع و في مرحلة موالية سطرنا محاور المقابلة بشكل نهائي وقد جاءت نصف موجهة ، و شملت مائة مستجوبة، ساعدنا طلبة قسم علم الاجتماع في الاتصال بهن و جمع المعلومات و التي حملت لنا حين تفريغها ثراءا و تنوعا في طرق الإشراف على رعاية الرضع في سيدي بلعباس و كل ما يحيط بهذه العادات المتبعة في هذا السياق من أسرار و اكتشاف بعض ما يكتنفها من غموض حيث يعتمدن غالبا على بعض التفسيرات الغير مؤسسة منطقيا و لكنها جد مقبولة لدى العامة و مهضومة بشكل لا تستثار معه الأسئلة،و قد كانت هذه الخطوة جد مهمة في بحثنا

هذا إذ لعبت الجدات دور المخبرات أما المعلومات المستقاة فقد ساعدتنا في مرحلة لاحقة على توجيه أسئلة الاستمارة التي خصت مائتي مبحوثة كعينة ثانية مكونة من الأمهات الحديثات الوضع بهدف معرفة مدى التمسك أولا بالعادات و التقاليد في العناية بالرضع أو طبيعة الطرق المستعملة سواء كانت تقليدية أو حديثة و بدا لنا امثل مكان لتوزيع استماراتنا هو إحدى العيادات المتخصصة في طب الأطفال في ولاية سيدي بلعباس و التي تعرف توافد بمعدل 30 مريض يوميا مرفقين في الغالب بالأمهات ، فكنا نوزع بمعدل 10 عشر استمارات في اليوم حسب الظروف المواتية و بالنظر لحالات المرضى و الأمهات التي كانت تتيح في الغالب فرصة الحديث عن موضوع البحث و قد كان توزيع الاستبيان بهذا الشكل المباشر جد فعال إذ و نحن على مقربة من الأمهات كنا على ثقة بأنهن يجبن شخصيا على أسئلة الاستمارة و ساعدنا ذلك على استجلاء الكثير من المعلومات كما كنا نسأل و ندون إجابات الأمهات اللواتي لا يجيدون القراءة و الكتابة ، و في مثل هذه الحالات كان الاستجواب أمثل طريقة لاستقاء هذا النوع من المعلومات و ملء الاستمارات ، و كان الحديث يضفي شيئا من الدفء و الحميمية على الكلام ، جعلت الكثيرات تسترسلن في الكلام و تدلين بتفاصيل تجاربهن في التربية، و معاناة بعضهن من المحيط الأسري، لا سيما أمام الجدات اللواتي تضطلعن بهذه الأمور، و تفرضن أشياء لا تلقى دائما الاستحسان لدى الأم الوالدة.

و بغية إكمال البحث اتضح لنا بأنه لا بد من أخذ آراء الأطباء كطرف ثالث في هذه المعادلة حتى يكتمل المشهد و ذلك بالتطرق إلى ما تمليه الأساليب الطبية

الحديثة و بعد توزيع ما يزيد عن المائة و عشرون استمارة استطعنا استرجاع سبعون استمارة فقط خصت سبعون طبيب شكلوا أعضاء عينتنا الثالثة بعضهم متخصص في طب الأطفال و البعض الآخر عام و استطعنا أخذ أرائهم عن طريق أصدقاءهم و زملاء لهم في المهنة أحيانا ، و أحيانا أخرى عن طريق الأطباء المنتدبين لشركات بيع الأدوية فبحكم مهنتهم يتنقلون كثيرا إلى العيادات الخاصة و تلك التابعة للقطاع العام بهدف إقناع الأطباء بفعالية الأدوية التي يروجون لها ،و قد لبى البعض ممن نعرفهم دعوتنا لتوزيع الاستمارة على الأطباء الذين يزورونهم و قاموا باستعادتها و تسليمها لنا و قد دامت فترة العمل الميداني هذه قرابة السنتين وذلك على فترات متباينة ابتداء من 2007، إلى غاية العام الماضي إلا أنها كانت الأمتع من حيث ثراء ما يحمله الأفراد واختلافهم في طرق تفكيرهم و سلوكيات حياتهم داخل الجماعة و نظراتهم المختلفة للآخر و للمجتمع ،بانتقاد ضغوطاته حينا و بالتعبير عن سعادة الانتماء إليه أحيانا أخرى.

أما عن أدوات البحث فبالإضافة إلى تلك التي ذكرت أعلاه من استجواب و استمارات، و كذا المقابلات مع النساء المسنات فقد عمدت أيضا إلى الملاحظة الشخصية ،و أتاحت لي تجربتي الخاصة في فترات البحث فرص الملاحظة بالمشاركة، و عموما ساعدتنا الملاحظة على تأمل ازدواجية المواقف و السلوكات و التعابير عند بعض الأطباء و بعض الأمهات و سنعود إلى ذلك لاحقا فقد شكلت هذه المواقف عوائق معرفية لاستشفاف الواقع و لكن لحسن الحظ لم تكن بالقدر الذي يؤثر على تمثيلية la représentativité العينات.

أسباب اختيار الموضوع و أهميته

لقد ذكرت أعلاه في الصفحة 1 و 2 بعض الأسباب التي دفعت بنا إلى اختيار هذا الموضوع و كانت كلها ذاتية غير أن الأسباب الموضوعية تختلف ومنها ما شد انتباهنا من نتائج وخيمة أحيانا على صحة الرضع جراء اعتماد بعض الأولياء لطرق تقليدية مأخوذة من الموروث الشعبي الخاص بالتطبيب و هو أمر واقع أطلعنا عليه العديد من الأطباء و لكن و لسوء الحظ أنه عندما طالبنا بإحصائيات تثبت الحالة علمنا أن الإحصائيات الصحية في الجزائر لا تأخذ بعين الاعتبار هذه التفاصيل الكيفية حول أسباب الوفيات و قد أسر لنا بعض الأطباء أنه في حيات مهنية مقدرة بحوالي العشرين سنة شوهدت الكثير من الحالات التي يلقى الرضع فيها حتفهم جراء تأخر التدخل الطبي و اعتماد الأساليب التقليدية و في الواقع فالعوائق في وجه الحصول على احصائيات بهذا الشكل تعود الى مردين أساسيين هما : أولا – أننا ننتمي الى مجتمعات قدرية التفكير في كل ما هو متعلق بالحياة أو الرزق أو الموت.

ثانيا– أن طبيعة الألم أو ما يعرف في علم النفس بالجراح النرجسية التي قد يعاني منها الأولياء الذين فقدوا أحد فلذات أكبادهم تحول دون إمكانية الاستفسار أو الحصول على المعلومات الدقيقة حول تفاصيل ما تعرض له الطفل من أساليب تطبيبية تقليدية و عموما سنعود إلى هذه النقطة لاحقا..

كان هذا أهم انشغال موضوعي جعلنا نلقي الضوء على العادات و التقاليد التي تخص رعاية الرضع دون غيرهم من فئات المجتمع الأخرى فالكل منا معني

بالعادات و التقاليد و لكن العبرة على المتلقي، و بحلوها أو بمرها فلا تعنينا أبدا بنفس القدر و لا بنفس الأثر ..

صعوبات الدراسة

لا يخلو أي جهد من العقبات التي قد تحول دون بلوغ المبتغى غير أن الرغبة في بلوغ الهدف و المتعة التي عشناها و نحن نكتشف اختلاف و ثراء العادات و التقاليد المتوارثة جعلتنا نستمر في هذا العمل بكثير من الارتياح و هذا لم يمنع من مصادفة بعض المعوقات الابستمولوجية نذكر منها تلك الخاصة بطبيعة المكان الذي اخترناه(عيادة طبية متخصصة في طب الأطفال)لتوزيع الاستمارات أو ملئها أحيانا و الخاصة بالأمهات حيث كانت العديد منهن ترفض الاستجابة للطلب مبدية قلقها على حالة المريض الذي يرافقها و أحيانا أخرى كانت المعنيات بالبحث تملأن الاستمارة بالشكل الذي يتماشى مع توجيهات الطبيب المعالج و الذي كان في الغالب يوصي بترك العادات القديمة و تبني الأساليب الطبية الحديثة و هو ما من شأنه أن يشكك في كل النتائج المتوصل إليها و قد تفطننا لذلك بسبب التعليقات التي كانت تتلفظ بها العديد من الأمهات مما كان يدفعنا إلى شرح أسباب العمل و دواعيه و كيف أنه لا علاقة للطبيب بهذا العمل و أنه على المبحوثة أن تتقيد بواقع ما يحدث معها و ليس بما يرضي الطبيب

هذا من جهة ،ومن جهة أخرى ما لمسناه من تناقض بين المواقف المعبر عنها في الاستمارات و تلك التي شاهدناها في تعامل بعض الأطباء مع مرضاهم إذ يذهب البعض منهم إلى درجة شرح وصفات تقليدية تجعل الرضع ينامون بسرعة

و بعمق و لكن نفس هؤلاء الأطباء عندما نمدهم باستمارة للملء تطفو على محياهم ملامح الخوف من المكتوب و يقع اختيارهم على الاقتراحات تتناقض في الغالب مع ما لمسناه في الواقع هذا من جهة و من جهة أخرى فالأطباء كانوا الأقل تفاعلا معنا و استجابة لنا بالرغم من أننا –ولعدد كبير من الاستمارات– لجأنا إلى زملاء لهم في الغالب و مع هذا فلم نسترجع سوى 70 استمارة من أصل مائة و عشرون.

الدراسات السابقة

من أهم الدراسات السابقة التي اعتمدنا عليها و ساعدتنا في رسم ملامح هذا البحث منهجيا و معرفيا نذكر :

1 _كتاب بعنوان العائلة و القرابة و الزواج،دراسة تحليلية في تغير نظم العائلة و القرابة و الزواج في المجتمع العربي الصادر سنة 1985لاحسان محمد الحسن و قد ساعدنا هذا الكتاب على اختيار المنهج البنيوي الوظيفي كأسلوب بحث اعتمده الكاتب في رصد وقائع و تطورات طرأت على نظم العائلة و القرابة و الزواج باعتبارها أهم النظم البنيوية التي تؤثر في شكلية و استمرارية و فاعلية و ديناميكية البناء الاجتماعي .

2 _ الكتاب الثاني بعنوان العائلة الجزائرية تطور و خصائص حالية la famille algérienne évolution et caractéristiques récentes لصاحبه المختص في علم الاجتماع العائلي مصطفى بوتفنوشت و الذي ساعدنا كثيرا في فهم المنحى و المسار الذي أخذته العائلة الجزائرية في صيرورتها و الأسباب التي كانت

وراء التغيير الحاصل عليها كبنية كان من الواجب تسليط الضوء عليها لفهم المجتمع الجزائري و باعتبارها المرآة العاكسة و بصدق للأنماط السياسية و الثقافية و الاقتصادية و القانونية التي عرفها المجتمع و تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها الأولى من نوعها غداة الاستقلال و قد أشار الكاتب إلى الصعوبات التي صادفها خاصة في جمع المعلومات العلمية لقلتها و عول على أداة الملاحظة بالمشاركة والتحقيق الميداني الذي أجراه في المدن الثلاثة الكبرى كمراكز حضرية و صناعية استقطبت العمال للتركز فيها و هي الجزائر آنذاك و هي وهران الجزائر العاصمة و عنابة و استطاع وضع اليد على القرائن المرجعية التي حددت معالم التغير الطارئ على الأسرة الجزائرية ، تطرق الباحث إلى تطور البنياتdomesticoéconomiques من الجزائر التقليدية إلى الجزائر العصرية و ذلك وفق محور تاريخي يحيلنا إلى التغيير الحاصل على مدى ثلاثة أجيال بدءا من مطلع القرن العشرين و إلى حين انجاز الدراسة سنة 1976 مع العلم أن الكتاب طبع سنة 1980 – حيث كان قبل ذلك موضوع رسالة دكتوراه في جامعة بوردو2 ، ومن أهم المصطلحات التي استخدمها الباحث في هذا المؤلف مصطلح البنية التي لا يمكن اعتبارها المظهر الساكن للتنظيم الاجتماعي بل باعتبارها مالكة لديناميتها الخاصة و التي لا تظهر و لا تدرك إلا بعد مرور فترات متباينة تمكن التغيير منها و من جهة أخرى كبنية تستجيب للحاجات الوظيفية للمجتمع و هذه الحاجات هي التي تبرر التغيير الطارئ عليها كما تجب الإشارة إلى المصطلح الذي استخدمه الباحث للتعبير عن العائلة بمفهومها العريض و بمظهرها الأكثر تعقيدا و التي تضم الأجيال الثلاثة بخصوصياتها الاقتصادية و الثقافية و الاجتماعية التي تميزها عن

الأسرة النووية و هذا المصطلح هو le groupe domesticoéconomique يبقى أن الجزائر المعاصرة التي شهدت بلورة ملامح التغيير –وفق هذا المرجع الهام– تحددت بداياتها في الفترة الممتدة مابين 1930 و 1940 فترة تميزت ببروز الحركة الإصلاحية للشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان رائدا في بعث بوادر ثورة ثقافية و اديولوجية في الجزائر بوادر مست شريحة عريضة من الشباب الجزائري آنذاك ممن كانوا أعضاء في العينة التي قام بدراستها الباحث و قد خلص الباحث إلى مجموعة من الاستنتاجات التي تؤكد وجود التغيير البطيء الذي استدعته مجموعة من العوامل الاقتصادية و السياسية .

3 _ كتاب آخر شكل نقطة انطلاق لنا في هذا البحث و هو بعنوان في إشكالية المقدس لصاحبه نورالدين طوالبي و هو باحث نفساني تناول في دراسته هذه ظاهرة التقاطب أو الصراع القائم عند الجماعات بين العقائد و التقاليد الأصولية الراسخة المتعلقة بالدين الإسلامي و بين المكتسبات الحديثة التي أدخلتها عليها الثقافة الغربية الفرنسية بالنسبة للجزائر كما يلاحظ من خلال دراسته الميدانية التفاوت في حدة هذا التقاطب بين الجماعات الريفية و الجماعات التي تقطن المدن بحيث يستنتج أن الأولى أقل تقاطبا من الثانية و أشد ارتباطا من بالممارسات المقدسة التي يشوبها الغموض في حين أن الفرد في المدن الجزائرية يعيش ثقافته بشكل تقاطبي للغاية تتجاذبه الرغبة في بلوغ الحداثة و يعاني في الوقت ذاته قلقا جراء خوفه من فقدان الأصالة و قيمه التقليدية ،كتاب صدر سنة 1985 استطاع الباحث من خلاله و بحكم تخصصه في الطب النفسي تسليط الضوء على قضايا

التغيير و التقاليد و الحداثة في الجزائر من زوايا علم النفس أو علم النفس الاجتماعي .

4 _ تحولات المجتمع الجزائري ، العائلة و الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة هو كتاب آخر لصاحبه لهواري عدي الذي اعتمد مقاربات أنثروبولوجية في توضيح معالم التغيير الاجتماعي الحاصل في الجزائر من فترة الستينات إلى فترة الثمانينات هذه الفترة التي تميزت بظاهرتين اجتماعيتين مرتبطتين و هما تطور مكانة المرأة و تنامي الإسلام السياسي في الجزائر و بين المؤلف في هذا الكتاب كيف أن النزوح الريفي الذي شهدته الجزائر غداة الاستقلال و الذي تسبب في تهديم بنية العائلة كما عرفتها جزائر ما قبل الاستقلال و إعادة تشكيل العوائل داخل الفضاءات الحضرية الجديدة و ما تولد عن ذلك من حالات الصراع و الإحباط بالنسبة للبعض أو التطلعات الجديدة أحيانا بالنسبة للبعض الآخر و كيف أن اندثار الأسس الجماعية للثقافة الأبوية و منظومة القيم الخاصة بها دفع بالكثيرين للبحث في الإسلام عن مرجعيات جديدة أو نماذج بديلة في المجتمع من أجل إعادة خلق أو إبداع فضاءات جديدة و كيف أن هذه الظروف أدت إلى إعادة تموضع فيما يخص دور المرأة في المجتمع و هو ما قد يحدث تناقضات أو صراعات عنيفة داخل المجتمع .

5 _ كتاب لفوزية دياب بعنوان القيم و العادات الاجتماعية مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية المنشور سنة 1980 كتاب تطرقت فيه الباحثة إلى التعريف بالعادات و التقاليد و الأعراف و المعتقدات و القيم من حيث النشأة و

الخصائص و الوظائف و الأهمية الاجتماعية مع إبراز دورها خاصة في المجتمعات العربية .

6 _ و هناك كتاب جاء في نظرنا ليسد فراغا في المكتبة الجزائرية خاصة فيما يخص مسألة الرباط الاجتماعي و تطور العائلة الجزائرية و هو حديث نسبيا إذ صدر في سنة 2009 لكن استفدنا منه كثيرا انه متاب لصاحبه الباحث حمدوش رشيد بعنوان مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة امتدادية أم قطيعة مع دراسة ميدانية في مدينة الجزائر كنموذج توضيحي و الذي رمى الباحث من خلاله إلى رصد للشبكة العلائقية و الكيفية التي تنتج بها هذه الروابط وسط فئة الشباب و تكمن أهمية هذه الدراسة في جملة المسائل و النقاط التي عالجها كالحداثة و التقاليد و الهوية و ميكروسوسيلوجيا الأسرة الجزائرية و الرباط الاجتماعي في الجزائر .

تنقص الرسائل و الأطاريح

تحديد المفاهيم

أهداف الدراسة

الفصل الأول

الاتجاه البنيوي الوظيفي في الأنثربولوجيا

المبحث الأول: المبادئ و أهم المفاهيم التي تقوم عليها النظرية البنيوية الوظيفية

يعد الاتجاه الوظيفي من الاتجاهات النظرية الأساسية في علم الإنسان وعلم الاجتماع. أخذ هذا الاتجاه في التبلور منهجا نظريا لدراسة الثقافات الإنسانية في أعقاب ظهور كل من البنيوية الاجتماعية على يد كل من كلود ليفي ستروس و كولدون ويزر عندما نشر العالمان كتابي (أبنية القرابة) و (الطوطمية)على التوالي و الوظيفية على أيدي كل من ماكس فيبر و إميل دركايم و وليم غراهام سمنر في

مؤلفاتهم المنشورة (الدين و الاقتصاد) و (تقسيم العمل) و (طرق الشعوب) علما بأن ظهورها كان كرد فعل للتراجع و الضعف الذي منيت به كل من البنيوية و الوظيفية لكون كل منهما أحادية النظرة فالبنيوية تفسر المجتمع و الظاهرة الاجتماعية وفقا للأجزاء و المكونات التي يتكون منا لبناء الاجتماعي بعيدا عن الوظائف التي تؤديها هذه الأجزاء و النتائج المنجرة عن تفاعلاتها ، في حين أن الوظيفية تفسر الظاهرة الاجتماعية تفسيرا يأخذ بعين الاعتبار نتائج وجودها ، و فعاليتها بعيدا عن بناءها و الأجزاء التي تظهر فيها و أن لظهورها وظيفة اجتماعية لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بوظائف الظواهر الأخرى المشتقة من الأجزاء الأخرى للبناء الاجتماعي ، كما ظهر هذا الاتجاه البنيوي الوظيفي استجابة لحاجة عدد من الباحثين في علمي الاجتماع والانثروبولوجيا نحو تطوير أدوات وأساليب نظرية ومنهجية تتماشى ودراسة الصور المختلفة للترابطات الاجتماعية والتفاعل بين السمات والجماعات والنظم داخل النسق الاجتماعي الكبير الذي يكتنف الأنساق الفرعية. أما المنحى الأخر للفكر البنيوي الوظيفي فقد كان استجابة لدعاوي ايدلوجية وسياسية إذ أرادت أن تناهض علم الاجتماع الماركسي وتضرب الطوق والعزلة الفكرية والسياسية على السياق التاريخي المادي الذي تشأ وترعرع فيه،

من جهة أخرى ،يرتبط نشوء النظرية البنيوية الوظيفية بالفكر الوضعي إذ كانت النزعة الوضعية منذ بداية القرن التاسع عشر مؤيدة للعلم ومعارضة للميتفيزيقيا التقليدية, إذ أن تأييدها للعلم والمنطق التجريبي كان يستند على فكرة الوصول إلى

القوانين التي تخضع لها الوقائع والظواهر الاجتماعية. لذا أكدوا على فكرة العلم الطبيعي خاصة علم الأحياء وأهميته في دراسة المجتمع, كيف لا و هو العلم الذي يدرس تراكيب ووظائف الكائن الحيواني أو النباتي الحي و قد نستشف تاريخيا هذا التأثر انطلاقا من أعمال شارلز دارون في كتابة (أصل الأنواع) إذ أنه تناول دراسة الأجزاء التي يتكون منها الكائن العضوي والترابط بينها ودرس وظائفها للكائن العضوي ككل.

ومثل هذه الدراسة يمكن الاستفادة منها في تحليل المجتمع البشري الذي هو الأخر الذي يتكون من أجزاء تسمى بالأنظمة التي لها وظائف يكمل بعضها البعض الآخر .

و في هذا الشأن ذهب هربرت سبنسير في موضوع المماثلة إلى أبعد من ذلك حيث شبه المجتمع من حيث البناء والوظيفة بالكائن الحي بحسبان أن المجتمع ينمو ويتطور تماما كما ينمو الأول ويتطور.[2]

واستخدم سبنسر اصطلاحات العلوم الطبيعية في تحليلاته البنائية الوظيفية للمجتمع والحياة الاجتماعية مثل الفسيولوجيا و المورفولوجيا والإيكولوجيا ...إلخ. وأشار بوضوح إلى أن البناء يتألف من الأجزاء التي تدخل في تركيبه وفي عناصر

[2] د. عاطف وصفي: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الصفحة 45.

جزئية تؤدي دورها في عملية التساند بين جميع الأجزاء التي تدخل في تركيب البناء الكلي.[3]

ذالك أن للمجتمع بناء ووظيفة وان هناك تكاملا بين الجانب البنيوي للمجتمع والجانب الوظيفي إذ أن البناء يكمل الوظيفة والوظيفة تكمل البناء. فكيف يمكن التحدث عن البناء دون ذكر وظائفه , وكيف يمكن التحدث عن وظائف الجماعات والكيانات دون تناول بنائها .وهنا يقول تالكوت بارسونز في كتابة (النسق الاجتماعي) لا بناء بدون وظائف اجتماعية ولا وظائف بدون بناء اجتماعي .وهذا يدل على وجود علاقة متفاعلة بين البناء والوظيفة , وان هناك درجة عالية من التكامل بينهما ,اذ لانستطيع الفصل مطلقا بين البناء والوظيفة علما أن النظرية البنيوية الوظيفية ظهرت في القرن التاسع عشر على يد العالم البريطاني هربرت سبنسر ثم انتقلت إلى أمريكا فطورها هناك كل من تالكوت بارسونس و ربرت ميرتون و آخرون مع أن الوظيفية كانت قد اقترنت في بريطانيا بشكل خاص بالأنثربولوجيا الاجتماعية و بأسماء كل من مالينوفسكي و راد كليف براون [4].

[3] د. عاطف وصفي: نفس المرجع السابق، الصفحة 46-47.

[4] د. عاطف وصفي: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت 1981، الطبعة الثالثة، الصفحة 42.

تعتقد النظرية البنيوية الوظيفية التي كان روادها كل من هربرت سبنسر وتالكوت بارسونز وروبرت ميرتون و هانز كيرث وسي رايت ملز بعشره مبادئ أساسية متكاملة ,كل مبدأ يكمل المبدأ الأخر . وهذه المبادئ هي على النحو الآتي:

-1يتكون المجتمع أو المجتمع المحلي أو المؤسسة أو الجماعة مهما يكن غرضها وحجمها من أجزاء ووحدات ,مختلفة بعضها عن بعض وعلى الرغم من اختلافها إلا أنها مترابطة ومتساندة ومتجاوبة واحدتها مع الأخرى.

-2المجتمع أو الجماعة أو المؤسسة يمكن تحليلها تحليلا بنيويا وظيفيا إلى أجزاء وعناصر أولية ،أي أن المؤسسة تتكون من أجزاء أو عناصر لكل منها وظائفها الأساسية.

-3إن الأجزاء التي تحلل إليها المؤسسة أو المجتمع أو الظاهرة الاجتماعية إنما هي أجزاء متكاملة ,فكل جزء يكمل الجزء الآخر وان أي تغيير يطرأ على احد الأجزاء لابد أن ينعكس على بقية الأجزاء وبالتالي يحدث ما يسمى بعملية التغير الاجتماعي.

.من هنا تفسر النظرية البنيوية الوظيفية التغير الاجتماعي بتغير جزئي يطرأ على احد الوحدات أو العناصر التركيبية، وهذا التغير سرعان ما يؤثر في بقية الأجزاء إذ يغيرها من طور إلى طور آخر.

-4إن كل جزء من أجزاء المؤسسة أو النسق له وظائف بنيوية نابعة من طبيعة الجزء . وهذه الوظائف مختلفة نتيجة اختلاف الأجزاء أو الوحدات التركيبية، وعلى الرغم

من اختلاف الوظائف فان هناك درجة من التكامل بينها .لذا فوظائف البنى ألمؤسسيه مختلفة ولكن على الرغم من الاختلاف فان هناك تكاملا واضحا بينهما.

5– الوظائف التي تؤديها الجماعة أو المؤسسة أو يؤديها المجتمع إنما تشبع حاجات الأفراد المنتمين أو حاجات المؤسسات الأخرى , والحاجات التي تشبعها المؤسسات قد تكون حاجات أساسية أو حاجات اجتماعية أو حاجات روحية.

6-الوظائف التي تؤديها المؤسسة أو الجماعة قد تكون وظائف ظاهرة أو كامنة أو وظائف بناءة أو وظائف هدامة.

7-وجود نظام قيمي أو معياري يسير البنى الهيكلية للمجتمع أو المؤسسة في مجاله. فالنظام القيمي هو الذي يقسم العمل على الأفراد ويحدد واجبات كل فرد وحقوقه،كما يحدد أساليب اتصاله وتفاعله مع الآخرين . إضافة إلى تحديده لماهية الأفعال التي يكافأ عليها الفرد أو يعاقب.

8-تعتقد النظرية البنيوية الوظيفية بنظام اتصال أو علاقات إنسانية تمرر عن طريقه المعلومات والايعازات من المراكز القيادية إلى المراكز القاعدية أو من المراكز الأخيرة إلى المراكز القيادية.

9-تعتقد النظرية البنيوية الوظيفية بنظامي السلطة والمنزلة .فنظام السلطة في المجتمع أو المؤسسة هو الذي يتخذ القرارات ويصدر الايعازات والأوامر إلى الأدوار الوسطية أو القاعدية لكي توضع موضع التنفيذ ، فهناك في النظام ادوار تصدر الأوامر وهناك ادوار تطيعها .أما نظام المنزلة فهو النظام الذي يقضي بمنح

الامتيازات والمكافآت للبعض على حساب البعض الآخر، علما بأن الموازنة بين نظامي السلطة والمنزلة هي شيء ضروري لديمومة وفاعلية المؤسسة أو النظام أو النسق.

الإضافات التي قدمها أبرز رواد البنيوية الوظيفية

نود التطرق إلى الإضافات العلمية التي وهبها ابرز البنيويون الوظيفيون لنمو وتطور النظرية البنيوية الوظيفية ، ونذكر أولا اسهامات دوركايم ثم هربرت سبنسر وتالكوت بارسونز و روبر ميرتون .

أولا: إسهامات دوركايم في تأسيس البنيوية الوظيفية

إن اهتمام دوركايم بالوقائع الاجتماعية جعله يهتم أيضا بالأجزاء المكونة للنسق الاجتماعي من جهة وعلاقات الأجزاء يبعضها البعض ومن ثم تأثيرها على المجتمع . ففي حديثه عن الوقائع الاجتماعية وجد نفسه مضطرا لإعطائها أهمية كونها تندرج في إطار في بنى ومؤسسات سعى دوركايم إلى البحث عنها.
كما اعتنى دوركايم كثيرا بالبنى والوظائف وعلاقاتها بحاجيات المجتمع . وهذا يعني اهتمامه بالبنية والوظيفة كعنصرين هامين في التحليل السوسيولوجي.
من أهم الأمور التي قام بها دوركايم تمييزه بين مفهومين هما " السبب الاجتماعي و "الوظيفة الاجتماعية"،إذ أن دراسة " السبب الاجتماعي "سيعني الاهتمام بمبررات وجود البنية . أما دراسة " الوظيفة الاجتماعية " فستعني بالاهتمام بحاجيات المجتمع الكبيرة وكيفية تلبيتها من طرف بنية معينة.

مثال: إذا درسنا سبب ظهور الأسرة النووية فسنفكر ما إذا كان التصنيع وانتقال الناس من حال إلى حال هو السبب في ذلك ، كما سنتساءل عن وظيفة الأسرة النووية كبنية جديدة في المجتمع الصناعي.

رابعا:

رفض دوركايم رفضا قاطعا فكرة أسطورية الدين ، وأكد في المقابل على انه ظاهرة عالمية وبالتالي لابد وان تكون له وظيفة في المجتمعات البشرية ،و من بين وظائف الدين عند دوركايم وابن خلدون العمل على توحيد الناس وخلق روح التضامن الاجتماعي بينهم عن طريق القيم الثقافية والاعتقادات الدينية التي يدعو إليها هذا الدين أو ذاك

كوظيفة الشعائر الدينية تنقص المراجع للأحالات

يقدم دوركايم في كتابه " الأشكال الأولية للحياة الدينية " نموذجا للمعنى الاجتماعي للشعائر الدينية أو الحفلات المراسمية . ففي نظره تحقق الشعائر الدينية التماسك الاجتماعي من خلال أدائها لأربع وظائف :

1 مراسم الحفل ، وهذه تهيئ الفرد للحياة الاجتماعية من خلال فرض الطاعة عليه

2 إن وظيفة الشعائر الدينية تتمثل في كونها تقوي من تماسك المجتمع وترابط العلاقات بين الأفراد والمجموعات.

3 تجدد الشعائر الدينية لدى ممارستها التزام الفرد لتقاليد المجتمع.

4 يشعر الفرد بالراحة والحماس الاجتماعي أثناء مشاركته بالحفل الديني .

عبر هذه الحالات الأربع فإن الشعائر الدينية تساهم بتلبية الحاجات الدينية للفرد ، ومن ثم يتضح من التفكير السوسيولوجي الدوركايمي أن كل وحدة اجتماعية في المجتمع لها علاقة بالمجتمع الكبير و بكل الوحدات الموجودة فيه ويعتقد دوركايم أن الانسجام في المجتمع يصبح واقعا مجسما عندما تسود هذه الحالة الطبيعية . أي عند قيام هذه الوحدات الأربع بوظائفها في المجتمع ككل.

ثانيا: الإضافات التي قدمها هربرت سبنسر للنظرية البنيوية الوظيفية:

النظرية العضوية التي جاء بها هربرت سبنسر في كتابه مبادئ علم الاجتماع هي التي تفسر أفكاره حول البنيوية الوظيفية.

فالنظرية البيو- اجتماعية التي ابتدعها هربرت سبنسر (1820-1903) تقارن الكائن الحيواني الحي بالمجتمع من حيث الأجزاء والوظائف والتكامل بين الأجزاء والوظائف للكائنين الحيواني والاجتماعي . لقد أجرى سبنسر مماثلة بين الكائن الحيواني والمجتمع فالكائن الحيواني كجسم الإنسان مثلا يتكون من أجهزة وأعضاء كالجهاز العصبي والجهاز الهضمي والجهاز الدموي والجهاز العضلي والجهاز العظمي والجهاز التنفسي .....الخ. وبجانب الأجهزة العضوية للكائن الحيواني الحي هناك الأعضاء كالقلب والرئتين والمعدة واليد والرجل والعين واللسان والأذ.ن...الخ. علما بأن سبنسر قد حلل أو شرح الجهاز العظمي إلى مجموعة خلايا عضوية، ولكل خلية واجباتها وحقوقها.

أما الكائن الاجتماعي الذي شبهه هربرت سبنسر بالكائن العضوي فيتكون من مجموعة مؤسسات أو نظم اجتماعية فرعية كالنظام الاقتصادي والنظام السياسي

والنظام الديني والنظام التربوي والنظام الأسري ، والقرابي والنظام العسكري . والنظام الواحد يتحلل إلى ادوار كتحليل النظام الاقتصادي إلى ادوار قيادية ووسطية وقاعدية وان لكل دور واجبات وحقوق اجتماعية .

ولم يكتف سبنسر بدراسة أجزاء الكائن الحيواني ومقارنتها بأجزاء المجتمع بل ذهب إلى ابعد من ذلك إذ أشار إلى أن لكل جزء من أجزاء المجتمع وظائفه التي تساعد عل ديمومة وبقاء الكائن الاجتماعي مثله في ذلك الوظائف التي يقدمها الجهاز العضوي لديمومة وبقاء الكائن الحيواني ، ذلك أن للجهاز العظمي وظائفه البيولوجية وللجهاز العضلي وظائفه البيولوجية وهكذا.
وتناول سبنسر أيضا في دراسته البيواجتماعية التكامل بين أجزاء المجتمع والتكامل بين وظائفها إذ أشار بأن المؤسسة الاقتصادية تكمل المؤسسة الدينية وان المؤسسة الأخيرة تكمل المؤسسة الأسرية والقرابية وهكذا .كما أضاف بأن وظائف الكائن الاجتماعي مكملة بعضها لبعض إذ أن الوظائف الاقتصادية للمجتمع تكمل الوظائف العسكرية، والوظائف الأخيرة تكمل الوظائف التربوية و هكذا . وهنا أكد سبنسر على موضوع التفاضل والتكامل لأجزاء المجتمع أو أجزاء الكائن الحيواني الحي.فبالرغم من تفاضل أجزاء المجتمع فإنها تكون متكاملة أي أن كل جزء يكمل الجزء الاخر .

ثالثا: الإضافات التي قدمها تالكوت بارسونز للبنيوية الوظيفية وتطورها:
إن أكبر مساهمة جاء بها بارسونس بالنسبة للعلوم الاجتماعية هي تركيزه في التحليل السوسيولوجي على المجتمع ككل ، و يرى بارسونس أن هذا التركيز يساعد

علم الاجتماع على تحاشي الاهتمام بدراسة مواضيع معزولة مثل جنوح الأحداث أو المشاكل العائلية ، و يعتقد أنه يجب دراسة تلك القضايا في إطار عمل النسق الاجتماعي ككل يرى أن الرؤية الوظيفية تبدأ من الكلي و تتجه إلى الأجزاء ، فعندما نرى جزئية في المجتمع فإننا سنحاول تفسيرها و ليس العكس بأن نفسر المجتمع من خلال جزئياته ، و في توجهاته النظرية يتشابه بارسونس مع كارل ماركس في هذه النقطة بالذات أي أن كلاهما يركز في تحليله على المجتمع ككل و هذا واصح في كتابات كارل ماركس الذي انطلق من المجتمع في طبيعته لتحليل العناصر الجزئية فيه .

إن الأنثربولوجيين و الاجتماعيين الوظيفيين الذين ساروا على خطى بارسونس جعلوا من الاستقرار الاجتماعي الهدف النهائي للتحليل السوسيولوجي ، و هذا يعني أنهم يركزون في المقام الأول على الظروف التي تؤدي إلى علاقات اجتماعية متلاصقة و إلى الإدماج السهل للعديد من الأجزاء المفصولة في المجتمع و ترتيبها في وحدة مترابطة ، إن هذا التساؤل يطرح في الحقيقة قصية التآلف عند دوركايم أو ما يعرف بالتضامن الآلي في المجتمعات البدائية و التضامن العضوي في المجتمعات الحديثة ، هذا هو ما يشدد عليه بارسونس الذي يعتقد أن التحليل الوظيفي يؤكد أنه رغم التباين و الاختلاف الذي قد يسود المجتمعات فإنها تستطيع أن تؤمن لنفسها الاستقرار و بالتالي ينبغي الآ نتخوف من تنوع التركيبة المجتمعية ، فثمة نوع من الإدماج الذي يتكون من أجزاء تترابط بفعل عوامل معينة كالغلة أو العادات الاجتماعية و غيرها .

إن نظرية الفعل التي بلور معالمها تالكوت بارسونس تدرس الأنساق الثلاثة وهي الثقافة والشخصية والنظام الاجتماعي .علما بأن التكامل الموضوعي بين الأنساق الثلاثة يعني بأن الثقافة لا يمكن فهمها إلا عن طريق الشخصية والنظام الاجتماعي، وان النظام الاجتماعي لا يمكن فهمه بدون فهم ودراسة واستيعاب الثقافة والشخصية.

إن البنيوية الوظيفية البارسونية تكمن في النسق أو النظام الاجتماعي الذي تناوله دراسة بنيوية وظيفية إذ أكد ذلك عن طريق الخطاب الذي ألقاه أمام الجمعية الأمريكية للاجتماعيين عام 1947 عندما كان رئيسها عندما أشار إلى ضرورة إيجاد نظرية بنيوية وظيفية تخدم ثلاثة أغراض رئيسية هي:

-1تحديد الضرورات الوظيفية للنظام الاجتماعي

-2تحديد المتطلبات الوظيفية للنظام

-3تحليل المجتمع إلى عناصره الأولية وفق نظرية تكامل الأنساق الثلاثة

فالضرورات الوظيفية للنظام الاجتماعي هي:

-1قابلية النظام على تكييف نفسه للأنظمة الأخرى وللبيئة الطبيعية التي وجد فيها.

-2تحقيق الأهداف الرئيسية للنظام.

-3قابلية النظام على تحقيق الوحدة بين أعضائه.

-4قدرته على المحافظة على الاستقرار والانسجام.

أما المتطلبات الوظيفية للنظام الاجتماعي فهي:

-1تحقيق وتهيئة الظروف الأساسية التي تساعد النسق الاجتماعي على البقاء والاستمرار والتطور ، ومن هذه الظروف تنشئة الأطفال وتزويدهم بالمهارات والقابليات والقيم التي يعتز بها المجتمع.

-2وجود لغة مشتركة تساعد على التفاهم والاتصال بين الأفراد والجماعات.

-3طريقة توزيع الأدوار الاجتماعية على بناء المجتمع أو الجماعة.

-4توزيع المكافآت والامتيازات والحقوق على الأفراد بطريقه تعتمد طبيعة الواجبات التي يقومون بها.

إن لكافة النظم الاجتماعية كالدولة والأسرة والجامع والكنيسة والأحزاب السياسية والسلطات والجماعات الضاغطة ...الخ وظائف اجتماعية مهمة تساعد النظام على تحقيق أهدافه وطموحاته وتنتج في توازن وتكامل أجزائه البنيوية ،,علما بأن النظرية البنيوية الوظيفية التي درسها بارسونز وطورها إنما هي منهج لتفسير الظواهر الاجتماعية والسياسية من خلال الكشف عن طبيعة وظائفها وقدرتها على تحقيق الأهداف والطموحات.

رابعا : آراء ميرتون والبنائية الوظيفية

الوظيفية عند روبرت ميرتون (الوظيفية الامبريقية المتوسطة) و الوظيفيون الجدد يعد مقال ميرتون أهم نقد للوظيفية في علم الاجتماع ينتقد ميرتون ثلاث مسلمات يتصف بها التحليل الوظيفي:

-1الوحدة الوظيفية للمجتمع

ترى هذه المسلمة أن كل العقائد والممارسات الثقافية والاجتماعية تؤدي وظيفة واحدة لكل من الأفراد والمجتمع . كما تعتقد أن أجزاء النسق الاجتماعي تتمتع بدرجة عالية من التكامل . وفي هذه النقطة بالذات يشير ميرتون إلى صحتها ولكن بالنسبة للمجتمعات البدائية الصغيرة وليس بالنسبة للمجتمعات الكبيرة المعقدة . لذا ينبغي عدم تعميم هذه المسلمات .

-2الوظيفية الشاملة

تعني هذه المسلمة أن كل الأشكال والبنى الثقافية والاجتماعية في المجتمع تقوم بوظائف ايجابية ويرى ميرتون أن هذا قد يكون مخالفا لواقع الحياة إذ ليس بالضرورة أن تكون كل بنية أو تقليد أو عقيدة تتصف بوظائف ايجابية .

3- ضرورة وجود الأجزاء

ترى هذه المسلمة أن الأجزاء المكونة للمجتمع لا تقوم بوظائف ايجابية فحسب بل هي تمثل عناصر ضرورية لعمل المجتمع ككل . وهذا يعني أن البنى الاجتماعية والوظائف ضرورية بالنسبة لمسيرة المجتمع الطبيعية أي انه ليس هناك بنى ووظائف أخرى قادرة على القيام بمسيرة المجتمع كالوظائف القائمة الآن . وحسب ميرتون المتأثر بأستاذه بارسونز لابد من الاعتراف بوجود عدة بنى ووظائف داخل نفس المجتمع.

مشروعية النقد

و خلاصة القول أن ميرتون يرى أن المسلمات الثلاثة السابقة لا تستند إلى معطيات امبريقية بقدر ما هي مجرد أفكار وانساق نظرية بحتة في حين أن واجب

عالم الاجتماع فحص مدى مصداقية كل منها امبريقيا . لماذا ؟ لان الاختبار الامبريقي وليس المقالات النظرية هو الذي يمكن التحليل الوظيفي من التوصل إلى إرساء منظور أو باراديقم أو شكل تحليل يكون بمثابة مرجع لتكامل النظرية مع البحث الامبريقي .

لذا يرى ميرتون أن التحليل الوظيفي ينبغي أن يدرس ظواهر محدودة مثل الأدوار الاجتماعية ، الأنماط المؤسسية ، العمليات الاجتماعية ،ا لأنماط الثقافية ، البنية الاجتماعية و أدوات الضبط الاجتماعي . ومن الواضح أن ميرتون أولى أهمية للدراسات الامبريقية في النظرية الوظيفية بدلا من التركيز على الدراسات الامبريقية لظواهر محدودة كجنوح الأحداث أو مدى علاقة أدوات الضبط الاجتماعي في الانحراف وما إذا كانت الانحرافات ناجمة عن خلل في التنشئة الاجتماعية أو المنظومة القيمية والمعيارية كما ان ميرتون فرق بين " الدور" الذي يعالج فكرة الصراعات في المجتمع ويزداد تنوعا وتخصصا في المجتمعات المعقدة وبين"الوظيفية " ، فالفرد مثلا يمكن أن يؤدي أدوارا معقدة ومتخصصة ولكنه يعجز عن القيام بكل الوظائف . لهذا تبرز فكرة التخصص في الأدوار عوضا عن القيام بشتى الوظائف .

الاختلال الوظيفي

يؤمن ميرتون بأن العناصر الاجتماعية يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبية ، ولإصلاح هذا السهو الخطير في النظرية الوظيفية لجأ ميرتون إلى استعمال مفهوم "

الاختلال الوظيفي ". إذ يرى ميرتون أن البنى والتنظيمات الاجتماعية مثلما تساهم في الحفاظ عل الأجزاء الأخرى للنسق الاجتماعي للمجتمع مثلما يمكن أن تكون لهما انعكاسات سلبية أيضا.

تصنيفات ميرتون للوظائف

قسم ميرتون الوظائف في المجتمع إلى نوعين:

أولا الوظائف الظاهرة

هي التي ترمي إلى تحقيقه التنظيمات الاجتماعية . مثلا بأن تكون الجامعات مخصصة للدراسة والبحث العلمي والخدمة الاجتماعية

ثانيا الوظائف غير الظاهرة

وهي التي لا تأخذ التنظيمات الاجتماعية بالحسبان تحقيقها آو العمل لأجلها ، كأن تمارس الجامعة وظائف سياسية أو اقتصادية أو تمثل فضاءات اجتماعية للتسلية والترفية وإضاعة الوقت أو غير ذلك ...الخ .

لاشك أن توضيحات ميرتون تمثل اضافات هامة بالنسبة لعلماء الاجتماع الذين يصرون على استعمال التحليلات الوظيفية في دراساتهم للوظائف الاجتماعية ، فتعديلات ميرتون للصيغ القديمة للنظرية الوظيفية تعد تعديلات ضخمة بحيث يمكن تسمية علماء الاجتماع الذين تبنوا تفكيره بـ" الوظيفيين الجدد" .

أهم المفاهيم المتداولة في البنائية الوظيفية

مفهوم البنية

مفهوم اكتنفه الكثير من الغموض لوروده بأشكال عديدة عند الكثيرين من علماء الاجتماع و الأنثربولوجيا، ففي كتاب موردوك Murdock "البنية الاجتماعية" (1965) تدل على تماسك المؤسسات الاجتماعية، إذ ليست تجمعا عشوائيا، وغالبا ما يكون مفهوم البنية عند الوظيفيين والبنيويين تفسيرا قريبا من مفهوم النمط، حيث نجد أن غورفتش Gurvitch في مقاله "مفهوم البنية الاجتماعية" 1955 يميز المجموعات المبنية عن المجموعات المنظمة، ويعتقد بإمكان أن تكون الطبقات الاجتماعية "مبنية" دون أن تكون منظمة ويشير المفهوم إلى العناصر الثابتة لنظام معين مقابل عناصره المتغيرة... وللتمييز بين الثانوي والجوهري، والأصلي والمشتق... ويرى مانهايم في تحليله للعناصر المادية التي يشير اليها بالقوى الاجتماعية التي تسمح بتفسير العناصر الفكرية، وهو ما يذكرنا بالتمييز الذي وضعه كارل ماركس K. Marx بين البنية التحتية Infrastructure والبنية الفوقية Superstructure.

اعتبر بعض علماء الأنثروبولوجيا من أمثال كروبر Kroeber وإيفانز برتشارد E. Pritchard وراد كليف براون البنية الاجتماعية مرادفا بسيطا لمفاهيم أخرى (التنظيم الاجتماعي أو تنظيم العلاقات الاجتماعية). وهكذا يرتبط مفهوم النظام بمفهوم البنية. واقترن مفهومها عندهم بالدراسات الحقلية المعمقة التي كانت بعيدة عن الارتباط بالوظيفة.[5] يرى براون أن البنية تشير إلى وجود نوع من الترتيب

[5] د. أسامة عبد الرحمان النور ود. أبو بكر يوسف شلابي، نفس المرجع السابق، الصفحة 56-59.

بين الأجزاء التي تدخل في تركيبة الكل، لأن ثمة علاقات وروابط مهينة بين الأجزاء التي تؤلف الكل وتجعل منه بنية متماسكة ومتمايزة.

فالإنسان كفرد هو كائن بيولوجي يتكون من مجموعة كبيرة من الوحدات والعمليات العضوية والنفسية التي تشكل حلقات بحث البيولوجيا وعلم النفس. أما الإنسان كشخص، فهو مجموعة من العلاقات الاجتماعية تتحدد طبقا لمكانته الاجتماعية كمواطن، وزوج، وأب، وعضو في المجتمع... ومن هنا يصبح الإنسان "الشخص" لا "الفرد" هو موضوع بحث الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تستمر باستمرار النظام الاجتماعي الذي ينظم أدوار الأشخاص ويشخص علاقاتهم بين بعضهم البعض ويحددها... وهو ما يفسر استمرار العشيرة، والقبيلة، والأمة بحسبانها تجسيدا لتنظيمات معينة من الأشخاص رغم التغير الذي يصيب الوحدات المؤلفة له من وقت إلى آخر. ويقصد براون بالبنية الاجتماعية ما يلي:

1- الجماعات الاجتماعية الموجودة لفترة طويلة وكافية، وهي الأشكال المورفولوجية للمجتمع الإنساني والتي تمثل تجمع الإنسان في وحدات اجتماعية مختلفة الأحجام.
2- التباين القائم بين أفراد وجماعات مجتمع من المجتمعات، ويحدد ذلك التباين الأدوار الاجتماعية التي تقوم بها الأفراد والجماعات في المجتمع الواحد، مثل اختلاف المركز الاجتماعي بين الرجال والنساء، وبين الشيوخ والشباب والأطفال...

3- كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين شخص وآخر من البنية التي تتكون من العلاقات الثنائية مثل العلاقات بين الأب وابنه، وابن الخال وابن أخته...

وتتميز خصائص البنية الاجتماعية بما يلي:

1- البنية الواقعة التي هي مجموعة من العلاقات الواقعية بين شخصين على الأقل، وتضم عددا كبيرا من الأشخاص وما يميزها طابعها المتغير بفعل دخول أعضاء جدد في المجتمع عبر الولادة أو الهجرة، والوفيات...
2- الصورة البنيوية التي تتميز بالثبات النسبي لفترة زمنية تطور أو تقصر وفق متغيرة معينة، وقد تتعرض الصورة البنيوية للتغير الفجائي أو التدريجي.
3- لا يمكن رؤية البنية الاجتماعية بصورة مباشرة، لكن يمكن للباحث ملاحظة البنية في صورة اجتماعية محسوسة لأفراد المجتمع.
4- يدرس الباحث الأنتربولوجي البنية الاجتماعية بهدف الوصول إلى إنتاج موضوعي يستخدم المنهج الشمولي.

5- استمرار البنية الاجتماعية وبقائها فترة طويلة من الزمن، وهي خاصية تميز البنية وتؤهلها للقيام بوظيفتها الاجتماعية الأساسية المتمثلة في الحفاظ على تماسك المجتمع وبقائه.[6]

غير أن روجيه باستيد R. Bastide أعاد النظر في التصور البنيوي الجامد عند لفى ستراوس واقترح بدله منظورا حركيا يمر عبر الثلاثية التالية:

1- هيكلة البنية
2- خلخلة البنية
3- إعادة هيكلة البنية

و حري بنا في هذا السياق التذكير بآراء **أنتوني غدنز**[7] و مفهومه المثير للاهتمام حول ما أسماه بازدواجية البنية و الانبناء la strusturation و هي النظرية التي تطرق لتفاصيلها في كتابه الصادر سنة 1984 المسمى تكوين المجتمع ، مع نظريته حول الانعكاسية الاجتماعية و هما نظرتان جديدتان مترابطتان حيث تصدى لواحدة من الإشكاليات الكبرى المتصلة بالفعل الاجتماعي و الإنساني على الصعيدين النظري و العملي و تناول هذه القضية على مستويين من التحليل الكلي و الجزئي ،ويعتقد غدنز أنه يمكن تجاوز هذه الفجوة باللجوء إلى مفهوم ثنائية البنية أو البنية المزدوجة و وفق هذا التصور فان الكلي و الجزئي ،والفاعل الإنساني و الاجتماعي و البيئة كليهما يرفدان و يشكل أحدهما الآخر بصورة

---

[6] د. أسامة عبد الرحمان النور ود. أبو بكر يوسف شلابي، نفس المرجع السابق، الصفحة 91-97.

[7] أنتوني غدنز ، علم الاجتماعص38-39

مشتركة و محددة زمنيا ،وثمة جانبان للبعد الكلي و هما البنية و النسق و يمكن أن نتصور التعريفات الأساسية لعناصر هذا النموذج النظري على النحو التالي :

البنية و هي القواعد و الموارد المنظمة المتواترة التي تكون قائمة بمعزل عن الحدود الزمكانية.

النسق هو العلاقات التي يعاد إنتاجها بين الفاعلين الأفراد و الجماعات و القائمة في النطاق الزمكاني.

الانبناء هو الشروط أو الظروف التي تحكم إعادة إنتاج الأنساق ، أي العملية الدينامية المتحركة التي يعاد فيها إنتاج الممارسات ،وتظهر فيها البنى إلى حيز الواقع[8] غير أن ثمة منظومة من القواعد و الموارد التي يتشارك فيها الفاعلون البشر في مجتمع ما ، وهي تضم العادات و التقاليد التي يستهدي بها السلوك ،أما الموارد فهي القدرة على الأحداث و الانجاز التي تشتمل على وجوه القوة/السلطة المختلفة .

لقد كان مفهوم البنية قبل غدنز مرتبطا دائما بكتلة خارجية تؤثر في السلوك البشري الفردي و الاجتماعي غير أن غدنز تناول المفهوم بدلالاته الأصلية المعمارية و الجيولوجية و جعله من جملة العناصر "الداخلية" الفاعلة في الفعل الاجتماعي، فهو يتحاشى اعتبار البنية أمرا حتميا جامعا مانعا في تحديد السلوك البشري و حول الفجوة الظاهرة بين البنية و الفعل يرى غدنز أن من الضروري

[8] نفس المرجع السابق ص 39

الإقرار بأننا نحن الذين ننشط في صياغة البنية الاجتماعية و إعادة صياغتها في آن معا من خلال التفكير و السلوك البشري فالمجتمعات البشرية في حالة مستمرة من الانبناء و التشكل أي أنها تبنى و تشكل من جديد كل لحظة كما في حالة البناء المعماري فإنناختصار لسنا صنيعة المجتمع بل صانعوه في الوقت نفسه. [9]

[9] نفس المرجع السابق ص40

المجتمع

يتصور الاتجاه البنائي الوظيفي أن المجتمع نسق من الأفعال المحددة و المنظمة ، و يتألف هذا النسق من مجموعة من المتغيرات أو الأبعاد المترابطة بنائيا و المتساندة وظيفيا [10].

التوازن الاجتماعي

و هدفه مساعدة المجتمع على أداء و ظائفه و بقاءه و استمراره و يتحقق بالانسجام بين مكونات البناء ة التكامل بين الوظائف الأساسية ،يحيطها جميعا برباط من القيم و الأفكار التي يرسمها المجتمع لأفراده و جماعاته.[11]

النسق الاجتماعي

هو عبارة عن علاقات مترابطة و متساندة بين الأفراد و الذي يتميز بخصائص أهمها [12] : التحديد أي امكانية تحديد العناصر الداخلة و المكونة للنسق.

الوظيفة الاجتماعية

هي نتيجة موضوعية لظاهرة اجتماعية يلمسها الأفراد و الجماعات ، كما أنها الطريقة التي يعمل بها المجتمع و يستمر بقاءه[13]

---

[10] علي الحوات : النظرية الاجتماعية (اتجاهات أساسية)،منشورات الجا ، ص98

[11] علي الغربي: علم الاجتماع و الثنائيات النظرية (التقليدية _المحدثة)،جامعة منتوري ،قسنطينة،2007،ص 85

[12] المرجع السابق ،ص 86

[13] المرجع السابق ،ص 87

الترابط أي جميع عناصر النسق الاجتماعي مترابطة ببعضها البعض ،اذ كل جزء له صلة بالاجزاء الأخرى و يعتمد عليها .

البناء الاجتماعي

يستخدم للاشارة الى نوع من الترتيب بين مجموعة نظم يعتمد بعضها على بعض ، و تعتبر وحدات البناء الاجتماعي هي ذاتها بناءات فرعية ، و الافتراض الأساسي هنا هو التكامل أو بقاء الكل يتوقف على العلاقات بين الأجزاء و آداءها لوظائفها[14]

المبحث الثاني: مقاربة نظرية للقرابة و الرباط الاجتماعي و العائلة و التغير الاجتماعي.

تمهيد:

إن نظم العائلة والقرابة والزواج من أهم النظم البنيوية التي تؤثر في شكلية واستمرارية وفاعلية وديناميكية البناء الاجتماعي داخل المجتمعات ، هذه النظم الأساسية لا تؤثر في نماذج التنشئة الاجتماعية التي تعتمدها العائلة وفي أطرها الفكرية والسلوكية والأخلاقية فقط بل تؤثر في تنظيم العلائق الاجتماعية بين الأفراد

[14] فاروق مداس : قاموس مصطلحات علم الاجتماع،دار مدني، 2003، ص 50.

والجماعات وتحدد معالم الشخصية النموذجية التي يتسم بها الفرد والمجتمع، إضافة إلى أهميتها المتزايدة في تثبيت السمات الجوهرية للمؤسسات البنيوية المادية وغير المادية التي تتفاعل معها وترافقها أثناء عملية استمراريتها وديناميكيتها، كما أن نظم العائلة والقرابة والزواج تلعب الدور القيادي والمؤثر في تغيير الصفات الذاتية والموضوعة للفرد والجماعة، هذا التغيير الذي يعتبر حجر الزاوية في تغيير المجتمع برمته بعد انتقاله من مرحلة حضارية وتاريخية معينة إلى مرحلة أخرى[15].

كبداية لهذا العمل ارتأينا أن نتطرق إلى المقاربة النظرية و المنهجية التي اعتمدناها في البحث مع محاولة لإلقاء الضوء على بعض المفاهيم الهامة من وجهة النظر البنيوية الوظيفية و التي تشكل حجر الزاوية في عملنا هذا إذ لا يمكن أن نتناول العادات الاجتماعية و التقاليد كمؤسسات بنيوية غير مادية دونما التطرق لتلك المؤسسات البنيوية المادية التي تتشكل على أرضيتها (هذه الأعراف و العادات و التقاليد) و هي العائلة أو الرباط الاجتماعي أو القرابة بشكل عام.

ماذا نقصد بالقرابة:

القرابة هي علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية الحقيقية أو الخيالية أو المصطنعة، ولا تعني القرابة في علم الأنثربولوجيا وعلم الاجتماع علاقات العائلة والزواج وإنما تعني أيضا علاقات المصاهرة فالقرابة هي علاقة دموية والمصاهرة هي

[15] د. إحسان محمد الحسن، دراسة تحليلية في تغير العائلة والقرابة والزواج في المجتمع العربي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الثانية، ديسمبر 1985، الصفحة ...

علاقة زواجية، فعلاقة الأب بابنه هي علاقة قرابية، وعلاقة الزوج بزوجته هي علاقة مصاهرة.[16]

والطفل هو وليد أبويه وعلاقته القرابية يمكن أن تقتضي من خلالها فانحدار الابن من خلال نسب أيه يطلق عليه النسب الأبوي وانحدار الابن من خلال نسب أمه يطلق عليه النسب الأمي.[17]

وإذا كان انحدار الابن من نسب أبيه وأمه في آن واحد فإن النسب يطلق عليه بالنسب المشترك ، و من القرابة ما هو أولي و هي العلاقة الدموية والاجتماعية التي تربط الوالدين بالأبناء كالعلاقة التي تربط الأب والأم بالأخ والأخت، و هناك القرابة الثانوية و هي العلاقة الدموية والاجتماعية التي تربط الابن بالخال وتربط العم ببنت الأخ، و عموما فان الروابط الدموية تعرف من خلال تتبع الجد المشترك، فالمنحدرون من جد مشترك هم أعضاء الجماعات الدموية و هكذا يمكن انتماء الفرد لأبويه أن يكون عضوا في جماعتين دمويتين كما أن علاقته بأجداده، تخوله أن يكون عضوا في عدد من الجماعات الدموية وهكذا يصبح الفرد في خط قرابي واحد إذا كان ينتمي إلى جد مشترك.[18]

وتعتبر القرابة أبوية إذا انحصر مقياس الانحدار فيها بالذكور فقط كما تعتبر أموسية أو أمية إذا انحدر النسب من خط الإناث فقط كما تكون القرابة ثنائية إذا أعطي المجال للفرد لاختيار أقاربه من خط الذكور أو الإناث، وفي بعض

---

[16] FOX (R.), *Anthropologie de la parenté*, Paris, Gallimard, 1978, 27 p..
[17] Ibid. Page 49.
[18] Ibid. Page 87.

المجتمعات كمجتمع ياكو[19] في نيجيريا يعطي الفرد حق تعيين انحداره القرابي، فقد يفضل نسب أبيه على نسب أمه أو العكس.

الرباط الاجتماعي

يعتبر الرباط الاجتماعي من المفاهيم الهامة في العلوم الاجتماعية إذ يمكن وصفه بأنه تلك العلاقات الاجتماعية التي تتم و تجمع بين الأفراد في حالات المواجهة سواء كانت علاقات شخصية أو غير شخصية فهو يعني مجموع العلاقات الاجتماعية سواء تعلق الأمر بالألفة أو الأناسة الاجتماعية la sociabilité أو الروابط الاجتماعية les rapports sociaux أو أي شكل من أشكال الرباط الاجتماعي، و على الرغم من أن هذا المفهوم قد قلت الاستعانة به خاصة بعد الحرب العالمية الثانية [20]،و تاريخيا يمكن القول أنه بعد التغيرات الجذرية التي عرفها المجتمع الأروبي خلال الحقبة الصناعية ، أسس كمل من تونيز و دركايم نظرية الرباط الاجتماعي ،حيث كان الاهتمام منصبا حول جرد و تتبع تاريخ العلاقات مابين الأفراد من المجتمع المحلي إلى المجتمع التعاقدي .

ماذا نقصد بالعائلة

هي عبارة عن منظمة اجتماعية تتكون من أفراد يرتبطون يبعضهم، بروابط اجتماعية وأخلاقية ودموية وروحية، وهذه الروابط هي التي جعلت العائلة البشرية

19

20 حمدوش رشيد مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة امتدادية أم قطيعة؟(جراسة ميدانية ،مدينة الجزائر نموذجا توصيحيا ،جار هومة للطباعة و النشر 2009.ص37-38.

تتميز عن العائلة الحيوانية، التي هي منعدمة العنصر الروحي ولأخلاقي والاجتماعي وتخضع لأحكام ودوافع الغرائز والشهوات والميول البيولوجية ، وتكون درجة نظمها وعلاقاتها وسلوكها بسيطة وجامدة ومتحجرة، في حين تتمتع العائلة البشرية بأنظمة وعلاقات وطقوس سلوكية متطورة يقرها المجتمع ويبرر وجودها [21]ومثل هذه الأنظمة والعلاقات والطقوس تلعب الدور الكبير في تطوير الإنسان والجماعة و المجتمع وتساهم في تحقيق الأهداف التي ينشدها الأفراد على كافة خلفياتهم، انحداراتهم العنصرية والقومية والطبقية، فكما أقر الفلاسفة منذ القدم إن الإنسان اجتماعي بالطبع و هو يميل دائما إلى الاجتماع ولا يستطيع العيش منعزلا عن الآخرين وإنه يسعى دوما لإيجاد الروابط والتفاعلات مع أبناء جنسه فيكون بذلك حلقات وجماعات اجتماعية متنوعة ومتداخلة أبسطها حلقة العائلة وأوسعها حلقة الإنسانية الشاملة والمتنوعة [22].

إن للعائلة مكانة بارزة في المجتمع بل هي الركن الأساسي في كيان المجتمع الحديث فهي توسع أفكار الفرد وتدفعه نحو العمل والتقدم بعد أن تمنحه التنشئة الاجتماعية التي يحتاجها وتدافع عنه عندما تداهمه المشاكل والمصاعب، ويتعرض إلى الأخطار التي تكمن في مجتمعه المعقد [23] ليس لاصطلاح العائلة تعريفا ومعنى واضحا يتفق عليه العلماء بالرغم من أن العائلة هي من الوحدات الأساسية التي يتكون منها البناء الاجتماعي. ولكن العائلة حسب تعريف أوكبرن ونيمكوف هي

[21] محمد احسان الحسن.....

[22] المرجع السابق

[23]

عبارة عن منظمة دائمة نسبيا تتكون من زوج وزوجة مع أطفال أو بدونهم، أو تتكون من رجل وامرأة على انفراد مع ضرورة وجود أطفال،[24] وتربط هؤلاء علاقات قوية ومتماسكة تعتمد على أواصر الدم والمصاهرة والتبني والمصير المشترك، أما ماكيفر فيعرف العائلة بأنها وحدة بنائية تتكون من رجل وامرأة تربطهما علاقات روحية متماسكة مع الأطفال والأقارب، ويكون وجودها قائم على الدوافع الغريزية والمصالح المتبادلة والشعور المشترك الذي يتناسب مع أفرادها ومنتسبيها [25]بينما يعرفها البروفيسور وسترمارك بأنها تجمع طبيعي بين أشخاص تجمع بينهم روابط الدم فألفوا وحدة مادية ومعنوية تعتبر من أصغر الوحدات الاجتماعية التي يعرفها المجتمع الإنساني [26]أما برجس ولوك وهارفي فيعرفون العائلة بأنها جماعة من الأفراد تربطهم روابط قوية ناجمة عن صلات الزواج والدم والتبني وهذه الجماعة تعيش في دار واحدة.[27]ويعرف كنكزلي ديفيز العائلة بأنها جماعة من الأفراد تربطهم روابط دموية واجتماعية متماسكة،[28]إلا أن تعريف ديفينز للعائلة هو تعريف ناقص خصوصا النسبة للعائلة الغربية التي تتميز في بعض الحالات بالروابط الدموية حيث أن انتماء بعض أفرادها يكون عن طريق التبني، وفي حالة المجتمعات البدائية تعتمد الصلات والروابط العائلية على الاعتراف الاجتماعي ولا تعتمد فقط على الإنجاب، فالعوامل في هذه المجتمعات قد تقبل أعضاء فيها بعض الأشخاص الذين تحبهم وتثمنهم، وفي بعض أجزاء جزيرة ميلتريا لا تعتبر ولادة الطفل في العائلة العامل

24

25 ماكيفر و بيج ، المجتمع

26 احسان الحسن ورجع سابق

27 المرجع السابق

28 المرجع السابق

الأساسي الذي يحدد انتماءه لها بل إن هناك اعتبارات أخرى تحدد مبدأ الانتماء، فالرجل الذي يدفع نفقات عملية الولادة يعتبر الأب الشرعي للطفل وزوجته تعتبر أما للطفل الوليد.[29]

وفي أجزاء أخرى من هذه الجزيرة يصبح الرجل أبا عندما يزرع شجرة السيكاس أمام داره، وهناك مجتمعات يعتبر فيها ابن المرأة ابنا لزوجها حتى ولو كان أبوه شخصا آخر.

إن تعريف برجس للعائلة يتميز بالضعف والارتباك وذلك لعدم تمييزه بين عوامل مجتمع ما وعوامل المجتمعات الأخرى، فتعريفه ينطبق فقط على العائلة النووية ، التي تتكون من الأب والأم والأطفال الصغار، هذه العائلة التي تعتبر وحدة مستقلة عن وحدات المجتمع المحلي، إن العائلة النووية هي عائلة توجد في المجتمع الصناعي الحديث وهي عائلة تعبر عن ظروف هذا المجتمع وتنسجم مع مميزاته ومشاكله، والمجتمع الذي تتواجد فيه العائلة النووية يتسم بالصفات التالية: شرعية تمتع الأفراد بحقوق الملكية، وجود القانون الكوني الذي يطبق على جميع الأفراد، وجود درجة عالية من الانتقال الجغرافي والاجتماعي، تدخل الدولة في شؤون الأفراد وقيامها بمساعدة العوامل... إلخ.

والعائلة النووية هي من أهم الظواهر الاجتماعية التي تميز المجتمعات الصناعية [30]، وتتسم هذه العائلة بصلابة العلاقات الاجتماعية بين الزوجين ووجود

---

[29] دنكن متشل معجم علم الاجتماع ص77

[30] محمد احسان الحسن

المصالح والأهداف المشتركة بين الآباء والأبناء[31] والعلاقة الاجتماعية بين أفراد العائلة النووية تكون قوية جدا خصوصا عندما يكون الأطفال صغارا، لكن سرعان ما تضعف هذه العلاقة بعد بلوغ ونضج الأطفال الذين غالبا ما يتأثرون بجماعات وفئات المجتمع التي يحتكون معها في حياتهم خصوصا في حالة انتقالهم الجغرافي أو الاجتماعي.[32]

ولا تظهر العائلة النووية بصورة بارزة في المجتمعات البدائية البسيطة أو المجتمعات الزراعية الريفية نظرا للتناقض الواضح بينها وبين هذه المجتمعات، وفي حالة ظهورها فإنها تعتبر وحدة اجتماعية ثانوية ملحقة أو متصلة بالعائلة المركبة أو الممتدة والعائلة الممتدة حسب تعريف بيل وفوكل هي العائلة التي لها تنظيم اجتماعي أكبر من التنظيم الاجتماعي للعائلة النووية، أما جي ميردوخ فيميز في كتابه "التركيب الاجتماعي" المنشور عام 1949 بين نوعين من العوائل المركبة، النوع الأول هو العائلة الممتدة التي تتكون من عائلتين نوويتين أو أكثر تربطهم علاقات اجتماعية قوية ناتجة عن العلاقة القائمة بين الآباء والأبناء، والنوع الثاني هو عائلة الزوجات المتعددات التي تتكون من عائلتين نوويتين أو أكثر تربطهم علاقات اجتماعية أساسها الأب المشترك الذي تزوج من عدة نساء وكون عوائل نووية مترابطة.

نظريات تطور العائلة البشرية:

---

[31] المرجع السابق

[32] نفامرجع السابق

هناك عدة نظريات تفسر أصل وطبيعة وتطور العائلة البشرية وأهمها النظرية البنائية والنظرية الوظيفية التطورية، والنظرية المادية التاريخية والنظرية التفاعلية والنظرية الرمزية التفاعلية....إلخ.

ونحن هنا سنكتفي بذكر نظرية روبرت ماكيفر.

إن أغلب تفسيرات مكايفر للعلاقات، والتفاعلات والسلوك الاجتماعي تعتمد على التعليلات السيكولوجية، حيث أنه يرجع الحوادث من التفاعلات الاجتماعية إلى أصولها ودوافعها السيكولوجية لهذا يمكن اعتباره عضوا من أعضاء المدرسة السيكولوجية لعلم الاجتماع،[33] واشتهر ماكيفر في كتاباته العلمية الدقيقة عن موضوع العائلة وعن تركيبها ووظائفها وتحولها التاريخي، حيث أشار في كتابه المجتمع بأن العائلة البشرية تقسم إلى قسمين أساسيين هما العائلة الممتدة والعائلة النووية العائلة تتحول تاريخيا من مرحلة العائلة الممتدة إلى مرحلة العائلة النووية.[34]

العائلة النووية هي عائلة صغيرة الحجم إذ تتكون فقط من الزوج والزوجة والأطفال الذين لا يتجاوز عددهم عن أربعة أطفال. أما العائلة الممتدة فهي عائلة كبيرة الحج حيث أنها تتكون من الزوج والزوجة والأطفال الذين يتجاوز عددهم على 7-10 أطفال والأقارب الذين يسكنون مع العائلة الأصلية في بيت واحد.

توجد العائلة الممتدة في المجتمعات الزراعية الريفية وفي المجتمعات المحلية والعشائرية والقبلية، كما أنها تتوفر أيضا في البيئات الاجتماعية، العمالية والفلاحية.

---

[33] محمد احسان الحسن، المرجع السابق ص؟

[34] المرجع السابق ص

أما العائلة النووية فحسب تعاليم مكايفر توجد في الأقاليم الصناعية والحضارية المتطورة، وتتوفر أيضا في الأوساط المهنية والمتوسطة،[35]ومن الصفات الأخرى التي تميز العائلة النووية سيطرة الجو الديمغرافي عليها وذلك لتساوي منزلة الزوج مع منزلة زوجته. بينما يخيم الجو الديكتاتوري على العائلة الممتدة، إذ أن الأب يحتل منزلة اجتماعية أعلى بكثير من منزلة الأم، وينفرد في اتخاذ الإجراءات والقرارات التي تتعلق بمستقبل العائلة والأطفال. ومما يزيد من ديمقراطية العائلة النووية عدم تعرض الزوج إلى القيود التي تفرضها عليه سلطة الأقارب كسلطة الجد أو الأخ، هذه السلطة التي كانت تقرر مصير ومستقبل العائلة الممتدة سابقا. والزوجة في العائلة النووية لا تحكم من قبل والدة زوجها ولا تخضع لإرادتها كما كانت عليه الحال في العائلة الممتدة. وعلاقة الزوج مع زوجته في العائلة النووية أقوى بكثير من علاقة الزوج بزوجته في العائلة الممتدة[36] أما الأطفال في حالة العائلة النووية فيتولى الأبوان رعايتهم والعناية بهم والأقارب نادرا ما يساهمون في تولي مسؤولية تربية الأطفال، بينما في العائلة الممتدة يشارك كل من الوالدين مع الأقارب في تربية ورعاية الأطفال، وتتعرض العائلة النووية إلى فقدان التقاليد والعادات والقيم التي كانت تلعب الدور الأساسي في وحدة وتماسك العائلة الممتدة، ولهذا تكون علاقاتها الاجتماعية والقرابية ضعيفة ومفككة، ويشير مكايفر إلى التبدل الذي طرأ على وظائف الأسرة فيقول بأن العائلة الممتدة كانت تعتمد اعتمادا كليا على نفسها في تقديم الوظائف المهمة لأفرادها والمجتمع الكبير[37]وهذه الوظائف يقسمها إلى قسمين،

---

[35] المرجع السابق ص

[36] المرجع السابق ص

[37] ماكيفر و بيج المرجع السابق ص

الوظائف الأساسية التي تتعلق بإنجاب الأطفال وتربيتهم تربية اجتماعية وأخلاقية ووطنية، تنظيم العلاقات الجنسية بين أبناء المجتمع، وتحضير داء السكن العاملة وتأثيثه.

أما الوظائف الثانوية فهي الوظائف الاقتصادية كتوزيع الأعمال على أفراد العائلة وتلبية حاجاتهم الاقتصادية، الوظائف الصحية، الدينية، الترفيهية، الثقافية والتربوية، أما العائلة النووية التي ظهرت بعد تصنيع وتحضر المجتمع فإنها تختص بأداء الوظائف الأساسية التي تكلم عنها مكايفر، والوظائف الثانوية في المجتمع الصناعي المتحضر لا تقوم بها العائلة بل تقوم بها الدولة، فالدولة مثلا تخلق الأعمال الاقتصادية وتوزعها على أبناء المجتمع كل حسب كفاءته واختصاصه ونسيطر على الإنتاج الصناعي والزراعي، وتنظم حركة التجارة الداخلية والخارجية وهكذا....إلخ في مختلف الميادين.

وبعد دراسة مكايفر للفوارق الحضارية والاجتماعية بين العوائل الممتدة والعوائل النووية في كتابه "المجتمع" يقوم بدراسة مفصلة لصفات العائلة المعاصرة، أي العائلة النووية التي توجد في معظم المجتمعات الصناعية المتحضرة والراقية، ويدرج هذه الصفات بالنقاط التالية:

- أن يكون وجود العائلة الحديثة مبنيا على اتفاق الزوج مع زوجته، فهما اللذان يقرران بناء حياتهم الزوجية منذ ابتداء دخولهم لها.
- يتولى العائلة الحديثة تربية ورعاية أطفالها تربية عقلانية وعلمية.

- تدير العائلة الحديثة شؤونها بطريقة ديمقراطية لجنة، فالزوجة والزوجة يبحثان القضايا والأمور التي تتعلق بحياتهم الزوجية بطريقة تبتعد عن الديكتاتورية وتعتمد على النقاش البناء بين الزوجين.
- تنظم العائلة الحديثة أسس حياتها ومعيشتها وأهدافها بصورة شعورية اختيارية تعتمد على رغبات واتجاهات الزوج والزوجة.
- تعترف السلطات الحكومية بأهمية العائلة الحديثة وبالمسؤوليات الكبرى الملقاة على عاتقها، فهي تعمل على مساعدة العائلة علما منها بأنها المدرة الأولى التي يتعلم فيها الطفل شتى أنواع المهارات التي تساعده على بناء شخصيته واستقلاليته.
- إن العائلة الحديثة مستقلة استقلالا تاما من الناحية الاقتصادية عن أقاربها، فهي تعتمد على نفسها في تمشية أمورها الاقتصادية، وهي وحدة متكاملة تكافح من أجل إسعاد أفرادها وتحقيق أهدافهم وطموحاتهم الحياتية.
- تهتم العائلة الحديثة في الوقت الحاضر بتحديد النسل الذي يتفق عليه مقدما الزوجان، حيث أنه يساعد العائلة على تحقيق الموازنة بين مواردها المالية وعدد أفرادها ويمكنها في الوقت نفسه من إعطاء التربية الجيدة والصالحة لأطفالها.

العائلة من وجهة النظر الوظيفية

لقد تناولت العديد من المدارس و النظريات قصية العائلة بالشرح و التفصيل ذلك على اعتبار أنها من المفاهيم الثقيلة و الأساسية في علم الاجتماع و الأنثربولوجيا و يعتبر أنصار الاتجاه الوظيفي المجتمع منظومة من المؤسسات الاجتماعية التي تؤدي وظائف محددة لضمان عنصري الاستمرار و البقاء في الوضع الاجتماعي [38] ، و يرى هؤلاء أن العائلة النووية تؤدي أدوارا و تلبي احتياجات تخصصية في المجتمعات الحديثة فالعائلة مع بروز مرحلة التصنيع قد فقدت البعض من وظائفها الخاصة بالجانب الاقتصادي و تركز دورها حول الإنجاب و تربية الأطفال و رعايتهم و الإشراف على عملية التنشئة الاجتماعية و هذا ما نجده في الاستنتاجات التي توصل اليها تالكوت بارسونس في أن الوظيفتين الرئيسيتين للعائلة تتمثلان في التنشئة الاجتماعية الأولية و تحقيق الاستقرار للشخصية [39] ، ففيما يخص عملية التنشئة الاجتماعية للأجيال الجديدة فلكي يقع دمج هذه الأجيال بالمجتمع الكبير ينبغي عليها أن تتعلم القيم الاجتماعية و الثقافية و الأنشطة و المهارات الاجتماعية لمجتمعها.

ثانيا فإنها تعمل على تمكين شخصية الكهول من الاستقرار حيث أن العمل و العلاقات الخارجية عن الأسرة في المجتمع قد تكون صعبة و مصدرا لضغوطات على الأفراد و الكهول و يعتقد بارسونس أن الأسرة تعمل التقليل من درجة التوتر الناتج عن المحيط الخارجي للأسرة و هكذا تحافظ الأسرة النووية على توازن و استقرار شخصية الكهول و هو ما لم تعد توفره الأسرة الممتدة في المجتمع

[38] علم الاجتماع أنتوني غدنز ترجمة و تقديم فايز الصياغ المنظمة العربية للترجمةص 258

[39] المرجع السابق ص258-259

الصناعي[40] و يرى الوظيفيون أن للعائلة دورا حرجا و خطيرا في ضمان استقرار شخصية أبناءها البالغين في المجتمعات الصناعية ، و يعود ذلك إلى العائلة النووية ،إذ كثيرا ما تتقطع الصلات التي كانت تتمتع بها مع دائرة العلاقات القرابية الأوسع التي كانت فاعلة و مؤثرة قبل دخول المجتمعات مرحلة التصنيع ، و من هنا يرى بارسونس أن العائلة النووية هي الوحيدة القادرة على معالجة متطلبات المجتمع الصناعي [41].

العلاقة الوظيفية بين الفرد والعائلة والمجتمع:

تعتبر العائلة والقرابة من أهم المؤسسات الاجتماعية في المجتمع المعاصر نظرا لعلاقتها الوثيقة بالفرد والمجتمع والتي تتجسد في الوظائف الجوهرية التي تقدمها للمجتمع الكبير من خلال قيامها برعاية الفرد والسهر على تلبية ما يحتاج إليه من خدمات وعناية وإشراف، ولفهم طبيعة العلاقة بين العائلة والفرد والمجتمع من الضروري أن نبدأ بتوضيح العلاقة الوظيفية بين العائلة والفرد من جهة وبين العائلة والمجتمع من جهة أخرى.

العلاقة الوظيفية بين العائلة والفرد:

[40] Les travaux de parsons sur le net
[41] علم الاجتماع أنتوني غدنز مرجع سابق ص 259

يهتم كل رجل وامرأة اهتماما بالغا بمسألة وشؤون العائلة التي ينتمون إليها، وهذا الاهتمام يتجسد في نوعية العلاقات غير الرسمية والمتماسكة التي تربطهم ببقية أعضاء العائلة والقرابة، وطبيعة العلاقات هذه تجعل الأفراد يشعرون بالارتياح والطمأنينة والحماية من العزلة الاجتماعية والأخطار الخارجية التي قد تهدد كيانهم ومستقبلهم[42] لذا تلعب العلاقات الاجتماعية التي تربط الفرد بأفراد عائلته الدور المؤثر في تطوير وتنمية حالته الروحية والأخلاقية والإنسانية، وهذا ما يساعده على تحقيق ذاتيته والاستفادة من قدراته ، إن العائلة تعتبر من أهم المؤسسات الاجتماعية التي تساعد على تحقيق ذاتية الإنسان وبناء شخصيته، نظرا لما تقوم به من وظائف أساسية ومهام جوهرية ينتفع الفرد منها، وبالتالي تستطيع تطوير وتنمية مجتمعه نحو الأحسن والأفضل، وتتجسد أهمية العائلة بقيامها بوظيفة تنشئة الأطفال التي من خلالها تستطيع تلقينهم بأخلاق وقيم ومقاييس ومعتقدات وأهداف المجتمع الذي تعيش فيه وتتفاعل معه، لذا تساعد عملية التنشئة الاجتماعية التي تتبناها العائلة على تكوين الشخصية النموذجية عند الفرد والتي تعبر عن شخصية وأخلاقية المجتمع الذي ينتمي اليه.

ومن جهة ثانية نرى أهمية الفرد لعائلته، فهو الوحدة البنائية التي تتكون منها العائلة، ومن خلال خدماته وواجباته، تستطيع القيام بوظائفها وتحقيق أهدافها الجوهرية. بيد أن العائلة التقليدية كانت بمثابة الواسطة التي من خلالها تستطيع تحقيق وحدة وتماسك أفرادها عن طريق أديولوجيتها المشتركة التي تعطى لهم أثناء

[42] محمد احسان الحسن ، نفس المرجع السابق ص

مرحلة التنشئة الاجتماعية، وتلعب الأيديولوجية المشتركة هذه الدور الكبير في حل المنازعات والقضاء على المشاكل التي قد تقع بين أفرادها نتيجة علاقتهم وتفاعلهم مع العالم الخارجي.

العلاقة الوظيفية بين العائلة والمجتمع:

إن العائلة هي المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي تتمتع بشرعية إنجاب الأطفال عن طريق مؤسسة الزواج، هذه المؤسسة التي تعتبر بحق القاعدة الأساسية لوجود العائلة[43]، لكن قيم العائلة حول إنجاب الأطفال تقسم إلى قسمين: القيم المشجعة على الإنجاب والقيم غير المشجعة. فالعائلة إما تعتقد بإنجاب عدد كبير من الأطفال أو تعتقد بإنجاب عدد محدود من الأطفال أو عدم الإنجاب مطلقا، ومثل هذه القيم والمعتقدات تؤثر بدون شك في حجم السكان، ونحن نعلم بأن هناك علاقة بين حجم السكان ودرجة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في القطر، فحجم السكان ينبغي أن يكون متوازنا مع حجم الموارد الطبيعية إذا أراد المجتمع إجراء التقدم المادي والحضاري الذي يطمح إليه بيد أن العائلة هي التي تحدد حجم ونوعية السكان في المجتمع أي تحدد مقداره الإحصائي ودرجة تدريب وتأهيل وكفاءة أفراده، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن للعائلة أدوار ذات أهمية قصوى في تحديد السمعة السياسية والاجتماعية للمجتمع الذي تعيش فيه وتتفاعل معه.[44]

[43] احسان محمد الحسن،المرجع السابق ص

[44] احسان محمد الحسن نفس المرجع السابق ص

أما تأثير المجتمع في العائلة فهو تأثير واضح ومنطقي، فالمجتمع الكبير هو الذي يزود العائلة بالأحكام القيمية والمعايير التي تؤمن بها، والتزام العائلة بهذه القيم والمقاييس والأخلاق يصل إلى درجة ناضجة لا نستطيع عندها الفصل و التمييز مابين أخلاقية المجتمع و أخلاقية العائلة.

العائلة و التغير الاجتماعي

تعتبر مسألة التغير الاجتماعي من الاهتمامات الجوهرية الأولى لعلماء الاجتماع المحدثين .

إن التغير مفهوم صعب التحديد من حيث كون كل شيء في الحياة قابل للتغيير المستمر و كما قال هرقليطس منذ آلاف السنين فلا يستحم المرء في النهر نفسه مرتين و ربما استدعى الأمر منا استعراض التبدلات المادية التي تطرأ على البنيات الكامنة وراء الظاهرة أو الحدث[45] و ذلك كلما بحثنا في التغيير الطارئ على المجتمعات ،و عموما و إن بحث الكثير من العلماء في ظاهرة التغير الاجتماعي على غرار دركايم فليس بمقدور أية نظرية أحادية البعد[46] أن تفسر التغييرات أو التحولات الاجتماعية الحاصلة في المجتمع ، لقد سبق و أن فسر دوركايم التغير الاجتماعي على ضوء تقسيم العمل و اختلاف المجتمعات التعاقدية عن تلك البدائية و طبيعة التضامن المتواجد في كل منهما و كيف أن حالات الانتقال هذه قد تعرض الفرد داخل المجتمعات إلى ما أسماه باللامعيارية أو الضياع

[45] أنتوني غدنز المرجع السابق ص 105

[46] غدنز المرجع السابق 113

ليصف الشعور بالقنوط و انعدام الهدف الذي يتولد لدى المرء بفعل عمليات التغير الحاصلة في المجتمعات الحديثة[47] و إن كانت المقاربة هنا اقتصادية مادية فقد نجد في المقاربة التي قدمها دافيد ريسمان في كتابه [48] la foule التركيز علة الدور الذي تلعبه الوسائل التكنولوجية الحديثة و التقدم العلمي في تجسيد ملامح هذا التغيير حيث تنبأ بانقطاع التواصل داخل الأسر نفسها جراء الانبهار بالتلفاز و ما تبثه القنوات و شد المشاهدين إليها مما يؤدي بعزلة الأفراد داخل نفس الأسرة ثم انعزال الأسر و تقوقعها على ذواتها ثم انعزال الأسر عن المجتمعات المحلية و المشاركة في الحياة العامة وعموما فان انفجار المعلومات الذي تضاعف و أخذ في تصاعفه منحا أسيا في الثلاثين سنة ماضية ثم الثورة المعلوماتية الحديثة التي جعلت من العالم قرية صغيرة تربطها الأسلاك على حد تعبير مارشال ماكلوهان[49] و التي أدت إلى انفتاح العالم بشكل لم تعهده الإنسانية من قبل جعل من العالم نسقا تتداعى له و فيه كل البنيات لبعضها البعض فتتأثر السياسة بالاقتصاد و العكس صحيح و تنعكس تلك التداعيات على ما هو ثقافة و حياة اجتماعية في أبسط تشكلاتها أصبحت الثقافات الفردية و الاجتماعية –باعتبارها أسلوب حياة الأفراد– وحدة تتشكل على وقع ما يحدث في القرية العالمية لقد غدا العالم الذي نعيش فيه في مطلع الألفية الثالثة يطرح أمام الأفراد و الجماعات و المجتمعات و الدول على حد السواء مزيدا من الفرص و الخيارات المصحوبة في الوقت نفسه بآفاق أوسع من

[47] اميل دركايم تقسيم العمل.....

[48] David riesman la foule solitaire....

[49] Mc luhan

المخاطر ،[50] و تبدو العائلة و هي أقدم المؤسسات،الأكثر مجابهة للتغيير فلقد تعرضت لمراحل متعددة من التغير لا سيما في المجتمعات الغربية و الصناعية الحديثة و على وجه الخصوص خلال نصف القرن الماضي[51] هذه التغيرات لم تقتصر على المجتمعات الغربية بل مست كل المجتمعات حتى تلك التي كانت تتسم بالتقليدية و التمسك بأطرها السابقة ،هذه التغيرات التي جعلت حتى المتخصصين في الدراسات الأنثربولوجية و الاجتماعية عموما يستحدثون أطر مفاهيمية ومقاربات جديدة للتمكن من المساير المعرفية للوقائع الاجتماعية الجديدة و هو ما دفع بالبعض إلى إقحام مفهوم الحقل على العائلة . الحقل العائلي للدلالة النظرية على تلك العلاقات المنسجة حديثا ما بين العائلة و المجتمع[52]، – إن العائلة كبنية أو مؤسسة اجتماعية استطاعت التكيف مع المستجدات الحديثة التي فرضتها التحولات الاقتصادية و الاجتماعية و التداعيات الفكرية فظهرت إلى الوجود أشكال جديدة من العوائل تحكمها الظروف الاقتصادية أو غيرها

إن ما يهمنا في دراستنا هذه هو التغيير الذي يكون قد طرأ على العائلة

[50] أنتوني غدنز مصدر سابق ص 251

[51] Famille , état et structuration d’un champ familial Renée B et Françoise –RomaineOuelette,INRSculture et société ,1995 p4.

40. Renée B et Françoise –RomaineOuelette,INRSculture et société ,1995 p [52]

الجزائرية و الذي يجعل أفرادها يتمسكون أو لا يتمسكون بالعادات و التقاليد الخاصة برعاية فلذات أكبادهم و هو ما سنجيب عنه في نهاية البحث الميداني.

الفصل الثاني:
العادات والتقاليد الاجتماعية

تمهيد:

قبل اهتمامنا بدراسة العادات الاجتماعية لم نكن نعر أية أهمية لكثرة المصطلحات المؤدية نفس المعنى المقصود من وراء كلمة عادات وتقاليد، وذلك رغم التباين الطفيف الموجود بينها، فكثيرا ما استعملنا كلمات أعراف، تقاليد، عادات وسنن وفلكلور أحيانا بنفس المعنى.

وأثناء بحثنا ، وجدنا الكثير من المراجع والمصادر تختلف في استخدام هذه الكلمات وبنفس المعاني، وهذا هو ما أشارت إليه الدكتورة "فوزية دياب" في كتابها القيم والعادات الاجتماعية [53] إذ تقول: «إن ما يتحدث عنه أحد العلماء على أنه فلكلور (طرق شعبية) يتحدث عنه الآخر على أنه أعراف Coutumes ويسميه آخر (سنن) Mœurs إلخ» وقد أشار بعض الكتاب إلى صعوبة تحديد معاني العادات الاجتماعية تحديدا علميا دقيقا، فنجد مثلا "إدوارد سابير" في كتابه "الأنتربولوجيا" يخصص فصلا كاملا لهذا المفهوم وذلك تحت عنوان العرف La coutume.

ويقول:[54] «لكثرة تداول هذه الكلمة في لغتنا اليومية، أصبحت حجر الأساس في تطور المفهوم الإثنولوجي للثقافة، وهي في دلالتها الموضوعية، شاسعة شساعة كلمة الثقافة نفسها» ويخلص إلى القول أنها تستعمل للدلالة على جملة أنماط السلوك

[53] فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية: مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية، الطبعة 1، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1980، الصفحة 103.

[54] Edward Sapir (1921), Anthropologies, tome I : culture et personnalité, version électronique, internet, Paris Editions de Minuit, 1967, Collection le Sens Commun, Page 113 et seq.

المتناقل بواسطة العادة والتقليد داخل الجماعة وذلك في مقابل النشاط الشخصي للفرد، وهذه الكلمة لا تنطبق على مظاهر الحياة الجماعية التي تحددها الاعتبارات البيولوجية، "فمثلا أكل الدجاج المقلي هو عرف، لكن الأكل في حد ذاته ليس عرفا".[55]

ونحن نسير وفق عادات مجتمعنا بلا وعي منا، فالعادة شعور متأصل فينا، وهو ما جعل علماء النفس يقرون أن العادة هي طبيعة ثانية تتماشى وطبيعة الإنسان.

وفي هذا الجزء سوف نتطرق لتعريف العادات الاجتماعية بكثير من التفصيل.

المبحث الأول: تعريف العادات والتقاليد وأهميتها الاجتماعية

العادة لغة هي عادات، وعاد وعيد وعوائد: أي ما يعتاده الإنسان أي يعود إليه مرارا وتكرارا.[56]

واصطلاحا فهي تعبير على أشكال التفكير والسلوك المستقر الذي يقوم به الفرد في المجتمع، لكن هذا الإصلاح يستعمل بكثرة من قبل علماء الأنتربولوجيا الاجتماعية لوصف التصرفات الروتينية للحياة اليومية، أو الأحكام الداخلة ضمن

[55] Idem.

[56] المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الحادية والعشرون، بيروت، دار المشرق، الصفحة 532.

الروتين أو النماذج الحضارية المستمدة من التصرفات المتكررة أو الطبيعة المميزة للكل الحضاري.[57]

ويعرفها "مالينفسكي" بأنها روتين الحياة الحقيقية الذي يشهده الأفراد، ذلك الروتين الذي يتعلق بطبيعة اللهجة، واللغة التي تستعمل في الحياة اليومية والتي تتفاعل مع الرموز السلوكية فتكون جملة ظواهر اجتماعية معقدة يصعب على العالم تدوينها أو وصفها أو تحويلها إلى أرقام لكن يمكن مشاهدتها وقت حدوثها أو التكلم عنها.[58]

وعرفها صالح الشماع بأنها:[59] «مجموعة الأحوال الحركية والانفعالية، والذهنية، التي تكيف الإنسان إلى ظروف العالم المادي، والوسط الاجتماعي المحيطين به، وبأنها أثمن عنصر محافظ يصون أسس الحياة الحضارية والاجتماعية التي أثبتت الأيام نجاحها، وكفاءتها فبالعادة يخضع الفرد بالتدريج إلى شخصية المجتمع، فهي توافق وتساند بين الفرد والمجتمع» وعرفها بشكل عام "جلن وجلن" بأنها كل سلوك متكرر يكتسب اجتماعيا، ويتعلم اجتماعيا ويمارس اجتماعيا، ويتوارث اجتماعيا.[60]

---

[57] دينكن ميتشل، معجم علم الاجتماع، ترجمة ومراجعة: إحسان محمد الحسن، الطبعة الثانية، بيروت دار، مارس 1986 ، الصفحة 70.

[58] نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

[59] صالح الشماع، مدخل إلى علم النفس، الطبعة 3، بيروت، مكتبة الفكر الجامعي منشورات عويدات، أفريل 1978، الصفحة 62 إلى 65.

[60] فوزية دياب، نفس المرجع السابق، الصفحة 104.

وهذا التعريف يجعلنا نقف على حقيقة الفروق القائمة وطبيعة العلاقة الواضحة بين العادات الفردية والعادات الاجتماعية، فالعادة الفردية كما يعرفها علماء النفس:[61] «هي كيفية راسخة في النفس تمكن صاحبها من أداء بعض الأفعال، أو تحمل بعض المؤثرات بسهولة أو هي قدرة مكتسبة على أداء عمل بطريقة آلية مع السرعة والدقة والاقتصاد في الجهد، وهي تختلف عن الغريزة بأنها استعداد مكتسب، يحصل للنفس بتكرار الفعل أو استمرار التغير،فالعادة الفاعلة كعادة الكتابة تتكون بتكرار الفعل، والعادة المنفعلة كتعود الجسم تحمل بعض المؤثرات، تتكون باستمرار التغير، ومع أن كل لكل فعل أو تغير أثرا في النفس فإن هذا الأثر لا يصبح كيفية راسخة إلا بالتكرار والممارسة». ومعنى هذا أن العادات الفردية، تحددها الطبيعة البيولوجية الإنسان، وطبيعته الفردية، وبالتالي فيمكن لها أن تنشأ وتستمر خارج إطار علاقة التأثير والتأثر الحاصلة في الجماعة، وهذا ما يمكننا ملاحظته كعادات المشي والأكل والكلام، والنوم، والتعبد والاستحمام وغيرها، أما العادات الاجتماعية فهي توضح ذلك الأسلوب الاجتماعي للتصرف الفردي، كآداب السلوك العام، مثل طرق إلقاء التحية والمحادثة، والمجاملات، خطبة البنات للزواج، وربما أهم ما يميز العادات الفردية عن العادات الاجتماعية هي ما يتصل بهذه الأخيرة من جزاء اجتماعي يخص الفرد إزاء مخالفتها.

[61] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، الصفحة 40.

وكان "سمنر" أول من وضح معنى الجزاء الاجتماعي في كتابه "الطرق الشعبية" إذ ذكر:[62] «بأن المقاييس الاجتماعية يمكن تصنيفها بالنسبة لأنواع الجزاءات المفروضة على الأشخاص، أو الجماعات بغية تحريضها على الالتزام بالسلوك السوي الذي تقره الأعراف والعادات والتقاليد الاجتماعية».

وفي نفس هذا السياق كتب "راد كليف براون" في مقالته الموسومة "الجزاء" والتي نشرها في الموسوعة البريطانية للعلوم الاجتماعية عام 1934 بأنه من الضروري التمييز بين الجزاءات المنتشرة والجزاءات المنظمة وهي دراسة توضح وسائل الضبط الاجتماعي التي لا تدخل ضمن الإجراءات الشرعية.[63]

وسنرى فيما بعد في أقسام العادات الاجتماعية كيف أن الموضة كعادة مستحدثة، تشكل مثالا عن تحول العادة الفردية لعادة اجتماعية، ومن الناحية البيولوجية، فأساس الأعراف هو العادات الفردية التي نشرها الأفراد في المجتمعات بحكم علاقتهم بها، والطبائع التي تنتشر بشكل مستمر داخل المجتمعات ترسخ فيها، وعلى العموم فنفسية المجتمع تتغلب على نفسية الفرد، ويقول "سابير" في هذا الصدد، بأنه من السهل علينا تخيل عملية تبلور العادة الفردية في صفة عرف أو عادة اجتماعية في حين يصعب علينا ملاحظة ذلك ميدانيا، وتكتسي العادات الاجتماعية أهمية كبيرة في حياة الأفراد داخل المجتمعات، وكما يقول "باجوت Bagehot":[64] الإنسان حيوان صانع عادات، فطبيعته كإنسان تحتم عليه أن يقيم

---

[62] دينكن متشل، المرجع السابق، الصفحة 182.

[63] المرجع السابق، نفس الصفحة.

[64] فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 107.

صرحا من العادات، وإن وسيلته إلى هذا هي الشعور بالحاجة إلى الإشباع والقوة الخفية وراء المحاكاة، ورفض عادة أو شعيرة يعني رفض المجتمع بكل ما فيه من عمق [65] والعادات الاجتماعية هي الدعائم الأولى التي يقوم عليها التراث الثقافي في كل مجتمع، "نولد فنجد آباءنا متمسكين به ومحافظين عليه ونجد أنفسنا ملزمين على احترامه والأخذ به، والخضوع له، حتى نتوصل لرضى المجتمع ونتجنب سخطه ونشعر بالانتماء إليه، والاندماج فيه، وإذا ما استندنا إلى ما كتبه كثير من العلماء عن هذه الأهمية، فنجد أفلاطون قد وصفها في كتابه (القوانين) بأنها بمثابة الدستور غير المدون، الذي تستقي منه التشريعات والقوانين الوضعية مادتها وأصولها الأولى، وقال عنها "لوك" بأنها قوة أعظم من الطبيعة، وهذه القوة يمكن مشاهدة أثرها الفعال عند الأمم المتأخرة التي لا تعرف القوانين الوضعية والتي تقوم هذه العادات مقامها عندهم"،[66] وكذلك أوضح "ماكيفر وبيج" في كتابهما "المجتمع" بأنه لا يرجى للنظم السائدة أي انتظام ودوام، إلا إذا ارتكزت واعتمدت على العادات الاجتماعية.

وتشير "روث بينديكت" إلى أهمية الدور الذي تلعبه العادات في صياغة أسلوب التفكير والاعتقاد، وترى بأن العادات هي بمثابة العدسة التي تساعد الفرد على مشاهدة الأشياء المحيطة به.[67]

وفيما يلي سوف نتطرق لظروف نشأة هذه العادات الاجتماعية.

---

[65] هنري مندارس، مبادئ علم الاجتماع، ترجمة د. ملحم حسن الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الصفحة 185.

[66] د. فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 107.

[67] Ruth Benedict, Echantillon de civilisation, Paris : Edition Gallimard, 1950, Collection : NRF les essais XL II, Page 05, version électronique, internet.

المبحث الثاني: نشأة العادات الاجتماعية، خصائصها ووظائفها

نشأة العادات الاجتماعية:

إن العادات الاجتماعية لا تعدو أن تكون أساليب وطرق عيش مجتمع وأنظمة سلوكه وقواعد آدابه العامة، وبالتالي فهي تشكل المحتوى الجوهري للثقافة، وظروف نشأتهما هي نفسها، لقد ارجع العديد من الأنثربولوجيين و باحثي علم الاجتماع ظروف نشأة العادات الاجتماعية و الثقافة إلى ظروف نشأة الثقافة إلى الحاجات الأساسية للإنسان وطرق تلبيتها وإذا ما رجعنا إلى رأي "رالف لنتن" في ذلك فنجده يقول بأن الأساليب المختلفة لتلبية هذه الحاجات تغلب عليها المحاولة والعشوائية وبعد تكرارها مرة بعد مرة، تتبنى الجماعة الأسلوب السليم ويتبع بعد ذلك لتتمسك به أفراد الجماعة مع مرور الزمن، وبعد أن يصبح متعارف عليه ومستحسن يتبلور في شكل عادة.*

وبالتالي فهي مسيرة تتشكل بواسطتها تجارب حية وقابلة للتكيف، وفي هذا يقول "سمنر":[68] « ففي سبيل التصارع من أجل البقاء وعن طريق تعاون الناس ببعضهم البعض، تتكون الطرق الشعبية وتنشأ بطريقة غير واعية وغير شعورية، وبمرور الزمن تبدو ثابتة وأصيلة وراسخة، على الرغم من أن أحد لم يقصد حدوثها أو يتعمد تكوينها أو يخطط لها، أو يعرف عنها مقدما».

[68] د. فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 119.

فمن الطبيعي أن الأنواع المختلفة للتقاليد تتشكل وفقا لأصول مختلفة فآداب المائدة لا تتشكل بالطريقة نفسها التي تتشكل بها القواعد التي تحكم الارتقاء إلى عرش إنكلترا، وهذه التقاليد مكتسبة عن طريق نموذج الترسيخ فنحن نتعلم دون جهد عبر الملاحظة للعديد من السلوكات والمعارف،[69] وفي نفس هذا المعنى قد أبرز "باجوت" أهمية عامل المحاكاة في ترسيخ التقاليد، وقد نظر إليها نظرة علماء النفس المعاصرين الذين يرون أنها ميل فطري يشمل الإيحاء (أي المحاكاة في الأفكار)، والمشاركة الوجدانية (أي المحاكاة في العواطف)، والتقليد أي (المحاكاة في السلوك والأفعال).[70]

والمحاكاة هي تأثر فعل أو اتجاه الكائن الحي بكائن حي مماثل وأن فعل أو اتجاه الأول يتحدد بفعل أو اتجاه الآخر، ويذكر النفساني الإنجليزي "استوت Stout" في كتابه "A Manual of Psycology" شروط وظروف المحاكاة فيقول:[71]

- **أولا:** إن من الأيسر أن يحتذي الذوق السائر والإجراءات المصطلح عليها حولنا من أن نفتح سبيلا جديدا بأنفسنا وإذن فإتباع الأمر المألوف عادة تنتج عن الاقتصاد في الزمن والصعوبات، فبدل أن يبدأ الفرد كل شيء

---

[69] ر. بودون وف بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع ترجمة سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة 1، الجزائر 1986، الصفحة 196.

* أنظر الى الفصل الخاص بنظريات الثقافة في كتاب سامية حسن الساعاتي ،الثقافة و الشخصية ،دار النهضة العربية للطباعة و النشر ،بيروت 1984.

[70] د. فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 118.

[71] صالح الشماع، المرجع السابق، الصفحة 105.

بنفسه، نراه يميل إلى الاستسلام إلى المجتمع المحيط به فيحاكي ما يراه سائدا من حوله.

- **ثانيا:** إنه لأمر عام كراهية اجتذاب الانتباه بإظهار ما هو فريد في نوعه، غريب في ذاته، والكثير من الناس يكره أن يزعج غيره ببدع جديدة.
- **ثالثا:** يتعلم الناس بالاختيار والتجربة أن ما يعمله الغير، تبرره في كثير من الأحوال أسس معقولة ومقبولة، وإن الانحراف عما يعمله الغير، يكون مجلبة للضرر في كثير من الأحوال. ويقول الدكتور صالح الشماع بأن المبدأ القرآني وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، معناه أن يتعلم الصغار ما هو مقبول وينتهون عما هو منكر نادر الحدوث، ومهما كان أثر الغير وأثر العادات المألوفة في المجتمع فإن المحاكاة تتحول بالتدريج، بفضل ما يضيفه الأفراد النابهون والعباقرة الذين يبتدعون طرقا جديدة ويأتون ببدع نافعة، فتتبعهم المجتمعات جيلا إثر جيل.

خصائص العادات الاجتماعية:

1-التلقائية:

ينشأ الفرد منا فيجد نفسه أمام هذا الرصيد الضخم والمتراكم من العادات والتقاليد السابقة في وجودها عنا، هذه العادات التي ارتضتها الجماعة كدستور حياة وجب احترامها والأخذ بها، نسير وفقها دون وعي منا ودون تفكير منطقي ولما كانت هذه الطرق الشعبية على حد تعبير سمنر، تنبثق من حاجات الناس الطبيعية، كما

بينا في السابق فإنها تلقائية ويقول سمنر في هذا:[72] «أن الطرق الشعبية ليست من خلق الذكاء البشري وليست من ابتكار التأمل العقلي الهادف، بل إنها تشبه نتائج القوى الطبيعية التي يستخدمها الناس دون وعي منهم أو هي تقابل مظاهر السلوك الغريزية عند الحيوان وتنمو مع التجربة، وتبلغ أعلى درجاتها بتلاؤمها مع مصلحة مطلوبة، وتنتقل من جيل إلى جيل دون شذوذ أو انحراف في الأسلوب وهي مع ذلك قابلة للتغيير لتتفق مع الظروف الجديدة، في نطاق نفس الأساليب المحددة ودون تعقل أو بحث في الأسباب التي تدعو للتغيير، ومن هذا نستنتج أن حياة الإنسان جميعا، في جميع العصور ومراحل الثقافة المختلفة، تسيطر عليها أولا وقبل كل شيء مجموعة من مظاهر السلوك العام انحدرت للحاضر منذ القدم على الأجناس الأولى، متفقة في ذلك مع أساليب السلوك العام عند أنواع الحيوان الأخرى ولم يتغير فيها إلا ظاهريا نتيجة للفلسفة الإنسانية والأخلاق أو نتيجة لفكر ممتاز».

2-الإلزام والجبرية:

ينظر المجتمع إلى الآداب العامة التي يسير عليها على أنها سليمة ومن بين أسباب ذلك أنها تسهل مقدارا كبيرا من تجارب المجتمع وعلى الأخص التجارب التي غمرها النسيان، ولكنها تجارب وجهتها الظروف الحسنة أو السيئة توجيها يجعلها تطيب في نظر المجتمع، هذه التجارب تحولت إلى تقاليد ثابتة قواها الخوف والاشمئزاز من الشيء الذي نجهله بسبب عدم محاولاتنا له من قبل، وعلى ذلك

[72] ماكيفر وبيج، نفس المرجع السابق، الصفحة 41.

فالآداب العامة تعتبر بوجه عام من عوامل المحافظة على الأفكار القديمة وبالطبع يصيب الإخفاق أكثر المحاولات القانونية لتغيير الآداب العامة.[73]

وفي هذا يقول "دوركايم":[74] «إني إذا خرجت على العادات المرعية، ولم أقم وزنا للعرف المتبع في وطني وفي طبقتي بخصوص الزي فإن ما أثيره من عاطفة السخرية، وما أبعثه حولي من الاشمئزاز ينتجان، ولو بصورة مخففة النتيجة نفسها التي يؤدي إليها العقاب الحقيقي، (...) لست مجبرا على استخدام اللغة الفرنسية كأداة للتخاطب مع أبناء وطني، ولست مضطرا إلى استخدام النقود، ولو حاولت التخلص من هذه الضرورة، لباءت محاولتي بالفشل المحض، وإذا كنت من أرباب الصناعة فليس هناك ما يمنعني من استخدام الأساليب والطرق التي كان يستخدمها الناس في القرن الماضي، ولكني لو فعلت ذلك للحق الدمار، ما في ذلك شك(...)ولو فرضنا أنني تمكنت في الواقع، من الخروج على هذه القواعد ومن خرقها بنجاح فلن أتمكن من ذلك إلا بشرط أن أضطر إلى صراعها ولو فرضنا أنني استطعت التغلب عليها في نهاية هذا الصراع فإنها سوف تشعرني بقوة قهرها إلى حد كاف وذلك بسبب ما سألقاه من مقاومتها، وليس ثمة مجددا إلا واصطدمت محاولاته بمقاومة من هذا القبيل، حتى لو كان مجددا، سعيد الطالع».

[73] ماكيفير وبيج، المرجع السابق، نفس الصفحة.

[74] دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، تقديم عبد الرحمان أبو زيدة، موفم للنشر، 1990، الصفحة 41-42.

يقول "جون ديوي" عن إلزامية العادة وعفويتها :[75] «من الواضح أن اكتساب العادات راجع إلى مرونة أصلية فطرية في طبائعنا، وإلى قدرتنا على تنويع وتغيير استجاباتنا إلى أن نجد وسيلة مناسبة وفعالة للتصرف والعادات الرتيبة والعادات التي تملك زمامنا بدلا من أن نملك زمامها هي عادات تقضي على المرونة والسلاسة والطواعية، إنها شاهد على إغلاق الباب في وجه القوة على التغيير ويضيف قائلا: «ليس من الميسور على الناس أن يخلعوا عادات تفكيرهم القديمة، وينبذونها نبذ النواة، وليس في وسعهم أن يخلعوها جميعا بمره».

وتشير الدكتورة "فوزية دياب" بأن درجة جبرية العادات وإلزامها تختلف باختلاف نوعها، فهناك نوع من العادات يعرف بالعادات الحتمية، أو العرف نجده مشبعا بالإلزام، ولذلك لا تتهاون فيه الجماعة، بل تتشبث به وتلزم الفرد بضرورة مراعاته خشية العقاب الصارم الذي ينزل به إذا خالفه مثل العرف الذي يلزم الفرد بالخروج مغطيا جسمه بالملابس، وإلا تعرض للعقاب الشديد كالسجن مثلا والغرامة إلى جانب التحقير والنبذ الاجتماعي.

وهناك من جهة أخرى عادات لا تبلغ في إلزامها مبلغ العرف السابق وهي العادات الاتفاقية، أو الاستعمالات، وهي العادات التي ليس لها مساس عميق برفاهية الجماعة وسلامة بنيانها.[76]

---

[75] قاموس جون ديوي للتربية، مختصرات من مؤلفاته، جمعها: رالفن، وين، ترجمة محمد علي العريان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964، الصفحة 142.

[76] فوزية دياب، نفس المرجع السابق، الصفحة 121-122.

3-ارتباط العادات الاجتماعية بالتفكير الخرافي الأسطوري:

قبل التطرق للعلاقة بين العادات والتقاليد والأساطير المؤسسة لها في بعض الأحيان، يجب الإشارة إلى معنى الأسطورة، ودور التفكير الخرافي، فقد اختلف الكثيرون في تعريف الأسطورة، عرفها "كسينوفان Xenophanes" بأنها حكايات القدماء في الدين وعرفها "سبنسر" بأنها إدراك مبتدأ بل إدراك خاطئ وعرفها آخر بأنها التاريخ في صورة متنكرة واتفق كلهم على أنها طور من أطوار ارتقاء الفكر عند الإنسان وهي صور من صور الفكر البدائي والأسطورة هي عبارة عن تفسير علاقة الإنسان بالكائنات وهي مصدر أفكار الأولين وملهمة الشعر والأدب عند الجاهلين وهي ليست فكرة مبتدئة أو خاطئة، بل إنها فكرة قديمة صبغت بصبغة الإطناب والمغالاة لإظهار أهمية تلك الحادثة الحقيقية في جيل زال أثره من ذهن الناس، والناس بالطبع يكبرون الشيء الصغير لإظهار عظمة الجيل السالف، ولذلك نرى الناس يعظمون الأموات، وكلما بعد عصر الأموات من الأحياء، كبرت عظمتهم وبلغوا درجة الآلهة، وكذلك عندما نقف على أطلال الأكواخ القديمة نكبرها كأنها كانت قصور ملكية وهكذا شأن الإنسان مع كل ما مضى.[77]

وتعتبر الأسطورة، اللحظة النظرية في الوعي الإنساني البدائي، وعن علاقة الأسطورة بالواقع الطبيعي وتجاوزها وتلاشيها، كتب "كارل ماركس" يقول:[78] «إن كل الأسطورية la mythology تتغلب وتسيطر على القوى الطبيعية وتكييفها في الوهم

---

[77] د. محمد عبد المعين خان، الأساطير والخرافات عند العرب، بيروت دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الصفحة 07، 18، 21.

[78] طيب تيزيني، مشروع رؤية جديدة لفكر العربي في العصور الوسطى، الطبعة 5، دار دمشق للطباعة والنشر 1981، الصفحة 22.

ومن خلال الوهم إنها تتلاشى أما الإنسان فهو بالطبع مجبر على أن يسأل ماذا ولماذا؟».

والبدوي مفطور أن يقتنع بأن جواب ممكن، وذلك خير عنده من أن لا يجد جوابا مطلقا، «فالأسطورة أراء البداوة التي تطرق دهن الجاهلي وتخطر بباله وتختلج في قلبه لحل معتقداتها فهي قديمة العهد وبعيدة عن الوضوح، ومحتوية على عناصر عدة إلى حد أنه من المستحيل أن نرى فيها سببا لكل ناموس من نواميس الحياة الفكرية».[79]

ومن مميزات العادات الاجتماعية أو الطرق الشعبية في جميع الثقافات بصفة عامة، وبصفة خاصة أيضا في الثقافات المتخلفة والمنعزلة أو التي تنتشر فيها الأمية، أنها تتصل بالنواحي الأسطورية وعناصر سحرية وخرافية، كالاعتقاد بأن أرواح أجدادنا وأسلافنا تغضب منا أشد الغضب إذا نحن حاولن بأن نغير أو نقطع عاداتهم التي ورثونا إياها.

والاعتقاد في القوة الخفية الخارقة للشياطين والجان والأرواح الخبيثة الشريرة، فكثير من الناس يخافون الميت في منزل مهجور أو مكان منعزل خشية أن تصيبهم الأرواح المحبوسة.[80]

وهناك الكثير من الأمثلة عن العادات ذات أسس أسطورية أو خرافية والتي إذا أمعنا النظر فيها قد لا نجد أية صلة منطقية بين وسائل وطرق إتباعها وبين

---

[79] نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

[80] د. فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 123.

الأهداف والغايات المرجوة منها وهذه هي الميزة الجوهرية في الخرافات والأساطير وإذا تحدثنا عن العادات المرتبطة بحوادث مستمدة من التفكير الخرافي، فنشير إلى أن بعض هذه الحوادث تناقلت عبر الزمن وكأنها وقائع حقيقية، وبمرور الوقت يصعب التمييز بين ما هو حقيقي، وما هو خيال فعلى سبيل المثال يذكر "أوجين دوما Eugène Daummas" في كتاب له عن الأعراف والتقاليد في الجزائر:[81]

«إن الكحل يعتبر من أدوات تزيين العرب نساء ورجال وجواري منذ القدم وفضلا عن استعماله لغرض التزيين فإن يحمي العين من بعض الأمراض وتقول الرواية بأن نور الله سبحانه وتعالى عند انكشافه على سيدنا موسى عليه السلام في جبل ثور بسيناء، أحرق نوره كل الحجارة الموجودة في الجبل، وتحولت بعد ذلك إلى كحل ومن هذه الرواية، يعتبر الكحل هدية من عند الله، وتذكر رواية أخرى، بأن زرقاء اليمامة وهي امرأة يمنية كانت تعاني من التهاب في عينها وبعد استعمالها للكحل شفيت وتحسن بصرها، حتى أصبحت ترى القادم إليها إن كان رجلا أو امرأة وهو على بعد يومين مشيا على الأقدام».

والحكاية الخرافية ترجع بنا إلى عصور تسبق كل تاريخ مدون كما أنها ترجع بنا إلى بداية الفن الشعري، وإلى عالم آخر من الفكر والاعتقاد والحق والدين وهي لا

[81] E. Daummas, Mœurs et Coutumes de l'Algérie, Paris, la bibliothèque arabe Sind Bad, 1988.

ترجع بنا إلى الأزمنة الماضية فقط، فما نعده اليوم قديما موغلا في القدم، ما يزال يكون حتى اليوم في بعض الحضارات البدائية مضمون الفكر والعقيدة.[82]

ورغم التطور الحضاري والثقافي والعلمي إلا أن التفكير الخرافي لا يزال سائدا في مجتمعاتنا، ولا يزال الناس يحسبون لتلك العادات المستمدة من الأساطير والخرافات، ويخافون تركها، اعتقادا في الفال أو التطير.

4-التنوع والنسبية:

تختلف العادات والتقاليد باختلاف ثقافات الشعوب، وكما أن الثقافة نسبية،فالعادات و التقاليد نسبية أيضا فلكل مجتمع طرقه الشعبية وعاداته الاجتماعية التي تنسجم مع قيمه ومعاييره من ناحية الخير والشر، والصواب والخطأ، وما هو مستحب وما هو مكروه، ولذلك فالعادات التي يراها مجتمع عادية وطبيعية قد يراها آخر شاذة وضارة، وقد عبر عن ذلك "محمد المويلحي" في حديث عيسى بن هشام بقوله:[83] «ولا يتحتم أن ما يكون ذا نفع عند الغربيين، يكون له نفع عند الشرقيين والشواهد كثيرة جمة على أن ما يكون في باريس حسنا يكون في برلين قبيحا وإن ما يكون في لوندرة حميدا يكون في الخرطوم ذميما، وما يكون في رومية حقا يكون في مكة باطلا، وما يكون عند الغربيين جدا يكون عند الشرقيين هزلا».

ومن أمثلة العادات والتقاليد المستحبة عند أهلها والغربية عنا بل أكثر من ذلك تثير التقزز في أنفسنا، نذكر عادة أكل الديدان المجففة وهي عادة شائعة في

---

[82] فرودريش فون ديرلاين، الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، الطبعة 1، بيروت، دار القلم، 1973، الصفحة 09، 10.

[83] نقلا عن فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 132.

صحاري ليبيا ويعرف الأهالي الذين يقومون باصطياد الديدان من المستنقعات وتجفيفها باسم "الدوادة" ووضح هؤلاء بأن لهذه الأكلة المحببة صحبة كثيرة إذ تبعد أمراض السكر والقصور الكلوي والقلب وغيرها.*

ولا تختلف الأقوام في طرقها وعاداتها من ناحية ميولها لأنواع الأطعمة فحسب، بل تختلف أيضا من حيث كيفية إعداد الطعام وطهوه، وتختلف اختلافا كبيرا في أشكال الزواج وتحديد العلاقات الجنسية، وتربية الأطفال والملبس وغيرها.

5-الرغبة في التمسك بها:

من مميزات العادات الاجتماعية أنها في مجموعها محببة إلى الناس ومرغوب فيها، ويرجع ذلك إلى تلقائيتها وشعور الأفراد بضرورتها لتعاملهم بعضهم مع بعض ولصلاح حالهم واستقرارهم، كما يرجع أيضا إلى عملية التنشئة الاجتماعية التي تهدف إلى تشكيل الأفراد على الصورة التي يرتضيها المجتمع وتهيئتهم لتقبل الظواهر الاجتماعية السائدة فيه حتى يتوافق بعضهم مع بعض فيتماسكوا وتقوى وحدتهم، لذلك تلجأ عملية التنشئة الاجتماعية إلى ترويض الأفراد منذ نعومة أظافرهم على تقبل العادات الاجتماعية السائدة ومن أقوى الوسائل في تثبيت العادات الاجتماعية مساندتها بالقيم وربطها بالمصالح النفعية، وتزويدها بعناصر جزائية مختلفة إلخ... ومن يخرج عليها أو ينحرف عليها لا يتعرض لعقوبات القانون، بل

* المعلومة أخذتها من حصة تلفزيونية تبث أسبوعيا في القناة الفرنسية الثانية، بعنوان مبعوث خاص، Envoyé spécial، التي أجرت روبرتاجا مطولا عن "الدوادة" في صحراء ليبيا.

إلى عقوبات الرأي الجمعي بمختلف أنواع التحقير الاجتماعي كالاستهجان والسخط والسخرية.[84]

وفي هذا يقول "ماكيفر وبايج":[85] «إذا نظرنا لمظاهر السلوك العام لا من حيث كونها معايير للسلوك وإنما كأدوات تنظيمية، فإننا نتصورها في هذه الحالة كآداب عامة فكل عرف اجتماعي، وكل مظهر من السلوك العام، هو بدرجة ما وسيلة للضبط الاجتماعي وحتى أبسط قواعد السلوك أو أتفه مظاهر التقاليد تصاحبها فكرة كونها السلوك الأمثل (...) إنها تعبر عن مستويات الزمرة وما تراه هذه الأخيرة من تصرفات ملائمة وسليمة، ومؤيدة لسعادة المجموع».

هذا ومن الملاحظ أن أفراد كل مجتمع يعتقدون أن عاداتهم أو طرقهم الشعبية خير وأفضل من المجتمعات الأخرى وقد ذكر هيرودوت فيما ذكر: «أنه لو طلب من كل شعوب العالم أن تختار العادات التي تبدوا أكثر ملائمة لها، لاختار كل منهم بعد البحث والتدقيق عاداته هو» فكل فرد بعادات قومه معجب ومعتد بل إننا نجد أفراد كثيرين من المجتمعات يتعصبون لعاداتهم وتقاليدهم تعصبا يجعلهم يعتقدون أنها جديرة بالتقدير بل والتقديس أيضا والتعصب على هذا الشكل يعرف عند الاجتماعيين بظاهرة Ethnocentrisme النزعة العرقية ، وقد أوضح "سمنر" معنى هذا المصطلح حيث قال أنه «الاصطلاح العلمي الذي يطلق على تلك النظرة للأمور التي تجعل جماعة الشخص مركز كل شيء، وأن كل الجماعات الأخرى

[84] فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 133.

[85] ماكيفر وبيج، المرجع السابق، الصفحة 41 وما بعدها.

تقدر وتقوم وترتب بالقياس إليها»،[86] وهذا هو السبب الذي مجد من أجله "جوبينو Gobineau" العنصر الآري في مقال له عن "اختلاف أجناس البشر، فتشدق بنقاء الآرية وأصالتها وعبقريتها".[87]

والتاريخ مليء بصور من هذا التعصب للانتماء لثقافة أو لجنس من الأشخاص.

وظائف العادات الاجتماعية:

لعل من أبرز العادات الاجتماعية، أنها تسهل على الناس أمور حياتهم، ولذلك يقال عنها: إنها اقتصادية في نتائجها لأنها تختصر الوقت وتقلل الجهد العقلي والنفسي الذي يبذل في التفكير في تفاصيل كل فعل يتكرر حدوثه مما جعل علماء النفس يقولون بأن مسايرة العادات عملية خاصة نفسيا... ويضيف "أرنولد جرين":[88] «أية فوضى شاملة تكون عليها الحياة البشرية الاجتماعية، إذا اضطررنا كل يوم إلى تسوية الخلافات وحسم المناقشات التي تحتدم حول أمور حياتنا اليومية كتحديد عدد الوجبات التي يجب أن نأكلها وفي أية ساعة من ساعات الليل أو النهار نتناولها وغير ذلك فالعادات الاجتماعية هي المصابيح الهادية التي ترشد الفرد وتهديه إلى التصرف، المتوقع منه في مجتمعه وفي حياته بوجه عام».

---

[86] فوزية دياب، نفس المرجع السابق، الصفحات 133 و136.

[87] قباري محمد إسماعيل، نفس المرجع السابق، الصفحة 156.

[88] نقلا عن فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 144.

وبالتالي فهي تحدد كثيرا من سلوك الفرد إنها الجهاز الآمر الناهي، في المجتمعات، ومهمته الضغط على كل عضو في المجتمع كما تعمل على إدماج الفرد في المجموع فإذا كانت تمارس الضغط على الفرد من جهة، لكي يتماشى مع أساليب مجتمعه أو طبقته الاجتماعية أو نوعه ذكرا أم أنثى فإن الفرد من جهة أخرى وباكتسابه لاندماجه داخل الجماعة يحفظ الروابط الاجتماعية التي لابد منها للمعيشة الهانئة، كما تعتبر الوسيلة المثلى لحماية التضامن الاجتماعي وكل زمرة تتوق إلى زيادة تضامنها تسعى إلى أن تقوي تأثير الآداب العامة في أعضاء الزمرة.[89]

وبالإضافة إلى كل هذه الوظائف هناك الوظيفة الجمالية التي تتجلى في الشمائل الحسنة وآداب السلوك اللائقة التي يتبعها الأفراد في مناسبة معينة وبأساليب محددة.

المبحث الثالث: أنواع العادات الاجتماعية:

يتفق كثيرا من الاجتماعيين على تقسيم العادات الاجتماعية إلى طائفتين اثنتين وهما:

أولا: طائفة العادات القديمة

ثانيا: طائفة العادات الجديدة والمستحدثة.

[89] ماكيفر وبيج، المرجع السابق، الصفحة 41 وما بعدها.

وإن اختلف البعض من أمثال "سابير" على وصف هذه العادات والتمييز بينها على أساس الدوام والاستمرار فهو يعتبر العادات القديمة أعراف دائمة والعادات المؤقتة هي الموضات، وعلى أية حال فالعادات التقليدية أو الأعراف الدائمة هي التي تهمنا أكثر من غيرها في هذا المقام، ويوضح "سابير" تلك الظلال الطفيفة والفروق ما بين أنواع الأعراف الدائمة فيقول:[90] «إننا نستعمل كلمة العرف للتعبير عن السلوكات السائدة في وسطنا الاجتماعي والتي تقع في منتصف الطريق ما بين العادات الشخصية والمؤسسات الاجتماعية، ومع ذلك فإننا نطلق كلمة عرف على تدخين السجائر ولا نطلقها على حكم محكمة مثلا وذلك بالرغم من أننا لو إطلعنا على الحضارة البابلية أو الصينية الحديثة أو حياة قبيلة أسترالية بدائية لوجدنا بأن المؤسسات التي تقوم بإصدار الحكم، كما يحدث في المحاكم لدينا هي نفسها قائمة ومنصبة بواسطة الأعراف، إن التردد الذي يقودنا لإطلاق كلمة عرف في مجتمعاتنا على السلوكات الاجتماعية والخالية من معاني هامة، ربما أساسه إرادتنا في التنويه بالدور الأساسي للفرد، وهذا ما يجعلنا نقول "العادات" بدل "الأعراف" أو التنويه بدور التنظيم العاقل الجماعي وفي هذه الحالة، فان الأنسب هو كلمة تنظيم أو المؤسسة Institution وحسب سابير دائما، فكلمة عرف غالبا ما تستعمل كمرادف لكلمة تقليد أو اتفاق أو سنن، ولكن وقع هذه الكلمات على السمع ومعناها يختلف، فكلمة اتفاق convention تركز على غياب الضرورة في نمط السلوك وتعني غالبا بأننا نعترف بشكل ضمني أو صريح بأن بعض أنماط السلوك نتبناها لأنها تليق أكثر من غيرها.

---

[90] Edward Sapir, Ibid, Pages 113-114.

وكلما كانت وظيفة العرف رمزية وشائعة كلما اعتبرناها اتفاق، فالعرف هو أن نكتب بالقلم أو الميداد ولكن الاتفاق هي أن نستعمل نوعا محددا من الورق في المراسلات الرسمية مثلا، في حين أن التقليد يركز على البعد التاريخي للعرف في حياة الجماعة، فلا يخطر أبدا على بالنا أن نعيب على جماعة ما افتقادها للأعراف والاتفاقات ولكن إذا ما كانت أعرافها أو اتفاقاتها مستحدثة، فقد نعتبرها بدون أعراف، أما كلمة سنن فهي أنسب كلمة تستعمل للتمييز بين أنماط السلوك المستحبة وتلك المكروهة فسنن شعب ما هي إلا أخلاقياته في الأفعال ويبقى صعبا التمييز علميا وبدقة بين الكلمات، أعراف، إتفاقات، تقاليد وسنن، وكل هذه الكلمات في نهاية الأمر هي عبارة عن عادات اجتماعية أو أنماط ثقافية.[91]

وقبل التطرق بدقة إلى أنواع العادات التقليدية والعادات المستحدثة، نشير إلى تعريف العادة والتقليد والعرف عند "علي الزين" حيث يقول:[92] «لا شك أن كل حركة أو فعل أو قول يصدر من أي شخص ثم يتكرر منه أو يعاد في كل مناسبة يصبح بالنسبة لهذا الشخص عادة ثم يصبح تقليدا لمن يحاكيه في ذلك وخصوصا حين يكون المقلد لهذه العادة مقلدا بالوراثة عن سلفه من الأصدقاء والأجيال المتعاقبة ثم حين يجمع على هذه العادة وهذا التقليد الجمهور من أبناء الجيل والقبيلة والإقليم تصبح هذه العادة أو يصبح هذا التقليد عرفا بنظر الجميع، وعليه فلا فرق بين العادة والتقليد والعرف إلا بالاعتبارات والنسب، على أن العرف لا يكون عرفا إلا بالأمور

---

[91] Edward Sapir, Idem.

[92] علي الزين، العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية، الطبعة 1، دار الكتاب اللبناني بيروت، دار الكتاب المصري القاهرة، 1977، الصفحة 07.

المعقولة والحسنة بينما تتغلغل العادات في الأمور الحسنة والأمور السيئة والممقوتة».

العادات التقليدية:

1-التقاليد:

قلد لغة أي تبعه من غير تأمل ولا نظر والتقليد هو ما انتقل إلى الإنسان من آبائه ومعلميه ومجتمعه من العقائد والعادات والعلوم والأعمال.[93]

وفي قواميس اللغة الفرنسية عرفت كلمة "Tradition" على أنها عملية نقل عبر الزمن للأعراف، الآراء والاستعمالات إلى غير ذلك بواسطة الكلمة أو المثل فيقال: ذلك تقليد فني قديم أو مجتمع تقليدي أو أنها جملة المعطيات والمفاهيم الخاصة بالماضي والمتناقلة عبر الأجيال.

ويقال تقاليد شعبية وفلكلورية أو أنها طرق التفكير وأساليب التصرف المتوارثة من الماضي وهي أيضا العادات والأعراف،[94]وبالتالي فالتقاليد هي أساليب السلوك أو كما يقال "سمنر" في كتابه الطرق الشعبية:[95] «هي تلك الطرق السليمة التي قلدونا إياها أجدادنا».

فلفظ التقليد يحمل في معانيه القدم، والمحافظة وفي اللغة العربية:

---

[93] المنجد في اللغة والإعلام، المرجع السابق، الصفحة 649.

[94] Le Robert dictionnaire d'aujourd'hui, Page 1027.

[95] فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 170.

قلده إياه جعله قلادة فيه أي أعطاه إياه ويقابله في الفرنسية Traditions مشتقة من الفعل اللاتيني Trader، الدال على التسليم والإعطاء، وبذلك يكون معنى Traditions أي تقاليد ما تنوقل من السلف إلى الخلف، ويعرفها "لندبرج Lundberg" بأنها الذكريات والتقارير الشفهية للعادات والأعراف القديمة، والتجارب الماضية المشهورة التي مرت بالجماعة، وهي تنشأ من الرضا والاتفاق الجمعي بين أعضاء الجماعة فهي تستمد قوتها من قوة الرأي الجمعي أو الروح الجماعي كما يقول "دور كايم" وتمارس ضغطا شديدا على الفرد الذي هو عضو في الجماعة.[96]

ولأنها تنطوي على فكرة كونها السلوك الأمثل والأصح فهي قادرة على الدوام والاستمرار ومع هذا إلا أننا إذا ما تأملنا التاريخ وحياتنا اليومية فنجد العديد من التقاليد قد اندثرت وقامت محلها تقاليد أخرى مغايرة.

فإن كانت العادات والتقاليد قد منعت إدوارد السابع من الزواج من أمريكية مطلقة سنة 1936، وقد دفعه ذلك للتخلي عن العرش من أجل الزواج منها نجد اليوم الرأي العام النرويجي والأسرة الملكية قد تقبلا زواج ولي العهد مع امرأة عادية أم لطفل ذي أربعة سنوات، وهذا رغم اعترافها أمام الملأ بواسطة وسائل الاتصال الجماهرية بأخطائها المرتكبة في الماضي.[97]

[96] فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 157.

[97] Paris Match N°27 du 06 Septembre 2010, Page 17.

وقد تنبه ابن خلدون إلى سنة التغيير في أحوال الأمم إذ كتب يقول في المقدمة:[98] «وهو داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة وله، فلا يكاد يتفطن له الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم، وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول».

ونجد "ريتشارد بهرندت Richard Behrendt" يتحدث عن التغيير فيقول:[99] «قد لا نتعرف على ملامح ثقافتنا، إذا ما عدنا إلى بلدنا بعد طول غياب، إذ نجد أن نوعا من الانجراف الاجتماعي قد حدث وأن رياح التغيير قد أخذت أرضية التقاليد في تيارها» ورغم هذا إلا أن الميل العام للناس هو المحافظة على تقاليدهم، ذلك أن التجديد يحمل معه عنصر المغامرة واحتمالي النجاح والفشل على قدر السواء، في حين أن القديم هو ماضي والماضي ملك للإنسان، فليس كالمستقبل مجهول ومخيف ولهذا تمتاز التقاليد بأنها عادات مريحة لأنها تعطي الناس شعورا بالأمن والطمأنينة وهذه السمة المحافظة للعادات والتقاليد نابعة من طبيعتها كعنصر التراث الثقافي، وكونها تمس عواطف الناس العميقة، ومشاعرهم ومعتقداتهم وهناك الكثير من الأمثلة في التاريخ تبرز صمود العادات والتقاليد أمام كل ما هو خارج عنها أو جديد عليها.

---

[98] نقلا عن فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 160.

[99] Richrd F. Behrendt, L'homme à la lumière de la sociologie, Paris Payot, 1964, Page 75.

ففي الجزائر مثلا، نجد مدن وادي ميزاب في قلب الصحراء الجزائرية، التي تتميز بنظامها الاجتماعي الدقيق وعادات وتقاليد أهلها وطراز عمارتهم وتخطيط مدنهم كأننا نطل على القرن الخامس الهجري، ونجد أحد صحافيي مجلة العربي يقول في ريرتاج له عن المنطقة:[100] «قد حافظ أهل ميزاب على عزلتهم مدة طويلة كمجموعة متلاحمة فخورة بتاريخها، وبعد سقوط الجزائر أمام الاحتلال الفرنسي، وعندما وصل الفرنسيون إلى الأغواط، البوابة الشمالية لميزاب، بعث أبناء ميزاب وفدا إلى الأغواط، وهناك عقد الوفد مع الجنرال "الكونت دي راندون" إتفاقية عام 1852، وضع بمقتضاها الوادي تحت الاحتلال مع الحفاظ على نوع من الحكم الذاتي وأن يستثني أبناء الوادي من الخدمة في الجيش الفرنسي، أما اليوم فتشهد مزاب، تغيرا كبيرا، فرياح التغيير عاتية لا يمكن مقاومتها وما شاهدته في مزاب يثبت أنه لم يعد ممكنا في هذا العصر –ومع التقدم الهائل في وسائل الاتصال– أن يتمكن مجتمع من الحفاظ على عزلته حتى لو كان في قلب الصحراء ويتمرس وراء مذهب تدعو ظروفه التاريخية إلى التمسك بكل ما تركه الآباء، وها هو ذا الكثير من معالم الماضي تتغير، فمثلا وسائل حفر الآبار الحديثة وفرت المياه، وأصبحت البلدة تحتاج إلى شبكة صرف حديثة ولم تعد الجلسة في الغابة كما كانت بعد أن تزايد البعوض، وأصبح طراز البيوت القديمة مهددا بإقامة مكان للسيارة مما وضع أمام رجال الآثار صعوبات كبيرة للحفاظ على آثار وطابع ميزاب، وقفزت إلى السطح مشاكل التغيير المختلفة، فمثلا المدارس الحكومية الإلزامية التي تنتشر في كل أنحاء

[100] مصطفى نبيل، عالم مزاب المسحور "رحلة إلى الصحراء الجزائرية"، العربي، العدد 286، الصادر بتاريخ سبتمبر 1982، الصفحة 106.

الجزائر، مدارس مختلطة تضم البنين والبنات، ويصر أهل الوادي على منع الفتيات الصغيرات من الذهاب إليها».

هذه الخاصية الاستقرارية للعادات والتقاليد هي التي جعلتها عرضة للنقد من طرف بعض المفكرين من أمثال "جون ديوي" الذي يقول عنها أنها:[101] «غمامات تحجب عيون العقل وتحصرها في نطاق رؤية الطريق القدامي، إنها تحول بين التفكير وبين أن يشرد أو يضل بحيث لا يحلق في مجال أكثر تنوعا وأوفر بهاء وبهجة ولكنه لا بلائم الواقع وخارج نطاق العادات، فإن التفكير يتلمس طريقه عيانا متسكعا متعثرا في عمه وتخليط وتخبط، ولكن على الرغم من ذلك كله فإن العادة عندما تصبح نسقا مطردا رتيبا فإنها تغلق الباب في وجه التفكير وتصده لدرجة أن الحاجة إلى التفكير تكاد تنعدم أو تصبح غير ممكنة».

وإذا ما أردنا التوغل قليلا في العلاقة التي تربط التقاليد بالجماعة، نجدها شبيهة بالعلاقة التي تربط الثقافة بالجماعة، ذلك أن التقاليد لا تعدو أن تكون عنصرا من عناصر الثقافة، ومحتوى من محتوياتها فهي تمد الأفراد بأنماط سلوك جاهزة ومتفق عليها، ولكن هنا تجدر الإشارة إلى مكانة التقاليد في المجتمعات التقليدية أو البدائية كما يصفها بعض المفكرين وتلك المكانة التي تحظى بها في المجتمعات الحديثة ويقول "ريشارد بهرندت" عن تفكك الجماعات التقليدية:[102]

[101] قاموس جون ديوي للتربية، المصدر السابق، الصفحة 142-143.

[102] Richard F. Behrendt, Ibid, Page 71.

إن التطور التكنولوجي والاقتصادي والنمو الدموغرافي للسكان وتقدم العلوم والطب الذي ساعد على ذلك، كلها عوامل ساعدت على تفكك المجتمعات التقليدية والتي كانت في سنوات مضت المؤسسات الأساسية للتثقيف، أمام هذه التغيرات اختفت العائلة العريضة التي تضم أفراد الأجيال الأربعة وحلت محلها الأسرة النووية وانتقلت من اقتصاد الاكتفاء الذاتي لتصبح مجرد أسرة مستهلكة، وأصبح مركز العمل خارج نطاق الأسرة بعدما كان بداخلها، والتربية التي كانت تنقل للأجيال داخل الأسرة العادات والتقاليد أصبحت من مهام المدارس التي كثيرا ما تنقل للأجيال رؤى ومفاهيم ومبادئ قد تختلف عن تلك التي تتناقلها الأسر.

فالمجتمعات التقليدية أكثر تمسكا بالتقاليد من المجتمعات الحديثة المصنعة، وقد ذهب بعض الاجتماعيين العرب إلى حد وصف القرى بمعاقل التقليد أمام مراكز التحديث أي المدن [103] ويتساءل "مالينفسكي" عن الأساليب التي تجعل الإنسان البدائي يطيع قواعد السلوك السائدة في مجتمعه حتى وإن كانت قاسية ومزعجة، وطبيعة القوة التي تضمن سيطرة النظام في المجتمعات البدائية ثم يتوصل من خلال أبحاثه الميدانية إلى أن البدائي له ضعف وطاعة آلية عمياء للعادات والأعراف وأحكامها عليه، بدون وعي منه وبتلقائية مقرونة بالخوف من نتائج خروجه عن النظام العام في المجتمع والخوف من العقاب وفي نفس هذا السياق يقول "سيدني هارتلند":[104]

103

104 محمد الحسيني وآخرون، دراسات في التنمية الاجتماعية، القاهرة، الطبعة 4، دار المعارف، الصفحة 369.

«إن البدائي ليس هو ذلك الكائن الحر الذي تخيله جون جاك روسو، بل بالعكس إنه مكبل من كل الجوانب بأعراف وعادات مجتمعه، إنه مقيد بتقاليده في حياته الاجتماعية وفي ديانته وطرق تطبيقه، وصناعاته، وفنونه وفي كل مظهر من مظاهر حياته، إنه يتقبل قانون الأعراف والعادات والتقاليد بشكل عفوي دون البحث عن إمكانية الخروج عن نطاقها أو تكسيرها فهو مجبول على طاعتها بشكل فطري».

فقوى العادة واحترام توصيات التقاليد والرغبة في إرضاء الرأي العام والارتباط العاطفي بالتقاليد كلها أشياء تساعد على طاعة الأعراف كما هي ولذاتها، وفي هذا يضيف "مالينفسكي":[105] «لا يختلف البدائي كثيرا عن أفراد أية جماعة منغلقة على نفسها، ذات آفاق محدودة، سواء كانت "قيتو" في أوروبا الشرقية أو مدرسة في "أوكسفورد" أو غير ذلك، كما أضاف بأن الاعتقاد الواسع في الجزاء الماورائي والخوف من فقدان محبة الأقارب، عوامل تخلق جو من الرعب يكفي للتحذير من اختراق الأعراف السائدة في القبيلة».

وقد قام "هرتلند" بدراسة الجزاء عند البدائيين، ويشترك في هذه الأراء أيضا "موس ودركايم" الذين أضافا بأن المسؤولية والانتقام كلها انفعالات تقوم على نفسية الجماعة وليس على نفسية الفرد وقد سبق وأن ذكرنا أعلاه كيف أن فكرة الانصياع وراء التقاليد تنضوي على مبدأ الجزاء الاجتماعي الذي قد يتراوح ما بين مجرد التهكم والاستهزاء إلى حد النبذ الذي يعتبر أقصى أنواع هذا الجزاء.

---

[105] B. Malinewski, Ibid, Pages 39-43.

وهناك أمثلة كثيرة عن أهمية تطبيق الجزاء على من يخرج عن الأطر التي تضعها تقاليد الجماعة، فيقول صحافي في ربرتاج آخر عن منطقة واد مزاب وأهلها وتقاليدها:[106] «ولكن ماذا يحدث لمن يخالف تعاليم مجلس الغرابة [*]؟ التبذ الاجتماعي، نوع من السجن غير المرئي يحيط بالمذنب، برغم أنه لا يوجد في الوادي سجن بالمعنى الواقعي، إن إمام المجلس يقف أمام المصلين ويعلن التبرء من كل من يخالف التعاليم أو يرتكب جرما أو يقترف سرقة أو يظلم زوجة أو يأكل مال يتيم أو يغش في بضاعته أو يخون أمانة ، هكذا يتم الإعلان على رؤوس الأشهاد أن المسلمين كلهم براء منه فلا يجالس ولا يشارك في فرح أو في مأتم ولا يقبل البيع أو الشراء منه وأحيانا ينفى خارج القبيلة إذا كان سارقا وتكرر جرمه، ولا يعود قبل أن يشهد شهود عدول أنه سار حتى رأى البحر، وإذا مات المذنب قبل توبته لا يشرف مجلس الغرابة على غسله ودفنه ولكن يوكل أحد العوام للقيام بذلك، والذي يشعر بأن هناك ظلما واقعا عليه يذهب إلى المسجد ليمنع المصلين من الصلاة قبل أن يأخذوا له حقه أو يتعهدوا بذلك» وفي نفس هذا السياق يذكر الكاتب الغجري "ماتيو ماكسيموف" واصفا العقاب «يكفي بناءا على أمر القبيلة، أن تقطع امرأة متزوجة قطعة من ثيابها، وترمي بها على رأس الرجل المحكوم عليه بالعقاب، فيجد هذا الشخص نفسه، في التو واللحظة، قد طرد من القبيلة كلها نهائيا وإلى الأبد فلا أحد مطلقا يفكر في أن يكلمه بعد ذلك، كما لا يفكر أحد أن يدعوه لتناول الطعام عنده،

---

[106] محمد المسي قنديل، وادي ميزاب تراث جزائري حي، العربي، العدد 445، ديسمبر 1995، الصفحة 135.

[*] مجلس الغرابة: هو عبارة عن مجلس مكون من إنتي عشر 12 شخصا يحتلون مكانة الإمام الأعظم، ويختارون من بين الأصلح والأكثر ورعا من العشيرة، يفتون شؤون العشيرة ويسمى الغرابة، أي الذين غربوا عن الدنيا بما فيها من أطماع شخصية ووهبوا أنفسهم خدمة الآخرين ومقر هذا المجلس في وادي ميزاب.

وإذا لمس شيئا، فإن هذا الشيء (بناءا على ما يأمر به عرف القبيلة) يجب أن يحطم أو يحرق مهما كان ثمينا وقيما، وهكذا نجد أن كل فرد في القبيلة يتجنب هذا الآثم، ويفر منه، أكثر مما يتجنب السليم الأبرص، ولا يجرؤ أحد في القبيلة كلها أن يقتله ليضع حدا لمصيبته وينقده من قسوة هذا التعذيب، فإن مجرد الاقتراب منه، كل التلويث والتدنيس لمن يفعل ذلك وإذا مات فلا يعيره أحد أية أهمية، ولا يفكرون في دفنه أو تشييعه إلى مثواه الأخير والعجيب في الأمر أن للغجر قدرة مدهشة على نسيان مثل هذا الشخص الملعون والمغضوب عليه».[107]

ولترسيخ هذه التقاليد داخل النفوس في الجماعات تعتمد هذه الأخيرة على عدة أساليب مثل الشعائر والرموز والاحتفالات العامة، وسوف نتطرق بشيء من التفصيل إلى كل أسلوب من هذه الأساليب.

الأساليب المؤيدة للتقاليد:

أ- الطقوس أو الشعائر:

من أهم الأساليب المؤيدة للتقاليد، الشعائر، والرموز والاحتفالات وطائفة أخرى من الوسائل تتمثل في المعتقدات الشعبية الدارجة والحكم والأمثال والأساطير والقصص والأغاني.[108]

[107] د. فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 210.

[108] د. فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 176.

وكثيرا ما تستعمل الكلمات، شعائر طقوس ومراسيم للتعبير عن نفس المعنى وإن كان هناك ميل لاستعمال كلمة شعائر، للتعبير عن السلوكات التي لها علاقة بالدين وكلمة المراسيم خاصة بالمظاهر الرسمية، والطقوس للتعبير عن السلوكات الخاصة بأحداث منتظمة الوقوع في حياة الفرد كالميلاد والزواج والوفاة.

والشعائر، هي سلوكات رمزية أو دينية يفترض فيها إعطاء القوة للناس على استعمال قوى ما ورائية للتحكم في ظواهر طبيعية كالمطر وموت العدو، والشفاء إلى غير ذلك، وقد عرفها فرويد على أنها فن السحر، مؤكدا على تعقيده وفعاليته في الجمعيات البدائية على الخصوص.[109]

وأحيانا تستعمل الشعائر والطقوس للدلالة على نفس المعنى وهي أيضا كما يعرفها علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية [110] هي مجموعة حركات سلوكية متكررة يتفق عليها أبناء المجتمع وتكون على أنواع وأشكال مختلفة تتناسب مع الهدف أو الغاية التي دفعت الفاعل الاجتماعي أو الجماعة للقيام بها، وللاصطلاح "طقوس" ثلاثة استعمالات مختلفة الاستعمالان الأولان يؤكدان على الطبيعة الرمزية للطقوس، أما الاستعمال الأخير فيعرف الطقوس مبرزا العلاقة بين الواسطة والغاية التي تكمن في السلوك الاجتماعي، وتبعا للمعايير الطقوسية فإننا نشاهد استعمال الطقوس في التصرفات السحرية والدينية وفي تقنية أنواع التصرفات التي تقرها العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع، ويقول البروفسور "أم دوكلاس" «بأن الطقوس تحل

---

[109] Charles, Henri Favrod, l'anthropologie, Encyclopédie du monde actuel, 1977, P 178.

[110] ديكن متشل، المرجع السابق، الصفحة176.

محل الدين في معظم النظريات والكتابات الأنتروبولوجية طالما أن المقصود بها هو التصرفات الرمزية المتعلقة بالأشياء والكائنات المقدسة للشعوب البدائية».

والطقوس حسب آراء "راد كايف براون" هي حدث رمزي يعبر عن قيم اجتماعية مهمة، ويقوم العالم "كودي" بتحليل الطقوس عن الطريق دراسة العلاقة بين واسطة وغاية الفعل الاجتماعي، فيقول بأن الطقوس هي نوع من أنواع السلوك ذي المقاييس المتوازنة والتي لا تكون العلاقة بين واسطته وغايته جوهرية، أي أن العلاقة بين واسطة وغاية السلوك الطقوسي هي علاقة غير منطقية ولا عقلية والسلوك الطقوسي يتمثل بالحدث السحري أو العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية التي يعبر عنها بالرموز السلوكية،[111] ....

وفضلا عن مجموعة الطقوس الواجب مراعاتها عند الوفاة أو الخطبة أو الزواج مثلا، فنجد كثيرا من الطقوس التي تحظر القيام بأعمال أو حركات، أو التفوه بعبارات أو كلمات معينة وهذه الطقوس التي تحظر القيام بأعمال أو حركات، أو التفوه بعبارات أو كلمات معينة وهذه الطقوس أو الشعائر تعرف بالمحظورات الشعائرية أو الشعائر السلبية كعدم البكاء في مناسبات البهجة وعدم تناول الطعام في مناسبات الحزن، وتجنب ذكر اسم المتوفي حديثا، وتدخل هذه الشعائر في طائفة المحرمات "Tabous" وهي تتضح بشدة في المجتمعات البدائية والريفية المنعزلة، حيث يشتد الاعتقاد في السحر وفي قوى غيبية غريبة.[112]

---

[111] نفس المرجع السابق، ونفس الصفحة.

[112] د. فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 178-179.

وهنا يظهر لنا بأن الطقوس مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاعتقادات السائدة في المجتمعات.

ب- الرموز:

يعتبر لسلي هوايت[113] بأن الثقافة هي تنظيم خاص من الرموز وأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع فهم وفك هذه الرموز والتعامل على أساسها، وهو ما يميز عن باقي الكائنات الأخرى، فهو له قدرة فائقة على التعلم ونقل هذه الخبرات إلى الأجيال اللاحقة بواسطة الرموز وأولها اللغة.

فاللغة كانت أداة الرسالات السماوية، والمذاهب الدنيوية والمعاملات الإنسانية حتى شتى درجاتها ومستوياتها، إنها العملة الأبدية الأزلية المتداولة بين الناس جميعا، وإذا كانت الآية تقول: وخلقنا من الماء كل شيء حي فاللغة خلقت من الحضارات والفنون والعلوم كل شيء حي، اللغة أقامت حضارات وماتت مع حضارات، وملأت صفحات سعتها بالقرون.[114]

ورموز كل جماعات إنسانية، تعكس نمط حياتها ,أساليب سلوكياتها وأفكارها وآرائها ويقول ماكيفر وبيج في كتابهما المجتمع بأن الرموز[115] هي تمثيل لمعنى من المعاني أو قيمة من القيم والرمز علامة خارجية أو إيماءة تنقل عن طريق التداعي، فكرة أو تستشير شعورا وأي اتصال يحدث بين الأشخاص، سواء كان عن طريق

---

[113] عاطف وصفي،الأنثربولوجيا الثقافية،بيروت، دار النهصة العربية للطباعة و النشر 1983،ص70

[114] أحمد بهاء الدين، اللغة العربية حين نريدها سلاحا سياسيا واستراتيجيا وحضريا، العربي العدد 278 الصادر بتاريخ يناير 1982، الصفحة 07.

[115] ماكيفر وبيج، المرجع السابق الصفحة 304.

اللغة أم عن طريق آخر غيرها، لابد أن يستخدم الرموز، ومن النادر أن يستطيع المجتمع أن يعيش بدونها.

وإلى جانب الرموز اللغوية، يمكن ذكر رموز أخرى كالخواتم التي تقدم في الخطبة، الشارات التي تعلق علة ملابس العمال، الحركات الاصطلاحية المختلفة أسلوب كتابة براي وحركات الصم والبكم، وغيرها مما يعطي لأعضاء الجماعة إحساس بالانتماء والتماسك داخل وحدتهم الجماعية.

ج- الاحتفالات العامة:

ينظر إلى الاحتفال العام منذ القدم على اعتبار كونه وسيلة فعالة لتأييد النظام الاجتماعي.

والشعائر هي أهم ما يميز الاحتفال الرسمي العام الذي يحضره جماعة من الناس وكثيرا ما تعتبر الشعائر والاحتفال المصاحب لها شيئا واحدا ومع ذلك فالاحتفال شيء أعم وأشمل تتدرج تحته الشعائر، وهو عبارة عن إجراءات مقررة ذات طبيعة تتصف بالرسمية والوقار، الغرض منها تعيين أهمية الحادثة والمناسبة فهو الرابطة التي تجمع شتات الجماهير، وإذا انحلت هذه الرابطة لفرقت الجماهير وصارت أمورها مضطربة[116] ويقول مصطفى الخشاب عنها أنها:[117] «في جوهرها عبارة عن عادات جماعية مورست في مناسبات مختلفة، وارتبطت بعواطف وطنية

---

[116] ماكفيير وبيج، المرجع السابق، الصفحة 299-300.

[117] مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه الكتاب الثاني، المدخل إلى علم الاجتماع، القاهرة، مطبعة لجنة العهد العربي، 1962، الصفحة 213.

وقومية، وتبلورت حول معاني وقيم وأحداث لا يمكن الأفراد أن يعزلوا أفكارهم ومشاعرهم عن التغني بها وتذاكرها في مناسباتها الدورية».

هذا بالإضافة إلى وسائل أخرى، تساند بها الجماعات تقاليدها وقيمها وهي:

1 المعتقدات الشعبية التي يشعر الأفراد بأنها ضرورية في حياتهم وعليهم الأخذ بها، كالاعتقاد بأن أكل العروس لقلب أو كبد أو رأس الماشية التي تذبح في عرسها يجلب الشؤم أو لبسها لملابس عروس أخرى يعتبر فال سيء أو دخول عروس أخرى على بيتها يجلب لها النحس ومن الاعتقادات الشائعة في منطقة سيدي بلعباس، هو أن يقتني صاحب المسكن سلحفاة يقوم بتربيتها لتجلب له الرزق، وعندما يضيع الشيء في البيت تعلق ربة البيت مقصا في الباب حتى تجد الشيء المفقود، أو نشر البخور والحنة والجاوي والسكر في أركان البيت الجديد وخاصة عند عتبته، حتى يعيش صاحب البيت وساكنوه من الجن في سلام ولا يتعدى الجان على سكان البيت الإنسيين، او رمي العروس بالسكر ليلة زفافها، حتى تعيش حياة هنيئة، وغيرها كثير من الاعتقادات السارية والتي يوضع لها أكثر من اعتبار في هذه المناسبات.

2 الأمثال الشعبية "فهي خلاصة تجارب كل قوم ومحصول خبرتهم، وهي ضرب من ضروب التعبير عما تزخر به النفس من علم وخبرة وحقائق واقعية

يتناقلها الناس جيلا بعد جيل"[118] ولم يصبها الزمان ببلي حتى وصلت إلينا مختومة بخاتم تلك الأجيال أو محفوفة بهالة من الغموض .

وقد انتقى الزمان هذه الأقوال المأثورة ووضع لها أساطير ارتبطت بها وما بقي منها ولم يزل فإنه لا يزال قويا جذابا على الرغم مما أصابه الدهر ومرور السنين إنها جواهر قد حفظت من التلف باندساسها في ذاكرة الأجيال المتتالية وهي كنز ثقافي ذو قيمة كبيرة تتراءى فيها الملامح الخاصة بكل قوم، وذلك لأنها وليدة لظروف معينة وبالتالي وليدة التاريخ والجغرافية والمناخ والتربية.[119]

3 الأساطير وقد سبق وأن شرحنا معناها وأهميتها بالنسبة للبدائي على الخصوص

4 الأغاني والفلكلور

الفلكلور هو مجموعة الفنون القديمة والقصص والحكايات والأساطير المحصورة بمجموعة سكانية معينة في أي بلد من البلاد. ويتم نقل المعرفة المتعلقة بالفلكلور من جيل إلى جيل عن طريق الرواية الشفهية غالبا وقد يقوم كل جيل بإضافة أشياء جديدة أو حذف أشياء لتتوافق في النهاية مع واقع حياته التي يعايشها وهذا الإبداع ليس من صنع فرد ولكنه نتاج الجماعة الإنسانية ككل في مجتمع ما.

---

[118] د. أحمد بن نعمان، سمات الشخصية الجزائرية، من منظور الأنتروبولوجيا النفسية الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، الصفحة 336.

[119] قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة: عبد الرحمان حاج صالح، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1987، الصفحة 4-5.

أصل تسمية فلكلور جاء من اللغة الألمانية (Volkskunde)[120] ومعناها بالعربية (علم الشعوب) وكلمة فلكلور يقابلها باللغة العربية (التراث) وهو إرثنا عن أسلافنا من الثقافة.

ظهر المصطلح الإنجليزي فولكلور عام 1846 حيث استخدمه لأول مرة عالم الأثريات الإنجليزي سيرجون وليام تومز حيث كان مستكملا ومحددا به الجهود العلمية والقومية التي سبقته في إنجلترا وألمانيا وفنلندا وغيرها من بلدان أوروبا وقد شاع مصطلح فولكلور بعد ذلك بمعنى حكمة الشعب ومأثوراته كمصطلح يدل على موضوعات الإبداع الشعبي ثم تطورت وتقدمت مناهج علم الفولكلور و إتسع مجال بحثه ليشمل مختلف أوجه النشاط الخلاق للإنسان في بيئته وارتباطه بالثقافة الإنسانية ككل.

بدأت عملية تعريف الفلكلور وتوثيقه في القرنين التاسع عشر والعشرين، بعد أن ظهرت مجموعة من التخصصات والأبحاث الإنسانية التي أهتمت بالفلكلور كعامل مهم في ثقافة الشعوب.

2-العرف:

العرف لغة ضد النكرة، والاسم من الاعتراف بمعنى الإقرار، وهو ما استقر في النفوس من جهة شهادات العقول وتلقته الطباع السلمية بالقبول [121] والأعراف هي

[120]Georges, Robert A., Michael Owens Jones, "Folkloristics: An Introduction," pp.313 Indiana University Press, 1995

[121] المنجد في اللغة والإعلام، المصدر السابق، الصفحة 500.

مجموعة النماذج الكلاسيكية التي يجب الالتزام بها من قبل أفراد المجتمع لما لها من أهمية تقليدية واجتماعية بالغة، والوقوف ضد التعاليم الأساسية للأعراف يستلزم العقاب الصارم الذي يفرض على المخالفين، ذلك العقاب الذي يشتق من العادات والتقاليد أو الرأي العام، وتغير الأعراف يحتاج وقتا طويلا غير أن أهميتها تتجلى في المحافظة على صورة وشكلية النظام الاجتماعي.

وكما جاء تعريفه في المعجم الفلسفي،[122] «فهو قسمان، عرف عام، وعرف خاص، أما العارف العام فهو مجموع العوائد والتقاليد العامة المنتشرة في المجتمع، وأما العرف الخاص فهو مجموع ما تعوده الفرد من أنماط السلوك، والعرف مرادف للعادة، إلا أن القدماء يفرقون بينهما بقولهم أن استعمال العادة في الأفعال والعرف في الأقوال أما المحدثون من الفلاسفة الغربيين فيفرقون بينهم بقولهم أن العرف خارجي والعادة داخلية وخارجية معا، ولذلك قال بعضهم، العرف لا يثبت إلا بالتكرار على حين أن العادة قد تثبت بمرة».

وعموما فيختلف العرف عن التقاليد من حيث درجة إلزامه وانتشاره وشموله وعموميته، فالتقاليد عادات تهم جماعة أو فئة أو طبقة، بينما العرف هو عادات في مصلحة الجماعات كلها متلاقية فهو في شموله وإلزامه أقرب إلى القانون منه إلى التقاليد، وبالإضافة للتوضيحات التي سبق وأن ذكرتها حول العرف والفروق بينه وبين العادات الاتفاقية والسنن وغيرها من مظاهر العادات الاجتماعية عموما، نذكر هنا ما قاله "سمنر" في بحثه الشهير "الطرق الشعبية" واصف إياه: «إن أهم حقيقة

[122] المعجم الفلسفي، المصدر السابق، الصفحة 71.

في العرف هي سيطرته وسلطانه على الفرد فهو يستقبله منذ نعومة أظافره، فيزوده "برصيد" مدخر من الأفكار والآراء والآداب والأذواق ويأخذ بيده ليسير في طرق محدودة، مرسومة تبين كيف يكون السلوك الفكري والعلمي، والعرف يقدم للفرد قواعد الأخلاق وقوانين السلوك ويطلعه على نموذج الرجل كما يجب أن يكون ويشكله في القالب الذي يحقق هذا النموذج بالرغم منه ودون أن يعلم عن ذلك شيئا، ومن يخضع للعرف فإنه يحضى برضا المجتمع أما من يقاومه ويخالفه فلا يقابل إلا بالنبذ والاحتقار والإغفال وبإجراءات أخرى قاسية وصارمة».

وإذا كانت للعرف هته القوة والصلابة والثبات والهيبة والقدسية، فلأنه ينحدر من الماضي ويحمل في طياته صفات الصواب والحق، ولعل هذه السمات هي التي جعلت باجوت يطلق عبارة Cake of Custom على العرف والتي عربتها "د. فوزية دياب" بعبارة قرص العرف، هذا القرص الذي يزيد جمودا وصلابة، مع مرور الزمن هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذه السمات أيضا هي التي تحميه من التفكير النقدي والتحليل المنطقي، لأن العرف ينشأ في الغالب نشأة غير منطقية.

ويرى بعض الأنثروبولوجيين من أمثال "مالينفسكي" و"سابير" و"روث بنديكت" و"رالي" بأن القبائل البدائية لا تعترف بحق الفرد في أن ينتقد العرف، الذي ولد فوجد نفسه يعيش تحت سيطرته فتقول "روث بنديكت" عن سلوكات البدائيين بأنها آلية، تحددها الأعراف.[123]

[123] Ruth Benedict, Ibid, Page 05.

ويضيف "سابير" بأن للأعراف قوة كبيرة وصلابة في المجتمعات البدائية مما لها في المجتمعات المتحضرة، ففي المجتمعات البدائية تكتسب الأعراف قوتها نظرا لصفة القداسة التي تكتسبها من الممارسات السحرية والدينية.[124]

وهذا ما يجعل العرف يقوم مقام القانون الوضعي في المجتمع البدائي، فيرى "سيدني هارتلند" في مؤلفه "Primitive Law" [125] «بأن نواة التشريع في المجتمعات البدائية تقوم على سلسلة من المحرمات وأن مجمل القوانين البدائية أساسها المحظورات».

وفي كثير من دول العالم يشكل العرف أهم مصدر للتشريع بالنسبة للقانون الوضعي، وهذا نظرا للأهمية التي يكتسبها العرف في حياة الفرد داخل المجتمع، وهذا ما كان معمول به حتى في العصور التي خلت، فإذا ما عدنا إلى تاريخ الاجتهاد، في تفسير أحكام الشريعة الإسلامية نجد الشافعي مثلا، وغيره كثير من الأئمة المجتهدين، قد استندوا في فتواتهم وتفسيراتهم إلى العادات والأعراف السائدة في الجماعات التي كانوا يعيشون فيها.

ومن الأعراف ما هي، حتمية وهي السنن الاجتماعية وهي كما عرفها "بانونزيو" " Panunzio"،[126] «اصطلاح يطلق على الممارسات والقواعد التي تحكم أساسا النشاطات المتعلقة بمنح الحياة للفرد أو سلبها منه»، وبعبارة أخرى هي اصطلاح يطلق على تلك العادات التي يجب أن تطاع لأنها تعد بكل تأكيد جوهرية

---

[124] Edward Sapir, ibid, Page 116.
[125] Malinowski, ibid, Page 42.
[126] نقلا عن د. فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 202.

لصالح المجتمع والسنن تتضمن التعميمات الفلسفية والأخلاقية، والعقائد والآراء، والقواعد والمعايير الخاصة بصالح الجماعة ورفاهيتها وتحمل السنن معنى "صواب" و"خطأ" و"حلال" و"حرام" و"حق" و"واجب"، وهي تصنف وتقرر بدقة وصرامة، الطرق الواجب إتباعها في العلاقات الاجتماعية ولهذا فهي أكثر الممارسات دوما، وهي تأخذ شكل المحرمات والأمثال والحكم، والنكت، والفلسفات والمكتوبات المقدسة وتنتقل السنن من جيل إلى جيل بالمحاكاة وغرس العقائد والتخويف وهي تمتاز بالاستمرار والدوام.[127]

ومن بين هذه الأشكال نجد المحرمات أو المحظورات أو النواهي المقدسة، وهي كلمة بولنزية تتصل بعقائد الشعوب البدائية، وتعبر عن جميع الأشياء التي يحرم إتيانها لدرء غضب الآلهة ونقمتهم، وهي كما يقول "كمبل ينج" " Kimball Young" [128] أوامر في صيغة النهي، وقيود موضوعة على العمل والسلوك، نواه تنهي بها الجماعة أما "كنزلي ديفز" فيرى أن المحرمات أنواع من العرف أو السنن يتخذ التعبير عنها شكلا سلبيا، وأنها قواعد تنص على ما يجب تجنبه وقد رأينا أعلاه كيف اعتبر "هارتلند"، بأن الطابوهات هي روح القانون في المجتمعات البدائية، وهذا لما لها من أهمية.

العادات المستحدثة:

[127] نفس المرجع السابق، الصفحة 204.

[128] المرجع السابق، الصفحة 205.

يقصد بالعادات المستحدثة ما يقره المجتمع من تغير متتابع يتصل بأحد موضوعات العادات الجمعية وتحدث تغيرات العادة المستحدثة في صورة تتابع منتظم في الغالب أو "دورة العادة المستحدثة" كما تسمى أحيانا.

ويقع تأثير العادة المستحدثة في جوانب العامل الثقافي التي يعتبرها المجتمع غير ذات أهمية نسبية فيما يتعلق بالقيم الرئيسية، وتتصل العادة المستحدثة بأمور مثل الآراء والمعتقدات والتسلية واللباس والزينة بجميع أنواعها وزخرفة المنزل والأثاث وطريقة التحدث والموسيقى الشعبية والأدب والفن.[129]

وإذا أردنا أن نضرب لذلك أمثلة، نذكر طرق الاحتفال عندنا بالزفاف، حيث كانت حفلة العرس تدوم في سنوات مضت مدة خمسة إلى سبعة أيام، يلتقي فيها أفراد العائلة يحضرون فيها ليوم ذهاب العروس، إلى بيت زوجها وتنصب الخيمة أمام المنزل، لتقديم الطعام والحلوى للمدعوين وحتى لعابري السبيل، في حين أخذت تقتصر نفس هذه الحفلات، في أيامنا هذه على إقامة يوم للمدعوين وتنظيم الحفلات في الصالات المخصصة لهذا الغرض، ومن أدوات تجميل العروس في الماضي الحناء، غير أن موضات التجميل اليوم، تجعل الفتيات يرفضن ذلك، ويذهبن إلى متخصصات التجميل العصري.

وقد ميزت "فوزية دياب"، في كتابها القيم والعادات الاجتماعية بين أشكال العادات المستحدثة، فتقول: «نقصد بالعادات المستحدثة كل ما يستجد في المجتمع

[129] مكيفر وبايج، المرجع السابق، الصفحة 359.

من ممارسات أو استعمالات اجتماعية سواء في شكل موضات أو بدع أو نزوات أي تقاليع، وهناك من يستعمل لفظ موضات استعمالا يشمل البدع والنزوات أي التقاليع دون تمييز بينها ولكننا لو توخينا الدقة لاستطعنا أن نفرق بينها، فالموضات هي الممارسات الجديدة التي تستسيغها الجماعة وتتقبلها فتنتشر بين كثير من الأفراد والموضات هي عادات لا تتصف بالاستقرار والدوام، فهي في الغالب قصيرة الأجل سريعة الزوال وبعد فنائها، تتلوها موضات أخرى أما البدع فهي ممارسات جديدة شبيهة بالموضات، ويمكن أن نعدها موضات مبالغا فيها، ولذلك فالبدع أضيق انتشارا بين الناس، وأقل جاذبية لها عن الموضات، والبدع تتضح بصفة خاصة في طريقة الكلام، وشكل الملبس، وطرق التزيين وأساليب الترويج من غناء ورقص، وموسيقى وهلم جرا، أمنا النزوات أي التقاليع، فهي ممارسات مستحدثة تشبه الموضات والبدع، غير أنها تختلف عنها في المبالغة الزائدة عن حد المستطاع والقبول، ولذا فهي تتسم بطابع الهوس والهستيرية الذين ينفران غالبية الناس منها وممن يمارسونها وهذا فإن من يمارسونها يبدون دائما متصفين بالحماقة والتوتر والاندفاع والرعونة والخروج عن المألوف».[130]

وجعل كثير من علماء الاجتماع من العادة المستحدثة ضدا للعادة الجمعية، وقد اعتبر "هربرت سبنسر" العادة المستحدثة أداة للمحافظة على مستوى العادة الجمعية تثبت حينما تضعف العادة الجمعية، وعرف "غابريل تارد" العادة المستحدثة

[130] فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 217-218.

بأنها "تقليد المعاصرين" وأقامها كضد للعادة الجمعية واصفا إياها بأنها "تقليد الأسلاف أو الموتى".[131]

بينما توغل "سابير" أعمق من ذلك في دراسة الموضة، حيث تطرق للعامل النفسي لدى الإنسان، والذي جعل الفرد العادي، بحكم تطلعه للتحرر من قبضة العرف المسيطرة عليه، يتبع الموضات الجديدة للتنفيس والترويج على نفسه وذلك بشكل شعوري أو لاشعوري، فهي تضفي على خروجنا عن العرف نوع من الشرعية والقبول الاجتماعي.

وأضاف بأنه بحكم الحاجة الاجتماعية للموضة، فقد تتحول هذه الأخيرة إلى عرف.[132]

إن الموضة تستمد قوتها من التقليد أو العرف، ولكن قد يحدث أن تستمر إحداها ويكتب لها البقاء وقد تصبح عرفا.

إن الموضة شيء آخر غير تجديد مؤقت في العرف ففي تاريخ الإنسان، يعتبر دوما التجديد وليد الحاجة للشيء المجدد.

---

[131] ماكيفر وبيج، المرجع السابق، الصفحة 359.

[132] Edward Sapir, ibid, Page 107.

الفصل الثالث: معطيات ثقافية و حضارية عن المجتمع الجزائري

توطئة

إن ما ذكرناه أنفا عن التصورات النظرية للعائلة وتطورها ونظام القرابة والرباط الاجتماعي، إنما لتشكل أسسا نظرية تسهل علينا فيما بعد ولوج الفصل الخاص بخصوصيات المجتمع الجزائري حيث لابد للقارئ الكريم، الذي يقوده الفضول لمعرفة أشياء أكثر عن هذه الدراسة، من امتلاك بعض المعارف الأساسية التي تسمح له بالتجوال في مثل هذا الفضاء المعرفي، مع إمكانية الاستفادة.

وقد ارتأينا التطرف في هذا الفصل إلى النقاط التالية:

معطيات ثقافية وحضارية عن المجتمع الجزائري أي أهم ما يميزه عن باقي المجتمعات و هذا من خلال التطرق للمباحث التالية :

المبحث الأول :العائلة في المجتمع الجزائري بين الماضي و الحاضر

المبحث الثاني : مكانة العادات والتقاليد في المجتمع الجزائري

المبحث الثالث: الاعتقادات و بعض التمثلات الثقافية والاجتماعية التي تفيد موضوع لدراسة .

المبحث الأول: العائلة في المجتمع الجزائري بين الماضي و الحاضر

في دراستنا هذه كان لابد لنا من التطرق للعائلة كبنية ذات وزن في المجتمع الجزائري ذلك أنها وبامتياز البعد الأمثل –الذي تجب دراسته والتدقيق فيه– باعتبارها الوعاء الحاوي والناقل لكل من هو مادي وما هو ثقافي وروحي في المجتمع، فهي الخلية الأساسية والعمود الفقري لكل المجتمعات، وهي تلك المؤسسة التي تعمل على تسيير العلاقات ما بين الأجيال.[133]و هي حجر الزاوية و الوتر الحساس الذي تتجلى فيه كل آثار التغيير التي تطرأ على المجتمعات،و إذا ما أردنا تسليط الضوء على العائلة الجزائرية من حيث هي عائلة عربية فيمكننا الاستعانة بتلك الأوصاف التي حددها وليم كوود William Goode في كتابه "ثورة العالم ونماذج العائلة" [134] حيث قال : العائلة العربية التقليدية هي عائلة ممتدة كبيرة الحجم وتسكن في بيت واحد. ولا توجد في هذه العائلة حالات طلاق تذكر لعدم اعتقادها بنظام الطلاق وممارستها لنظام تعدد الزوجات، واتسمت هذه العائلة بكبر حجمها. وكان الأب أو الجد يتولى مسؤولية العائلة إذ يشرف على مهنتها ويسيطر على ممتلكاتها وغالبا ما يوزع أموالها على أفرادها بطريقة عادلة تؤمن متطلباتهم وحاجاتهم اليومية، أما الإخوان فيعيشون عادة سوية بهدوء وسلام، غير أن أكبرهم سنا يتمتع بقوة وسلطة أعلى من تلك التي يتمتع بها الإخوان الآخرون، وبعد وفاة الأب أو الجد الكبير يتولى الابن الكبير قيادة العائلة وتحمل مسؤولياتها المادية

---

[133] د. حمدوش رشيد، مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة، امتدادية أم قطيعة؟ (دراسة ميدانية: مدينة الجزائر نموذجا توضيحيا)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2009.

[134] Goode W.J. World Revolution and family Patterns, the free Press of glean coe, 1963, P 123.

والتربوية والاجتماعية، إلا أن علاقاته مع إخواته تبقى طيبة وقوية ومعتمدة على مبدأ الإخاء والمساواة والديمقرطية. إن هذه الصفات التي تميز العائلة العربية التقليدية تمس ربما بعموميتها كل الأقطار مع مراعاة بعد الفوارق الخاصة بكل بلد وقف عاداته وتقاليده.

كما تتميز العائلة العربية التقليدية بصفة الانحدار الأبوي فالأطفال ينحدرون من خط أبيهم وليس من خط أمهم، أي يأخذون اسم الأب ويتسمون به ويعلنون الولاء له، كما تكون الوراثة أبوية أي تمرر الملكية من الأجداد إلى الآباء ومن الآباء إلى الأبناء.

أما الأعمال المنزلية التي تحتاجها العائلة كالتنظيف والطهي والخياطة والعناية بالأطفال والعناية بشؤون ومتطلبات البيت تعطى للنساء والبنات، والرجال لا يقدمون المساعدة لنسائهم في إدارة الأعمال المنزلية لأنهم يعتقدون بأن أعمال البيت هذه لا تليق بهم [135] وهذا الاعتقاد مصدره طبيعة المنزلة الاجتماعية العالية التي يتمتع بها الرجال والمنزلة الاجتماعية الواطئة التي تشغلها النساء في المجتمع التقليدي.

وتتولى نساء العائلة الممتدة كالحفيدات والزوجات والبنات مسؤولية تنشئة الأطفال ورعايتهم، ومع هذا فقد كان الرجال يشرفون على عمليات التنشئة الاجتماعية خصوصا فيما يتعلق بالقضايا الدينية والأخلاقية والاجتماعية.

ولتوضيح أكثر، يمكن إجمال وظائف العائلة الممتدة التقليدية فيما يلي:

[135] احسان محمد الحسن،المرجع السابق،ص...

- أما الوظيفة الأولى فهي اقتصادية وتخص وحدة الإنتاج في الوسط الريفي خاصة
- أما الوظيفة الثانية، فهي ذات طابع اجتماعي ،فهي تزود الفرد بمجال حياتي، بحيث تعمل الأسرة على توفير التربية والأمن للفرد، في حين يعمل هذا الأخير بالمقابل على إظهار تضامنه تجاه الأسرة.
- أما الوظيفة الثالثة والمتمثلة في الوظيفة الأخلاقية فالأسرة كانت مطالبة بالحفاظ والمحافظة على التقاليد الأسرية والدينية وذلك من خلال عملية التنشئة الاجتماعية.[136]

إن هذه الخصائص التي تتميز بها العائلة العربية تصدق أيضا على العائلة في المجتمع الجزائري باعتبار قيامها على ذات المرجعيات و انتمائها إلى ذات البيئة الثقافية و الحضارية كما أنها تعرضت لنفس الحراكات الاجتماعية و السياسية و الثقافية بحكم موقعها الجغرافي فقاسمت باقي الجماعات المحلية المحيطة بها نفس الظروف الحياتية باعتبار عاملي التأثير و التأثر ،ومع هذا فهناك خصوصيات فرضتها الأحداث الداخلية لكل بلد و التي طبعت المجتمعات بفروقات لابد من الإشارة إليها فيما يخص الجزائر موضوع دراستنا.

إن انتماء الجزائر إلى النسب العربي أو البربري يحيل إلى البداوة في كلتا الحالتين [137]وثقافة السلف بدوية و رعوية و زراعية و هو ما جعل التمركزات السكنية

---

[136] د. حمدوش رشيد ،لمرجع السابق ص 251

[137] عشراتي سليمات،الشخصية الجزائرية الأرضية التاريخية و المحددات الحضارية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 2002 ص169

منذ القدم تلتف و تتوطن في الريف حيث كان مكان اشتغالها و ظلت على هذا العهد لمدد زمنية طويلة قبل أن يدركها التمدن و اعمار مناطق حضرية جديدة و قد طبعت الروح القبلية تاريخنا و مدننا و ألبستنا و معاشنا و اجتماعنا و ما زالت الأحياء التي تنشأ في المدن تتراص و تتكتل وفق انتماءات قبلية الأمر الذي جعل العقل الجزائري يتطور على مسلمة الدولة القبلية [138].

لقد تبلور التغيير و ظهرت ملامحه على تركيبة العائلة الجزائرية على مر التاريخ و عبر فترات متلاحقة من الزمن ،و بفعل عوامل عديدة ومختلفة منها ما هو اقتصادي ومنها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي عالمي نعيشه الآن وكل هذا تم وقت سيرورة زمنية زادت هذه الاختلالات عمقا بمرور الوقت، فميلاد الأسرة النووية، كان بداية بسبب المستعمر الذي استولى على أراضي الفلاح الجزائري، وكل ما انجر من تخلخل للبنيات التحتية للمجتمع الجزائري، و تفتيت النظام العشائري السائد و كل القيم التي كانت ترافقه[139] عزل الناس عن أسباب رزقهم و تفقيرهم، و مع ذلك استمرت العائلة الأبوية في الوسط الريفي مختلقة ظروف حياتية جديدة في أشكال متدهورة باعادة التموقع في محيط اقتصادي و اجتماعي مختلف [140] وهو ما دفعهم غداة الاستقلال إلى النزوح الريفي و إعادة تموضع جديد في فضاءات جديدة و حاملة لقيم جديدة غريبة عن الجزائري ، ثم في مرحلة لاحقة و تطلعا لتنمية اجتماعية تبنت الدولة الحديثة الاستقلال سلسلة من المخططات وإستراتيجية تنموية

---

[138] نفس المرجع السابق،ص 185

[139] Lahouari addi, les mutations de la société algerienne,famille et lien social dans l'algerie contemporaine,édition la découverte ,paris,1999 p 18.

[140] Ibid, p 18

، وثورات صناعية و زراعية في أوساط السبعينات تجلت آثارهما في نزوح ريفي مكثف ، بحثا عن العمل الذي كان يفتقد له أكثر أهل الريف، و بالتالي خلخلة أخرى للبنى العائلية التقليدية حيث أدت هذه العملية إلى إفراغ الأرياف من سكانها، على الرغم من أن التركيبة الأسرية لم تتأثر كثيرا، بحيث كان يميل أكثر هؤلاء "النازحون" إلى إعادة تشكيل أسرهم عن طريق إقامة تجمعات سكانية على شاكلة ما كانت عليه الأحوال في الأرياف أي مع مراعات الرباطات الاجتماعية الموجودة ، ولكن هذا التكيف والمقاومة رافقاه أيضا أنواع أخرى ومستويات مختلفة من العثرات التي واجهت العائلة الجزائرية، و من هذه العثرات الانسلاخ الذي تعرض له سكان الأرياف بنزوحهم نحو المدن و الذي لم يستشعر في حينه فكما قال ابن خلدون عن التغيير[141] "انه داء دوي شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة وله، فلا يكاد يتفطن له الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم، وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال " فالتغيير طبع كل ضروب الحياة في يومياتها و في أدق تفاصيلها و حري بنا هنا الإشارة إلى ما قاله الهواري عدي عن الفرق ما بين التغيير الاجتماعي و التحول الاجتماعي مشيرا إلى ما حدث في الجزائر أثناء الاستعمار و بعده فيقول :" الحقيقة أن أي مجتمع يتلقى تحولات ،يسعى للحفاظ على معاييره و قيمه الثقافية و الاديولوجية فإننا عندما نكون في حالة تغيير اجتماعي ، يكون الوقت كاف للقيم و المعايير للتأقلم أو التكيف و إعادة التموقع وفق بنيات جديدة

[141] نقلا عن فوزية دياب، المرجع السابق، الصفحة 160.

فالتغيير الاجتماعي ليس اختفاء للقديم و إخمادا للتقاليد[142] ...فالتغيير عندما تكون أسبابه داخلية يترجم عبر تكييف النظام السسيو ثقافي للتبدلات الحاصلة كالتصنيع و العمران و التبادل الاقتصادي عكس حالات التحول الاجتماعي حيث تصبح القيم الثقافية و الاديولوجية محل مساءلة و بعنف من الخارج فان ردة الفعل وفق سيرورة تجعل العادة أو طرق العيش التقليدية عامة تتصلب و تتجذر ..و هذا ما جعل بعض الملاحظين الاجتماعيين ينظرون للعائلة الجزائرية على أنها مجالا و فضاء للمحافظة "الأركيولوجية" للروابط الاجتماعية، وحماية القيم، وذلك أن كل تلك الاعتداءات والتهديدات الاستعمارية التي تعاقبت على المجتمع الجزائري، لم تترك لها مجالا آخر لاعتماد استراتيجيات أخرى غير تلك التي اعتمدتها أي المحافظة، فأمام هيمنة الآخر، بطريقة عيشه و ثقافته وكل ما يشير إلى كل ما هو حداثي عملت الأسرة في المجتمع الجزائري على التقوقع والانطواء على نفسها، وحفظت على قيمها محافظة جيدة، بما في ذلك العلاقات الذاتية الفردية وقدرتها الضبطية.[143]

لقد ذكر لنا الهواري عدي مثالا واضحا يبرز من خلاله آثار الاجتثاث الثقافي الذي عايشه المنحدرين من الأرياف و المضطرون لمغادرتها و ذلك لفهم ما طرأ على العائلة من تغيير حيث يقول[144]:لفهم التغير الذي حدث يمكننا تأمل هذا الجزائري في 1980عمره ستون سنة و أمضى جزءا من حياته في قريته الصغيرة و أراد غداة الاستقلال دخول المدينة للاستقرار فيها و تعود على نظام حياتي جديد

---

[142] Lahouari addi, op cit p18

[143] حمدوش رشيد ، المرجع السابق، الصفحة 269-270.

[144] Lahouari addi,op cit,pp18-19

مضطرا و لكنه يشعر أنه يعيش في عالم آخر ،عالم يفقد كليا السيطرة عليه،يتقاسم السكن مع ابنه المتزوج مع كل الإزعاج الذي يشعر عندما يشاهد التلفزيون أو يتناول وجباته في حضور ابنه و زوجة ابنه ،هو في زمانه كانت الحرمة * و هي كلمة مشتقة غالبا من المحارم أو الحريم و مدلولها الاجتماعي المتفق عليه هي عدم سفور المرأة و اترامها لقواعد الجماعة المتفق عليها و التي وضعها غالبا الرجال لحماية حريمهم أي نساءهم من نظرات الغرب اليهم تجعله لا يواجه أبدا والده و هو برفقة زوجته، و هو حائر أمام ما يحدث أمامه اليوم بدون أن يعبر عن حيرته فالظروف ليست في صالحه ، وحائر أكثر كيف أن زوجة ابنه ، تقوم بتعرية أطفالها أمامه لتلبسهم ثيابهم و كيف أنها تأخذ البريد من ساعي البريد بيدها و كيف يتعالى صوتها و الكهربائي أو السباك في بيتها و كيف لا تتردد في مشاهدة التلفزيون و ما يبثه من مسلسلات تروي قصص الحب دون حياء (..) فالجيل الذي ولد في العشرينات أو الثلاثينات من القرن المنصرم حيث كان الرجال يعيشون جنبا الى جنب مع النساء دون التقاء نظراتهم قد ولى و اندثر و بالنسبة للبقية المتبقية منهم فالجيل الجديد فاقد للقمنة* هي ما يمكن التعبير عنه لغة بادراك معنى القيم الاجتماعية السائدة في جماعة ما و متفق عليها و يجب التقيد بها .

إن مقاربة كهذه نفسية اجتماعية جد دقيقة لإبراز الآثار النفسية التي أحدثها التغيير الطارئ على البنيات الأساسية للمجتمع الجزائري و تجب الإشارة إلى أن حلقات النزوح بهذه الكثافة لم تنتهي عند هذا الحد ذالك أن الجزائر كانت ستعرف فيما بعد عشرية أخرى وصفت بأنها دموية و سوداء ذلك الانجراف السياسي و ما

عقبه من أحداث جراء الثامن من أكتوبر 1988 أدى هو الآخر إلى إفراغ الأرياف و القرى و المناطق النائية التي كانت معاقل النشاطات الزراعية من سكانها مع كل ما رافق ذلك من آثار عرفتها المراكز الحضرية تراوحت ما بين ظهور للبيوت القصديرية أو اعمار مرتجل جعلنا نحضر ، وباستمرار إلى حالة نصف–حضرية لم تكتمل بعد على حد تعبير مصطفى لشرف[145] وضعيات مثل هذه جعلت الكثيرين يتحدثون عن المدن المريفة ويبحثون في سلوكيات هؤلاء الحضرين الجدد.[146]

لقد تعددت النظريات المؤسسة لعلم الاجتماع العائلي، و لأننا اخترنا البنيوية الوظيفية منهجا في دراستنا هذه، يجب علينا ذكر وجهة نظر الوظيفيين الذين يحللون وظائف الهياكل والأدوار داخل الأسرة.

فالأسرة النووية حسبهم تكون قد ابتعدت وتخلت عن تلك الوظائف "التقليدية" للأسرة الممتدة، وأصبحت بذلك متخصصة ومهتمة أكثر بالدعم العاطفي والوجداني لأفرادها، مؤيدين بذلك فكر التمييز الجنسي للأدوار، ومن منزعمي هذا الاتجاه نجد تالكوت بارسونز.[147]

لقد أخذ نموذج العائلة النووية للخمسينات، كما وصفه بارسونز، قواعده وأسسه النظرية من التحضر والتصنيع التي عرفتها المجتمعات الصناعية، والتي يمكن القول بأنها السبب الرئيسي في إضعاف الروابط العائلية....

---

[145] Lacheraf M. Ecrits didactiques sur ka culture, l'histoire et la société, Alger, ENAP 1988, Page 316.

[146] Adam A. Les influences occidentales dans les villes maghrébines à l'époque contemporaine, France, Aix 1974, Page 09.

[147] حمدوش رشيد، المرجع السابق، الصفحة 240.

وأصبح التركيز على الرابط الزوجية، بحيث أصبحت هذه الأخيرة تشكل العمود الفقري لنظام القرابة، مما أدى إلى إعادة التركيز على العائلة النووية، و

وهذا ما يثبت مرة أخرى، أن الأسرة أو العائلة، مؤسسة تتميز بالتغير والديناميكية، وبأنها استطاعت أن تجتاز كل مرة التغيرات الاقتصادية الاجتماعية، بفضل ما تتمتع به من قوة تحمل ومقاومة وتكيف.[148]

إن العقد الأخير من الزمن حمل أيضا أسباب تغيير اقتصادية فتحت الأبواب واسعة لإعادة تشكل المشاهد اجتماعيا و ثقافيا فأمام ما أتاحته السياسة الاقتصادية للبلاد من فرص السكن (السكنات التساهمية ومختلف أشكال الحصول على سكن) والقروض البنكية، و هي ظروف أملتها ضرورات التفتح العالمي ومن جهة أخرى التفتح الإعلامي العالمي الذي يعيشه ويتلقاه العالم أكمل والذي جعل كل المجتمعات في نفس نقطة الانطلاق –في تقديرنا الخاص– حيث جعل كل النماذج الاجتماعية مهددة أمام الذوبان في نموذج موحد تمليه ظروف موحدة عالمية، كل هذه الظروف التي اختصرناها في أسطر لا تكفي لحصر نتائجها ومخلفاتها على الحياة الاجتماعية في كل جوانبها.

كل هذه التغيرات الطارئة على المجتمع الجزائري على غرار باقي المجتمعات العربية جعلت تلك الوثبة أكثر من حتمية اجتماعية والمتمثلة في الانتقال من صبغة

[148] حمدوش رشيد، المرجع السابق، الصفحة 254.

التجمعات المحلية إلى نمط مغاير وهو النمط التعاقدي de la société communautaire à la société sociétaire.[149]

إن التطرق لهذه التفاصيل في دراسة كهذه جد محوري إذ أن مكانة العادات والتقاليد الاجتماعية في نفوس الأفراد لا يمكن تناولها ابستومولوجيا نظريا يشكل محض، كما لا يمكن عزل العادات والتقاليد عن ذلك النسق العام الذي ألا وهو والمجتمع، فهي تؤثر ولكن أيضا تتأثر بهذا النسق، وما يهمنا في انتقالية المجتمع الجزائري الذي يجعل من المشهد الاجتماعي غير مكتمل بعد هو انعكاسات هذه التغيرات على البنى و التمثلات، والممارسات الاجتماعية والثقافية داخل المجتمع الجزائري ، و يدفعنا للتساءل عن مكانة التقاليد في المجتمع الجزائري اليوم.

المبحث الثاني: مكانة التقاليد في لمجتمع الجزائري

إن ما يؤكد عليه العدي الهواري في كتابه المذكور أعلاه أو حمدوش رشيد في دراسته الميدانية حول مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة، هو دوام في الوجود وتغير في مظاهر للسلطة الأبوية في المجتمع الجزائري، حتى وإن لم تعد بنفس الحدة، فالأسرة النووية حتى وإن انسلخت مجاليا عن الأسرة الممتدة، وانفصل الجيل المُؤَطَّرْ عن الجيل المُؤَطِّرْ ، فإنها لا تزال تعمد على إبقاء وتخليد عاداتها وتقاليدها، ويتم ذلك مثلا من خلال الجوانب الاحتفالية للعادات والتقاليد التي يسعى المجتمع الجزائري لإحيائها من خلال الاحتفالات الأسرية كالزواج والاحتفال بالخطبة

[149] Mostafa Boutefuouchet, la société algérienne en transition, OPU, 2004, Page 12-13.

أو ختان الأولاد إلخ، وهي كغيرها من الاحتفالات الدينية تجدد العش التضامني للانسجام العائلي...

وقد يفسر ذلك الاستمرار في إحياء كل هذه العادات والتقاليد من خلال حاجة الإنسان الغريزية للانتماء التي تحدث عنها إبراهام ماسلو[150] رائد مدرسة العلاقات الإنسانية في علم النفس وعلم الاجتماع كما أن مبدأ الفعل ورد الفعل جعل هذا الانفتاح العالمي الذي أخذ يجرف الجميع نحو الذوبان في نموذج إنساني موحد هو نفسه ما يجعل الناس يتشبثون أكثر من أي وقت مضى بخصوصياتهم الثقافية والهوياتية، و يمكننا أن نضع اليد على مكانة التقاليد والعادات الاجتماعية في المجتمع الجزائري من خلال ذكر بعض التمثلات التي تعتبر بمثابة القرائن الموضحة و التي سنجملها في عناصر ثلاثة بنفس الدرجة من الأهمية و على قدر من الارتباط ببعضهما البعض ،قبل أن نكتشف ما قد يزودنا به العمل الميداني من حقائق في هذا الشأن،و هما على التوالي :

1- الطبيعة الذكورية للمجتمع الجزائري

2_أهمية الإنجاب في المجتمع الجزائري

3_ مكانة المسنين أو الجيل المؤطر في المجتمع الجزائري.

مما لا ريب فيه أن مجتمع القبيلة هو مجتمع الذكورة والفحولة فالتوازنات تستند فيه على القوة والمنازعة، وإذا التفتنا إلى المحددات الثقافية والدينية للمجتمع

[150] كتاب الذي أعارتني اياه فطيمة

الجزائري، وجدنا الدين الإسلامي دين المجتمع، يرجح دور الذكر على الأنثى في سياقات كثيرة ولعلل مختلفة، واستسلم المجتمع لهذا الواقع المتوارث، الذي أنزل المرأة إلى درجة تتلاءم مع فيزيولوجيتها، أي دون رتبة الرجل، واعتبرها بحاجة إلى الحماية في ظروف الحمل والوضع، والتهدم الجسدي الباكر نسبيا، نتيجة تكرhرات الإنجاب المتلاحقة، قياسا بالرجل الذي طبيعته البيولوجية أكثر ملائمة لتحمل المشاق، ودفع المخاطر، ومن هنا تولدت القيم التي ظهرت في ضوئها المفاضلة بين جنس الذكر والأنثى وترسخت بين الطرفين محاكاة القيم كما تصورتها الأنثربولوجية الثقافية، القائمة على المكابدة والاضطلاع بأعباء البقاء، وهو ما يكرس الغلبة للذكورة على الأنوثة.[151]

وإن كانت نظرة القرآن مخالفة تماما لهذه النظرة، حيث نظر إليها الإسلام كمخلوق له قدرة أكبر على العطاء وتحمل الأعباء النفسية والعاطفية، بالنظر إلى خصوصيتها الفزيولوجية التي تؤهلها للإنجاب.

لكن التطور السلبي للحضارة الإسلامية، عمل على تكريس قوامة الذكر على الأنثى مطلقا، فكلمة الرجل في البيئة الجزائرية كلمة فوقية، تمارس حق الوطء على نحو ما يمارسه الرجل مع المرأة بلا معارضة، وحين تعلوا كلمة المرأة فإنها حتما تعرب عن شذوذ لا تقبله البيئة، ويكون الرجل قد تقهقر إلى وضع من المعرة لا يطاق.[152]

---

[151] عشراتي سليمان، المرجع السابق، الصفحة 211.

[152] عشراتي سليمان، المرجع السابق، الصفحة 217.

إن آثار هذه الروح الذكورية في المجتمع، تتجسد في دوافع خفية، على كل من لا يتفطن لنتائجها النفسية التي تركتها الاختلافات الجنسية في الضمير الاجتماعي، ولذلك تحولت القوامة من معاني التسامي العاطفي، ونكران الذات، إلى التباهي المادي، والتعالي الطبقي لدى الرجال، فانتقلت إلى عقلية الحريم، التي أوصدت المرأة في مكانة دونية وحولتها ثقافة القصور إلى كائن بافلوفي يترصد حاجاته الغريزية خفية.[153]

مما لا شك فيه أن الكثير من الرجال يسعون للحفاظ على مكانتهم في المجتمع، أمام المرأة، وحفاظا على امتيازاتهم المتوارثة منذ العهد القديم، فمنذ قرون والمرأة تعيش في ظل الرجل "منقادة" و"محمية"، والرجل ينظم ويسير ويحكم، حتى أصبح الأمر طبيعي، ومن الطبيعي أن ينتفض الرجل أمام أي تهديد لامتيازاته هذه.[154]

إن طبيعة المجتمعات العربية الذكورية، هي التي تفرض نوع من السلوكيات الاجتماعية المنتشرة والمتوارثة، والتي لسنا حديثي العهد بها، فتاريخيا، فإن نظام العائلة المنسوب للأب، قد تفرع عن نظام العشيرة والقبيلة، و أفرز ذلك ميل الإنسان إلى الإكثار من إنجاب الذكور على وجه الخصوص لدرء الأخطار المهددة و

[153] عشراتي سليمان، المرجع السابق، الصفحة 220.

[154] Fadela M’rabet : les algériennes ; cahiers libre 103, François Maspero, Paris, 1967.

حماية المصالح االمعاشية ، وتطورت هذه الميول، وزادها الطابع الاقتصادي حدة، وتشكلت أحكام القرابات والمحللات والمورثات والمواريث.[155]

وأعظم الأمم إتباعا لنظام العائلة الأبوية وأشدهم تمسكا بقواعده (لجنس السامي اليهود والعرب)، وهو ما يذكر في التوراة من حكومة الآباء، وحقوقهم على الزوجات والأولاد والعبيد والماشية، وحصر الإرث في الذكور، ثم توسع نظام العائلة الأبوية، حتى اشتمل القرابات من جهة الأب والأم معا.[156]

لقد كان للنسل عند الأمم القديمة شأن عظيم فشهرة الزوجة تقوم على عدد أولادها، وكلما كان ذلك العدد كبيرا، كان مقامها كبيرا في عين زوجها ،وقد دعى الإسلام، مثله مثل الأديان السماوية الأخرى إلى الزيادة في التوالد و التناسل لإعمار الأرض، ونشر كلمة الله، ولما كانت عملية نشر الدين تستلزم استشهاد بعضهم، عزز الإسلام المرأة الولود ومكانتها الاجتماعية، وإن كانت المجتمعات السابقة له كرمتها وأعطتها منزلة راقية.[157]

فالمجتمع في التصور الإسلامي يتكون من خلية أساسية هي الأسرة، التي تربط بين أعضائها رابطة القرابة الدموية، وتشكل مجموع الأسر الإسلامية نظاما آخر للقرابة، هو الأمة التي تربط بين أعضائها رابطة العقيدة، وهكذا يصبح الحرص

---

[155] عمر رضا كحالة، النسل-الجمال-جولة في ربوع التربية، ج 11-14، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984، ص 31.

[156] نفس المرجع السابق، الصفحة 42.

[157] عمر رضا كحالة، نفس المرجع السابق، الصفحة 107.

على الزواج المبكر والتناسل بمثابة وسيلة لمراقبة الطاقة الجنسية، ووضعها تحت تصرف الأمة قصد تقويتها عدديا.[158]

وفي هذا السياق يقول الهواري العدي ، أن الرباط الاجتماعي في الجزائر إنما هو قائم حول مسلمة مفادها أن المجتمع هو عبارة عن جماعة من الأفراد يتبادلون النساء من أجل التكاثر ولنقل أسمائهم ومفاخرهم إلى ذرية تجعل ذاكرتهم تستمر عبر التقاليد.[159]

إن ما يميز الثقافة الأبوية هو التصورالسلالي للفرد La conception généalogique de l'individu، تصور يعتمد على النظام العائلي، فالفرد ينتمي إلى الجماعة التي تتميز باستراتيجية للتكاثر في إطار الاحترام الصارم للتقاليد، فالفرد إنما هو "ابن" لفلان وهو ما يعني أنه عنصر فعال للتكاثر [160] Elément vecteur généalogique لا يمكن فكه عن باقي العناصر الأخرى والتي هو متصل بها كحلقة الهبة، يجب أن تسخر في خدمة السلالة التي لا يجب أن تندثر، ووفق هذا المنظور، يبدو العقم كما لو كان الشر الأعظم، فالعقيم يقف عائقا في وجه استمرار السلالة، وبما أن المرأة تعتبر الوعاء البيولوجي للسلالة، فهي إن كانت عاقرا، فإنها شخص عاجز اجتماعيا، بما أنها لن تلبي تلك الوظيفة التي من أجلها طلبت للزواج... وفي هذا يذهب مالك شبال إلى حد اعتبار العقم موتا اجتماعيا[161]نويعتبر

---

[158] مختار الهراس وإدريس بن سعيد، مرجع سابق، الصفحة 19.

[159] Lahouari Addi, op cit, Page 14.

[160] Ibid, Page 14.

[161] Malek Chebal : l'imaginaire arabo & musulan, Page 324.

العقم هاجسا اجتماعيا ونفسيا متجذرا في المرأة الجزائرية، وهي بإعطائها ذكورا للجماعة السلالية، التي تحتل فيها مكانة الزوجة، فإنها تشرف ذلك العقد الخفي elle remplit le contrat tacite، وبالتالي تكتسب إحتراما اجتماعيا ليس فق باعتبارها زوجة فلان، ولكن باعتبارها أما لفلان [162] شأنها في ذلك شأن كل النساء العربيات، إذ نجد لغاية أيامنا هذه أن النساء في المشرق ينادون باسم أولادهم كأن نقول أم أكرم، وأم حسام إلخ.... وقد ذكرت ليلى لمرابط في كتابها عن معاناة المرأة الجزائرية من هذه الممارسات وردود الأفعال المتوارثة والمتجذرة والتي تجعل المرأة كائنا ثانيا أدنى في السلم الاجتماعي، مفعولا به، وليس فاعلا، فقد روت عن تلك التي هجرها زوجها حاملا، مشترطا عليها العودة إلى بيت الزوجية، فقط في حالة ولادتها لذكر، وليس لأنثى،[163] فكما لو أن المرأة تولد من رحمها، وأنها إذا كانت الأم تنجب طفلها الذكر بيولوجيا فهو يولدها اجتماعيا[164] على حد تعبير مالك شبال.

لقد غيرت المعطيات الجديدة الكثير من ملامح هذه العائلة الأبوية التي أضحت غير موجودة بالشكل الذي كانت عليه من قبل ، غير أن التمثلات الثقافية [165] التي رسخت عبر أجيال وأجيال، لا تزال قابعة على مخيالنا الثقافي والاجتماعي.

لقد كان الأبناء وسيظلون سند العائلة على الرغم من الوهن الذي أصاب الروابط الأسرية التقليدية، فهناك إيمان قوي بأن الطفل يأتي ومعه رزقه فكما يقول

---

[162] Lahouari, Addi, Op it, Page 15.
[163] Fadela Lamrabet, les algériennes, cahiers libres 103, François Maspero, Paris 1967, Page 167.
[164] Malek Chebel, l'imaginaire arabo-musulman, Paris, PUF 1993, Pages 48-49.
[165] Lahouari Laddi, op cit, Page 16.

المثل الشائع (ليشق الفم ما يضيعه)، وبأن الله يرزق أسرة المولود بما يكفي لإعالته وتربيته، وربما هذا الإيمان هو أكثر ما يدعو أجدادنا وآباءنا إلى الاستمرار في الإنجاب طوال صلاحية الزوجة للإنجاب (من 15 سنة إلى 49 سنة)، بل إن الزوج كثيرا ما يضيف زوجة جديدة في حال انتهاء صلاحية الأولى أو موتها، باعتبارها، وسيلة لإثبات رجولته، وقدرته المستمرة على الإنجاب، والمرأة من جهتها لم تكن تتضرر أو تشكو كثيرا، من كثرة الأبناء، فالنصيحة المتعارف عليها والمنتشرة، كانت ولا تزال "اربطيه بالعيال"، فلا يهد الرجل ويكسر شوكته، ويجعله بغض بصره عن النساء، إلا طابور من الأولاد، وكان يجب أن يحوي هذا الطابور عددا من الذكور، فكما أسلفنا، فالإنجاب الحقيقي في المجتمعات العربية هو إنجاب الذكور، كون المجتمعات العربية مجموعة بالثقافة الأبوية وهوس السلالة L'obsession de la lignée gnéalogique.[166]

فيما يخص أهمية ولادة الذكور في المجتمع الجزائري أثار انتباهنا واقع معاش و مشترك بين الكثير ممن كنا نحاور على هامش الموضوع محاولين إثراءه و فهم الكثير من الظواهر ذات العلاقة بأهمية الإنجاب و غيرها في يومياتنا ، و هذا الواقع هو كون أكثر من ثلثي طلبات التبني المودعة في المصلحة المختصة في مديرية النشاط الاجتماعي* يشير مودعيها إلى تفضيلهم الإناث على الذكور هذا عندما يتعلق الأمر بالتبني على الرغم من علمنا أن العكس هو الشائع عندما يتعلق الأمر بالإنجاب و عند محاولتنا الاستفسار عن أسباب هذا التفصيل كان يسر لنا الكثير

[166] Zakarya Daoud, féminisme et politique au Maghreb, Maisonneuve et Larose, Paris 1993, Page 14.

بأن الفتاة أكثر عطفا و حنانا و من السهل السيطرة عليها في المستقبل بينما الولد لا يضمن مبررين ذلك بجهلهم لأصل الأطفال المسعفين و مستشهدين في الغالب بحديث الرسول (ص) "بأن العرق دساس" ،من منظور نفسي اجتماعي يحيلنا هذا الأمر إلى حالة من الفصام الاجتماعي التي يعيشها الفرد داخل جماعته و هو أمر مشروع إلى حد ما و إذا ما استجلينا تلك النزعة النفعية التي يمكن قراءتها في مثل هذه السلوكات.

أما بالنسبة لمكانة المسنين في المجتمع الجزائري فيمكن أن نرى رأي الكاتب "مولود فرعون "الذي يشير إلى الشيخ في المجتمع الجزائري هو من بيده السلطة السياسية و القضائية و التربوية ، فالشيخ هو القاضي و الإمام و يعطي النصائح و يساعد الغير يتدخل في بعض الأحيان في الخصوصيات بحكم مركزه فهو إنسان مثقف لا يستطيع الكذب و المخادعة في نظر المجتمع ،و لا يحق له أن يتهرب من حيث هو رمز[167] ، فالمسن هو تعبير عن الاحترام و الاقتداء ،ويتمتع بجميع السلطات ،حيث يحدد أدوار و مراكز الأفراد المخصصة في الجماعة و له الحق في عقاب أي أحج عندما لا يتماشى سلوكه مع ما هو متفق عليه و هو الذي يرأس الحفلات و المأدبات العائلية بل و يعلن الزواج و الطلاق في بعض الأحيان[168] .

إلى غاية زمن غير بعيد كانت ديار المسنين أمر غير مستساغ اجتماعيا حتى و إن وجدت منذ سنين إلا أنها كانت تستقبل شريحة خاصة من المسنين أولئك

---

[167] معمر داود،مقاربة ثقافية للمجتمع الجزائري ،دراسة لبعض الملامح السوسيونفسية و الاقتصادية الكبعة الأولى 2009،دارطليطلة الجزائر ص76

*هذه المعلومات تم التأكد منها بالاتصال بمديرية النشاط الاجتماعي .

[168] المرجع السابق ص76

المهملين في الشوارع لأسباب مرضية أو غيرها فان أخذنا مثلا دار العجزة الكائنة في سيدي بلعباس فان أكثر المسنين المتواجدين بها هم مرضى عقليا أو نفسيا و فئة قليلة أولادهم مهاجرين و غير متواجدين بالوطن ذلك أن المعطيات الثقافية و الدينية تجعل للمسن مكانة مكرمة و معززة داخل المجتمع فهو الذي يمثل العلم و المعرفة وهو بذلك الجيل المؤطر الذي يلقن التجارب و المعارف و غيرها من الممارسات و هو الذي بحكمته لا يمكن الاستغناء عنه غير أن التغيير الطارئ على تشكيلة العائلة أدى إلى تغيير حتى في النظرة إلى المسن فأصبح ينظر إليه كالعبء لما يتطلبه من رعاية و خدمات تقدمها المرأة في الغالب سواء كانت زوجة أو بنت أو زوجة الابن غير أن تغيير مكانة المرأة في العائلة و الذي جعلها في الغالب عاملة لا تستطيع المكوث في المنزل لرعاية المسن و هذا ما أثر على نظرة المجتمع للمسنين فأصبح –بشيء من التردد–يستعين بمؤسسات أخرى كدور العجزة ،من جهة أخرى الانفتاح المعلوماتي الكبير الذي نشهده اليوم و الذي جعل من المعلومات أكثر وفرة مما كان عليه الأمر في الماضي جعل النظرة إلى المسن تختلف فكان بالأمس الوعاء الحافظ للعادات و المعارف التقليدية الخاصة بالتطبيب الشعبي و الرعاية عموما أما اليوم فهناك من يعتبر بأن الأحداث تجاوزت المسنين و لسرعتها لن يستطيعوا التكيف معها.

الاعتقادات و بعض التمثلات الثقافية والاجتماعية التي تفيد موضوع لدراسة

قبل محاولة الكشف عن مكانة العادات الاجتماعية الخاصة برعاية الرضع لا بد من الإشارة إلى الاعتقادات السائدة والمتوارثة و المتربعة على مخيلتنا الشعبية ،الصلبة و الصامدة إذ لا يمكن لأحد منا التشكيك في صحتها أو البحث عن تفاصيلها و كيف أنها أخاذة و سحرية التمكن منا إلى هذه الدرجة .

إن الروابط التي تحكم الأفراد في المجتمع، وكل تجلياتها تعتبر مزجا لروابط واقعية إضافة إلى روابط لها علاقة بالمخيال، والرموز الاجتماعية والتي تنسج ذلك الكل لهوياتي المشكل للفرد.

وإن كانت الاعتقادات هذه تخص أكثر من مجال فإننا سنورد هنا تلك التي تبدو لنا ذات علاقة وطيدة بموضوع دراستنا وهي:

- الخصوبة
- الاعتقاد في نوم الجنين (أو البومرقود)
- البكارة

الخصوبة La fécondité:

إن حديثنا عن أهمية الإنجاب يقودنا للحديث عن دور الاعتقادات الخاصة بالعقم والخصوبة، في مجتمع كالذي نعيش فيه، فبعد ولوج الحياة الزوجية تصبح الولادة هاجس الأزواج،و ينظر للرجل المتزوج دون أولاد كائن ناقص اجتماعيا ،ويعاش العقم كأهم الجراح النرجسية التي لا تندمل إلا بالإنجاب[169] كما ينظر إليه

[169] Toualbi,n,la circonsicion ,blessure narcissique,ou promotion,sociale,alger,s,n,e,d,1975,p84

كصورة للقصور الجسدي، والعجز لدرجة يمكن القول معها – في مجتمعنا الذكوري –بأن قدر المرأة مرتبط بخصوبة رحمها كما ذكرنا من قبل.

ومن هذا المنطلق تظهر سلوكات وانطباعات واستراتيجيات، البعض منها يهدف إلى إبعاد الأذى، والبعض الآخر، لإفراغ الأذى من محتواه، أو احتواءه في الحدود المقبولة، فهناك أفكار ومعتقدات شائعة، تدور حول إمكانية انتقال عدوى المرأة العقيم لبقية نساء العائلة.لقد أشارت كاميل لاكوست دي جاردن في كتابها أمهات ضد كنائن إلى تلك الطقوس الخاصة بالخصوبة و المنتشرة في بلاد المغرب حين ذكرها للأقصوصة المتداولة في بلاد القبائل المكرسة لأسطورة يماندونيت و تربطها بالخصوبة فالأم هي رمز الحياة و الموت[170].

ومن ناحية أخرى فولادة الذكور تجعل الرجل يشعر بكل فخر واعتزاز في حين أن ولادة الاناث تجعله يتكتم على الأمر وكأنها مهمة غير موفقة، حتى يتفادى نظرات المجتمع إليه، أو سماعه لكلمة المسكين الحادة الوقع على مسامع الرجال في المجتمعات العربية.[171]

وينظر إلى الرجال أو النساء الغير قادرين على الإنجاب، على أنهم مصابون بلعنة من الله بما أن بذراتهم لا تنبت في الأرض،[172] ومن الاعتقادات الشائعة أن

---

[170] Camille la coste dujardin,des méres contre des femmes,maternité et patriarcat au magreb,édition ceres,tunis 1995p129.

[171] Malek Chebal, op cit, Page 324.

[172] Dominique Champault, Journal de la société des africains, XXIII, Paris 1953, Page 89.

"التيناش"* يجب تفاديه في أوقات معينة كإشراق الشمس أو غروبها، كما يمكن أن يصيب المرأة الولود بعين الحسد فيؤذيها أو تؤذي صغارها [173] والرجل على استعداد لممارسة أي طقس من الطقوس من أجل أن تصبح المرأة حاملا، فمن التطبيب الشعبي إلى الشعوذة، وتذهب بعض النسوة في اعتقاداتهم إلى حد إفراغ بول الكلب في عضوها التناسلي الذي من شأنه تسهيل عملية الحمل.[174]

حتى أنه هناك من الممارسات الغريبة عن الدين الإسلامي، وتمارس في أماكن مفتوحة باسم الدين كالزوايا، ومن الأمثلة عن ذلك النسوة اللواتي يطأهن رجال غرباء في قاعات بأماكن مقدسة كالزوايا أو أضرحة الأولياء الصالحين، بدلا من الأزواج، بهدف فك عقدة العقم التي تطارد كاللعنة الأزواج [175] وهذه النقطة بالذات تقودنا للحديث عن ظاهرة التدين الشعبي المنتشرة، فلا تزال الذاكرة الشعبية تذكر بعض الممارسات المتعارضة صراحة مع الإسلام كالضيافة الجنسية قصد تحسين النسل و إنجاب الذكور و حق الليلة الأولى كتبرك جنسي ببعض الشرفاء و السعي لضمان الخصوبة[176]و يقول في هذا الشأن كل من إدريس بن سعيد و مختار الهراس [177]: " يتميز التدين الشعبي إذن بصدد الخصوبة بكونه ممارسة ثقافية تتخذ من جسد المرأة موضوعا لها، و تخضعه لجملة من الطقوس تتمحور حول ثنائيات تتعلق بالخصوبة بمعناها الواسع كالزواج/الطلاق،الإنجاب/العقم،إنجاب

* معناه في اللغة العامية العاقر أو العقيم سواء كان رجل أو امرأة.

[173] Malek Chebal, Op Cit, Page 324.

[174] El Mangli, de la chasse, Paris, Sindibad, 1984, Page 113.

[175] Malek Chebal, Op Cit, Page 324.

[176] إدريس بن سعيد مختار الهراس، المرجع السابق، الصفحات .17_18.

[177] ادريس بن سعيد،مختار الهراس،المرجع السابق ص18

الذكور/إنجاب الإناث،الخ...فتسارع المرأة إلى إتلاف و دفن كل ما ينتجه جسدها من مواد يمكن أن توظف في تركيب وصفات سحرية من شأنها أن تلحق الضرر بخصوبتها أو بحياتها الزوجية كالشعر أو قلامة الأضافر أو الأثواب الملوثة بدم الحيض أو بالسائل المنوي ، وتقيم المرأة بينها و بين العين و الحسد و الأرواح الشريرة جملة من الحواجز كالبخور و التعاويذ و الحناء"...إن هذه الاعتقادات منتشرة في كل المغرب العربي بحكم المحاكاة و التأثير و التأثر.

قد نفتح قوسا هنا أيضا حول ظاهرة التدين الشعبي التي لا تزال تثير سخط الكثيرين في هذه المجتمعات، ومن الصعب مواجهتها أو وضع حد لها باعتبارها ظاهرة كانت و لا تزال تشكل سببا للكثير من الانزلاقات الخطيرة التي تعيشها المجتمعات العربية، فنجد مثلا ياسمينة خضرة في إحدى رواياته[178] يقول على لسان إمام يذهب ضحية الإرهاب الذي مس البلاد في العشرية المنصرمة: الشاعر كان على حق، حين قال بأنه في كل ديانة، هناك حصة للشيطان يضعها الله للإنسان حصة متناهية الصغر، ولكنها كافية لتزييف الدين والرسالة التي يحملها وتوجيه النفوس إلى سبل الضياع والبربرية، وهذه الحصة هي الجهل، ثم قال بأن هناك ثلاثة أشياء لا يجب منحها للجاهل وهي: الثروة يضيعها، السلطة فيتجبر ويستبد بها ، والدين فيؤذي نفسه والآخرين في حال استعماله لأغراض خاصة.

الاعتقاد في الجنين النائم (بومرقود) Le mythe du bébé qui dort:

[178] Yasmina Khadra, les agnaux du seigneur, édition poket, Paris 1999, Page 127.

إن الاعتقاد بالطفل النائم في أحشاء أمه، اعتقاد متجذر داخل النفوس، ويفترض أن المرأة وبعد حملها، ينام الجنين في رحمها، ويتوقف عن النمو، وسيأتي يوما ما، يستيقظ وتستمر بعد ذلك مراحل الحمل الطبيعية،إن هذا الاعتقاد شائع في العديد المجتمعات الإسلامية و لذلك نجد بأن فترة الحمل في التشريع الإسلامي لم تتحدد ب9 أشهر و الاختلاف في المدد الزمنية يختلف وفقا للمذاهب الأربعة فحسب ما يروى أن مالك بن أنس مكث في رحم أمه ثلاث سنوات قبل أن تضعه ،و عموما بحثنا عن احتمال وجود تفسير علمي للظاهرة غير أن الأطباء اللذين سألناهم عن تفاصيل هدا الاحتمال أجابوا بأن الأمر مستحيل علميا و الافتراضات التي وجدنا لها صدى تتماشى مع ما أوردته فضيلة لمرابط في كتابها جزائريات حيث ذكرت بأنه قد ثبت علميا أن لدى بعض الحيوانات يمكن للبويضة المخصبة أن تتحرك داخل القناة الرحمية قبل استقرارها في الرحم للنمو لمدة أشهر.[179] غير أن الحاجة الاجتماعية هي التي كانت في الغالب سبب ترسيخ هذا التقليد الذي كان يؤدي وظيفتين اجتماعيتين فقد كان هذا الاعتقاد يسمح في العديد من المواقف بإنقاذ الشرف العائلي، في حالات الشك في أبوة الطفل، كما كان يسمح في حالات أخرى بتهدئة نفوس النساء اللواتي كن عقيمات، أو تأخر حملهن، تفاديا للطلاق وذلك ربحا للوقت، إذ يتوهم الجميع أن هناك جنين في البطن يجب فقط انتظار ساعة نموه الطبيعية. و يظهر ذلك بيولوجيا من خلال انقطاع الحيض لمدة طويلة ، فيشكل هذا الاعتقاد جوابا يؤدي إلى دوام الأمل في الولادة.[180] و السبب الذي يجعلنا نشكك

[179] Fadela Lamrabet, Op Cit, Page..118
[180] Malek Chebal, Op Cit, page 328.

في صدق هذا الاعتقاد هو تراجع الاستعانة به كتبرير لحالات الحمل المهددة لمكانة المرأة داخل المجتمع و ذلك في مقابل انتشار أدوات منع الحمل المتاحة علميا.

وباعتماد المنطق و العقل يبدو أن منشأ الاعتقاد في الطفل الراقد يعود إلى أزمنة غابرة كان خلالها المجتمع يمارس نوعا من التواطؤ الجماعي ينسب الحمل الذي يقع خارج إطار الزوجية إلى الجان أو يتم في حالة المرأة التي سبق لها الزواج ادعاء أن حملها شرعي من زواجها السابق. [181]و في هذا صورة أخرى لقدرة العقل على تأويل الحقائق التي يصعب إدراكها إدراكا علميا فيعطيها صبغة ماورائية في اعتقاد يزداد ترسخا و صلابة مع الزمن في النفوس و يستطيع أن يلبي أكثر من حاجة اجتماعية.

البكارة La virginité:

إن تلك السلوكات و الطقوس السحرية التي تتناول الجسد كوعاء للتمثلات الرمزية جد منتشرة في المجتمع الجزائري و قد انتبهت دي جاردن لهذه الخصوصية التي تميز المجتمع الجزائري باعتباره مجتمعا تقليدي إلى حد ما قائلة[182]« الأم ترهب ابنتها لدرجة أنه في أول عاداتها الشهرية ،تصاب بالهلع و الفزع و قد تعتقد أحيانا أنها فقدت بكارتها أثناء النوم بفعل شيطان أو جني» و تحاول الفتاة بشتى الطرق الحفاظ على غشاء بكارتها، والذي يوقع طقسيا دخولها إلى الحياة الجنسية الاجتماعية، ويفتح لها أبواب الزواج والعديد من الطقوس والممارسات تساعدها في

[181] المرجع السابق ص175

[182] La coste du jardin,c,des meres,op cit,p96

تلك المهمة الرئيسية، وتسهر الأسرة وخوصا الأم على ذلك، وتعتبر البكارة معيارا اجتماعيا، يحدد التربية الحسنة، ويشكل حجر الزاوية لخلق الفتاة.

إن العالم الجنسي للعرب مبني على فكرة الذكورة أو الرجولة، وكل جانب من التربية الرجالية وحتى النسائية، يتكئ على حجر الزاوية هذه والبكارة هي الأخرى تستجيب لمشاركة اجتماعية لهذا الامتياز، فالرجل مرة أخرى هو من يقرر منح أو سلب المرأة نوعا من العرفان الذكوري بفض بكارتها.[183]

من الطقوس الجنسية التي تعكس صلابة المعتقدات تلك المتعلقة بالتثقاف أو ما يعرف أكثر في الجزائر باسم الرباط و هي عبارة عن إجراء سحري الهدف منه حماية بكارة الفتاة ،حيث تقوم العجائز المتخصصات في ذلك بفتح جلد الفتاة الأيمن من الأسفل إلى الأعلى بعمق نسبي مما سيسمح بسيلان الدم و تطلب من الفتاة المراد ربطها ترديد الكلمات التالية"ولد الناس خيط و أنا حيط" بمعنى أن الرجل كالخيط الرفيع لا قوة له تسمح بفض البكارة و الفتاة كالجدار المنيع الذي لا يمكن اختراقه و هذا للتصدي لمحاولات الاعتداءات الجنسية المحتملة على الفتاة أو لحمايتها من نفسها إذا ما أرادت هي ذلك و عندما تقبل الفتاة على الزواج تقوم الوالدة في الغالب بأخذ ها إلى نفس الشخص الذي قام بربطها لإعادة فك الرباط و هذه المرة يتم فتح فخذ الفتاة الأيمن في الاتجاه المعاكس أي من الأعلى إلى الأسفل و هي تردد"ولد الناس حيط و أنا خيط و ذلك تسهيلا لمهمة فض البكارة على

[183] Chebal, Op Cit Page 322

العريس ليلة دخلته [184]إن هذه الاعتقادات شائعة في كل ربوع الجزائر و قد تختلف نوعا ما في الطرق المتبعة و بعض التفاصيل إلا أنها لا تخرج عن الروح العامة للقيم التي تحميها و تدافع عنها.

قد حاولنا من خلال هذه الصفحات، إعطاء فكرة عن مميزات المجتمع الجزائري كمجتمع عربي لا تزال التقاليد تشكل عنصرا محددا لردود الأفعال الاجتماعية للأفراد فيه وعندما نتحدث عن التقاليد فنعني أيضا كل تلك المعتقدات والقيم التي تكرست وترسخت في النفوس عبر التاريخ، وفيما يخص التقاليد ومكانتها فارتأينا تركها في نهاية الفصول الميدانية، لاستيفائها حقها من القرائن التي قد توضح لنا المكانة التي تحتلها اليوم في حياتنا الاجتماعية.

[184]Mohammed salah belguedji,la medicine traditionelledans le canstantinois,strasbourg,université de strasbourg,imprimerie,culture(Belgique)1966,p140

الفصل الرابع: البحث الميداني الخاص بالعادات والتقاليد الخاصة برعاية الرضع في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة

مجتمع البحث

قبل التطرق للعينات المختارة ،تجب علينا الإشارة إلى المجال الجغرافي الذي تم الاعتماد عليه و هو منطقة سيدي بلعباس لماذا؟ قلنا منطقة و ليس ولاية سيدي بلعباس ..لأن التقسيم الإداري لا يأخذ في الحسبان الانتماءات القبلية في الجزائر و لا يهمنا هذا التقسيم الرسمي و لكن ما يهمنا هو الاختلاف و الثراء الموجود في المنطقة و الذي يكون عبر الزمن و بفعل الاحتكاك و التحوير الذي يطرأ على الثقافات في محاولة إعادة تشكل و تموقع من أجل الاستمرار قد اصطبغ بصبغة محلية تميزه عن باقي جهات الوطن هذا من جهة ومن جهة أخرى ربما وجب أيضا تبرير اختيار المنطقة على حساب مناطق أخرى ؟و هذا ما يجد جوابه في كوننا من هذه الولاية ولدنا و ترعرعنا فيها و مدينة ألفناها أيضا إضافة إلى أنها مدينة حديثة نسبيا مقارنة بباقي المدن المحيطة بها كتلمسان أو وهران أي أنها مدينة –عمرانا – بناها المستعمر و عرفت على مر فترات متلاحقة من الزمن توافد الكثير من القبائل و البطون التي كانت تعيش على ضفاف وادي مكرة و التي أخذت في النزوح أكثر فأكثر منذ أن شرع المستعمر في وضع المعالم العمرانية الأولى و كان سهل ملاتة و المياة المتوفرة من أكثر ما يستهوي الناس على الاستقرار بها [185] و بالنظر لعدد البطون المتواجدة

[185] و هي كلها تفاصيل نجدها بدقة أكثر في المدخل الخاص بالفضاء التاريخي و الجغرافي للمدينة.

في المنطقة تعتبر في نظرنا عبارة عن فسيفساء من حيث التركيبة البشرية و هو ما يزيد الزخم الثقافي الموجود بها غنى و تنوعا،و هو ما يتجلى في اختلاف و ثراء العادات و التقاليد المنتشرة في المنطقة.

المعاينة و التقنيات المعتمدة

إن العينة هي مجموعة من الناس أو الوحدات الذين يتم اختيارهم ليكونوا ضمن الدراسة و اختيار العينة هو اختيار لهؤلاء الأفراد أو الوحدات أو المنظمات من مجتمع بعينه بحيث أننا إذا درسنا ظاهرة ما أمكننا بعد ذلك تعميم نتائج الدراسة على المجتمع الذي اخترناها منه ، و لدواعي تفرضها طبيعة الموضوع ارتأينا أن تكون طبيعة عيناتنا قصدية و اختلفت وحداتها ، إذ في البداية و قصد مسح العادات و التقاليد السائدة في المنطقة و التعريف بها توجهنا إلى سيدات مسنات و جدات كانت لهن فرصة الإشراف على رعاية أولادهن ثم أحفادهن و تباين انتماءهن بين مناطق ريفية و أخرى حضرية كلها كانت في منطقة سيدي بلعباس و تجدر الإشارة هنا إلى أننا و قبل الشروع في المقابلات التي كانت فردية اعتمدنا أسلوب المقابلات البؤرية و التي كانت بمثابة البحث الاستطلاعي و يمكن القول بأنها أتيحت لنا بشكل عفوي حيث كنا نتحين فرصا تمكننا من الاتصال بهؤلاء النسوة في العديد من المناسبات و كنا في الغالب نعمد إثارة مواضيع خاصة بالعادات و التقاليد و الحنين إلى الأزمنة التي ولت و انقضت – و هي حاجة من الممكن استثارتها و استثمارها بسهولة لكونها شعور عام يشترك فيه العديد من الأفراد في الوقت الراهن– و قد ساعدتنا هذه المرحلة على بلورة و تحديد الأسئلة النهائية التي من شأنها أن تساعدنا

في جمع معلومات ذات طبيعة كيفية حول العادات المنتشرة و الخاصة برعاية الرضع و في مرحلة موالية سطرنا محاور المقابلة بشكل نهائي وقد جاءت نصف موجهة ، و شملت مائة مستجوبة، ساعدنا طلبة قسم علم الاجتماع في الاتصال بهن و جمع المعلومات و التي حملت لنا حين تفريغها ثراءا و تنوعا في طرق الإشراف على رعاية الرضع في سيدي بلعباس و كل ما يحيط بهذه العادات المتبعة في هذا السياق من أسرار و اكتشاف بعض ما يكتنفها من غموض حيث يعتمدن غالبا على بعض التفسيرات الغير مؤسسة منطقيا و لكنها جد مقبولة لدى العامة و مهضومة بشكل لا تثار معه الأسئلة،و قد كانت هذه الخطوة جد مهمة في بحثنا هذا إذ لعبت الجدات دور المخبرات أما المعلومات المستقاة فقد ساعدتنا في مرحلة لاحقة على توجيه أسئلة الاستمارة التي خصت مائتي مبحوثة كعينة ثانية مكونة من الأمهات الحديثات الوضع بهدف معرفة مدى التمسك أولا بالعادات و التقاليد في العناية بالرضع أو طبيعة الطرق المستعملة سواء كانت تقليدية أو حديثة و بدا لنا امثل مكان لتوزيع استماراتنا هو إحدى العيادات المتخصصة في طب الأطفال في ولاية سيدي بلعباس و التي تعرف توافد بمعدل 30 مريض يوميا مرفقين في الغالب بالأمهات ، فكنا نوزع بمعدل 10 عشر استمارات في اليوم حسب الظروف و بالنظر لحالات المرضى و الأمهات التي كانت تتيح في الغالب فرصة الحديث عن موضوع البحث و قد كان توزيع الاستبيان بهذا الشكل المباشر جد فعال إذ و نحن على مقربة من الأمهات كنا على ثقة بأنهن يجبن شخصيا على أسئلة الاستمارة و ساعدنا ذلك على استجلاء الكثير من المعلومات كما كنا نسأل و ندون إجابات الأمهات اللواتي لا يجيدون القراءة و الكتابة ، و في مثل هذه الحالات كان الاستجواب

أمثل طريقة لاستقاء هذا النوع من المعلومات و ملء الاستمارات ، و كان الحديث يضفي شيئا من الدفء و الحميمية على الكلام ، جعلت الكثيرات تسترسلن في الكلام و تدلين بتفاصيل تجاربهن في التربية، و معاناة بعضهن من المحيط الأسري، لا سيما أمام بعض الجدات اللواتي تضطلعن بهذه الأمور، و تفرضن أشياء لا تلقى دائما الاستحسان لدى الأم الوالدة.

و بغية إكمال البحث اتضح لنا بأنه لا بد من أخذ آراء الأطباء كطرف ثالث في هذه المعادلة حتى يكتمل المشهد و ذلك بالتطرق إلى ما تمليه الأساليب الطبية الحديثة و بعد توزيع ما يزيد عن المائة و عشرون استمارة استطعنا استرجاع سبعون استمارة فقط خصت سبعون طبيب شكلوا أعضاء عينتنا الثالثة بعضهم متخصص في طب الأطفال و البعض الآخر عام و استطعنا أخذ أرائهم عن طريق أصدقاءهم و زملاء لهم في المهنة أحيانا ، و أحيانا أخرى عن طريق الأطباء المنتدبين لشركات بيع الأدوية فبحكم مهنتهم يتنقلون كثيرا إلى العيادات الخاصة و تلك التابعة للقطاع العام بهدف إقناع الأطباء بفعالية الأدوية التي يروجون لها ،و قد لبى البعض ممن نعرفهم دعوتنا لتوزيع الاستمارة على الأطباء الذين يزورونهم و قاموا باستعادتها و تسليمها لنا و قد دامت فترة العمل الميداني هذه قرابة السنتين وذلك على فترات متباينة ابتداء من 2007، إلى غاية العام الماضي إلا أنها كانت الأمتع من حيث ثراء ما يحمله الأفراد واختلافهم في طرق تفكيرهم و سلوكيات حياتهم داخل الجماعة و نظراتهم المختلفة للآخر و للمجتمع ،بانتقاد ضغوطاته حينا و بالتعبير عن سعادة الانتماء إليه أحيانا أخرى.

أما عن أدوات البحث فبالإضافة إلى تلك التي ذكرت أعلاه من استجواب و استمارات، و كذا المقابلات مع النساء المسنات فقد عمدت أيضا إلى الملاحظة الشخصية ،و أتاحت لي تجربتي الخاصة في فترات البحث فرص الملاحظة بالمشاركة، و عموما ساعدتنا الملاحظة على تأمل ازدواجية المواقف و السلوكات و التعابير عند بعض الأطباء و بعض الأمهات و سنعود إلى ذلك لاحقا فقد شكلت هذه المواقف عوائق معرفية لاستشفاف الواقع و لكن لحسن الحظ لم تكن بالقدر الذي يؤثر على تمثيلية la représentativité العينات.

المبحث الأول: العادات الاجتماعية المتعلقة بالولادة ورعاية الرضيع في سيدي بلعباس

تقديم للعينة المكونة من مائة جدة مسنة :

لقد سبق و أن تكلمنا في مقدمة البحث عن ظروف المعاينة و كيف قمنا بتصميم هذه المقابلة النصف موجهة الخاصة بالنساء المسنات كما أشرنا إلى الملاحظة الشخصية و الملاحظة بالمشاركة كأدوات بحث ساعدتنا كثيرا في التقاط ما لا يقال بالكلام و لكنه يستشف في الأفعال و هذا ما ساعدنا في جمع المعلومات الخاصة ببعض العادات و التقاليد السائدة في المنطقة و الخاصة برعاية الرضع لماذا البعض ؟ لشدة ثراءها و تنوعها ولذلك ارتأينا أن نبوبها في أربعة أقسام و هي على التوالي:

أولا: العادات المتعلقة بالحمل والوحم.

ثانيا: العادات المتعلقة بالولادة والعناية بالرضيع والأم.

ثالثا: العادات المتعلقة بالسبوع .

رابعا: العادات المتعلقة بالتطبيب الشعبي الخاص بالرضع.

خامسا: مجموعة من الاعتقادات السائدة حول وقاية الطفل من العين و الحسد وشر المومنين*.

أولا: العادات المتعلقة بالحمل والوحم

قبل الوحم والولادة تجب الإشارة إلى أهمية الخلفة في مجتمعنا الجزائري ككل وتظهر هذه الأهمية مذ بداية الحياة الزوجية وخصوصا خلفة الذكور على الإناث، ذلك أن الذكور هم حملة اسم الوالد وخليفته على الأرض استجابة لغريزة البقاء المرسخة في الأذهان من جهة و لطبيعة المجتمع الذكورية المتناقلة عبر الأجيال فهم الذين يكونون سندا للأب والأم عند كبرهم وتقدمهم في السن كما كان آباءهم من قبل عندما كان المجتمع زراعيا و يخضع لأحكام الجماعة ،وكثيرا ما يكون عدم الخلفة سببا رئيسيا من أسباب الطلاق، لذلك كثيرا ما تسعى بعض النساء اللواتي، تتأخرن في الولادة فور زواجهن إلى إتباع العلاج الشعبي من أجل أن يتحقق لهن ذلك.إن موروثنا الشعبي من القصص و الأمثال غني و زاخر بعدد الأمثال الشعبية

[186]و الأقاصيص الخاصة بالخصوبة و الخلفة فنجد على سبيل المثال لا الحصر :

1- السلالة سلالة و العرق جباد.

3-اللي ولد ما مات.

4-تقول نسطه من نيفه.

5-كل خنفوس و عند أمه غزال.

6-أقلب القدرة على فمها البنت تشبه أمها.

ومن أهم الطرق المتبعة لعلاج التأخر في الولادة أكل الدجاج المحشي بالأعشاب مثل "الزعتر"، و"فليو" وأكل "كسكس غليظ" أو ما يعرف بـ"البركوكس" المحضر بالأعشاب المطحونة*.ستتم الإشارة إلى معاني كل هذه الأعشاب و التسميات المحلية المذكورةفي الملاحق

كما تقوم المرأة بزيارة أولياء الله الصالحين طمعا في الخلفة وهناك ثلاثة قبب تزار في الغرب الجزائري من أجل هذا الغرض، وهي قبة سيد الزواوي بسيدي بلعباس، وقبة سيدي قادة بلمخطار بولاية معسكر، وقبة سيدي يوسف في ناحية تلمسان، ويزار هؤلاء الأولياء الصالحين أيضا من طرف الأمهات اللواتي يفقدن أولادهن بالوفاة بعد الولادة، ويشيع الاعتقاد بأنه فور تقديم وعدة أو معروف للوالي المزار، تفك عقدة المرأة، وتستطيع الولادة بعد ذلك، وغالبا ما يسمى الوليد باسم الوالي المزار، فإذا زارت الأم سيدي قادة بلمخطار يسمى الوليد قادة مثلا، أو مختار.

[186] قادة بو تارن،أقوال و أمثال شعبية جزائرية .الجزائر،2004ص من 179الى 183.

وإذا زارت سيدي الزواوي، فيسمى الوليد زواوي، أو عتو أو عتوية وزواوية إن كان المولود بنت.

وإذا زارت سيدي يوسف يسمى المولود يوسف، وعلى الأم أن تستمر في إخراج المعروف أو الصدقة كل سنة باسم الوالي المزار.

ويشترط في هذه الاعتقادات النية، قبل كل خطوة وإلا فلن يتحقق الغرض المرجو حسب الاعتقاد، وفي الواقع فإن ظاهرة التسمية على الأولياء الصالحين هي منتشرة في كل القطر الجزائري، ففي وهران يكثر اسم هواري، نسبة لسيد الهواري وفي سيدي بلعباس يكثر اسم عباس وعباسية، وفي تيارت يكثر اسم خالد نسبة لقبة سيدي خالد الموجودة هناك، وغيرها من التسميات المنتشرة.

وروت لنا إحدى السيدات المسنات كيف أنها فقدت ابنتها الأولى بعد ولادتها لسبعة أولاد، وعندما ازدادت عندها بنت ثنية بعدها أسمتها عيشة أي (عائشة) حتى تعيش، وكيف أنها لم تشتر لها أية ألبسة طوال السنة الأولى، وكانت الطفلة تلبس ما يأتيها به الجيران والأقارب من ألبسة أطفال سبقوها في السن حتى تحذو حذوهم وتكبر مثلهم ويطول عمرها.

أما عن الشهور الأولى من الحمل ، فأول ما تنصح به الحامل هو النظر إلى أشخاص ذوي وجوه جميلة وإن أرادت أن يشبه جنينها أحد أقاربها فتقوم بشرب كأس من الحليب الطازج فوق رأس القريب وتضع يدها على جبهته، وتطلب من الله أن

يأتي الطفل مشابها له، وفي مقابل هذا، فتبتعد عن كل من كان قبيحا، تمنع من النظر إلى الصور القبيحة حتى وإن كانت في التلفزيون.

كما تنصح بأن تكثر من أكل المكسرات في الفترة الأولى من الحمل. وبالنسبة للمرأة التي تريد أن يكون وليدها ذكر، فتأكل قليل من الفول السوداني الطازج أو تبلع حبة قرنفل في فترة الحمل.

و فيما يخص الوحم فيعتبر فترة هامة من فترات الحمل في حياة المرأة و هي فرصة لها أيضا لتختبر بها مكانتها الاجتماعية وتستعيد بعض ما فقدت من هذه المكانة بحكم ظروف الحياة اليومية و كما عبر عن ذلك مالك شبال « configuration du manque » [187] فيمثل ذريعة لتلبية كل رغباتها و حاجاتها المكبوتة قبل الحمل فتبدو الأشياء كما لو أنها في مقابل وعدها بمنح العائلة مولودا تقوم هذه العائلة بتلبية حاجاتها و يعتني بها الزوج و الحماة و الجيران بتسابقهم لمنحها أطيب الأكلات و أندر الفواكه[188] .ومن الشائع عندنا في المجتمع الجزائري تسابق الأهل و الجيران إلى تقديم أفخر الأكلات إلى الحامل في بدايات الحمل لنيل رضاها بحكم الاعتقاد أن دعواها مستجابة أثناء الولادة من جهة و لنيل رضوان الله من جهة أخرى.

ثانيا: العادات المتعلقة بالولادة والعناية بالطفل والأم

183 Malek chebel ,le corp dans la tradition au magreb,paris,puf,1984,p,27.
188 Malek chebel,l'imaginaire arabo-musulman,op cit p326.

من الشائع في أوساطنا الشعبية أن تنتظر المرأة الحامل، دخول شهرها التاسع، وتنظر إلى الهلال في بداية الشهر الهجري، تتضرع إلى الله بأن يأتيها الوضع سهلا، ثم تسقط قليل من الماء الدافئ بين ثدييها أو تسقط مفتاحا، حتى يأتيها الوضع سهلا كالماء.

وعندما تبدأ آلام الولادة التي هي نذير للوضع وهي ما يعبر عنها في العامية بـ"الشداد" وتتأهب الحامل للذهاب للوضع، تقوم إحدى قريباتها المرافقة لها بتقديم إناء مملوء بالدقيق لعابر السبيل، وتفريق بعض النقود، وتسمى في المنطقة بصدقة سيدي عبد القادر "سلاك الوحايل"، والواحلة في العامية هي المرأة التي ستلد وحتى تسهل عملية الولادة، يغلى البصل مع القرفة ويقدم للحامل، فتشربه، فإن استمر الألم تبين أنه وجع ولاده بالفعل، وتبخر على الحناء والبصل و"النابطة" وهي عشبة تساعد المرأة على الولادة بسهولة، وتجعل عنق الرحم يلين بسرعة فيساعد على خروج الجنين من بطن أمه بسرعة وسهولة.

وإن كانت الولادات في الماضي تتم في البيوت على يد القابلات فإنها اليوم تتم غالبا في المستشفيات نظرا للتطور التكنولوجي، والتوسع العمراني، الذي أخذت تشهده معظم مدن الجزائر، وما رافقه من توسع في إنشاء الهياكل الصحية في المناطق الريفية، وقد ذكرت لي إحدى السيدات المسنات من اللواتي حاورتهن، أنها وضعت كل أطفالها في البيت وعندما سألتها عن المشيمة التي تنزل في أثر الطفل، أي ما يعرف بالعامبة بـ"التوابع" ذكرت لي بأنه كان يدفن تحت التراب، وذلك للاعتقاد بأنه جزء من روح الوليد.

وبالنسبة لبقايا الحبل السري التي تجف عادة وتسقط في نهاية الأسبوع الأول من حياة الطفل، فترمى في ركن من أركان المسجد حتى يشب الطفل حافظا للقرآن وموظبا على الصلاة وإن كانت المولودة طفلة فيحتفظ ببقايا حبلها السري في ركن من أركان المنزل حتى تشب الفتاة على حب بيتها.

وقبل ذلك ولكي تجف هذه البقايا بسرعة تطلى حبة من التمر بالحنة وتوضع فوق الحبل السري، وتجدد العملية كل يوم طوال الأسبوع الأول.

وهناك من الأطفال من يزداد في غشاء رقيق شفاف يعرف بالعامية باسم "الغمد"، وذلك لي بعض القابلات في عيادة التوليد بسيدي بلعباس بأن هذه الحالات نادرة الحدوث، وأن الطفل الذي يولد في "الغمد" يعتبر سعيد الطالع، ويجلب الخير لأهله وتتنافس العائلات عليه عند مصادفته وذلك بما له من فائدة في كثير من الاستعمالات وحسب الاعتقاد الشائع، فغمد البين أكثر فائدة من غمد الولد، وعن طريقة استعماله تقوم النساء المسنات بتجفيفه بعد طلائه بالحنة وحبة الحلاوة والكروية والشبوب، وهي أعشاب تباع لدى الباعة المتخصصين في ذلك وبعد تجفيفه يحفظ في مكان أمين فهو يجلب الربح والسعادة لحامله، وكثيرا ما ينصح الذاهب لحضور محاكمة له في مجلس القضاء والمحاكم بحمله معه حتى تجري الأمور على أحسن وجه، كما يستعمل في التطبيب الشعبي لحالات مرضية كثيرة منها على سبيل المثال، علاج العقم، وفي هذه الحالة يشترط أن يكون "الغمد" لبنت وليس لولد، كما يستعمل لفك عقدة العانس وتسهيل إقبال الخطاب عليها لطلب الزواج منها، وبالنسبة

لأساليب استقبال المولود الجديد، فقد ذكرت لي بعض السيدات بأنه إن كان ولدا فيزغرد له ثلاث مرات متتابعات، وإن كانت بنت فيزغرد لها مرة واحدة فقط.

وعادة ما تتكفل برعاية الأم النفساء ووليدها نساء مسنات من أفراد عائلة الأم أو الأب على أساس تجربتهن في التربية وتقدمن النصائح والعادات التي يجب إتباعها حتى يشب الطفل كما شب والده وغيره ممن سبقوه، وفي هذا الصدد كثيرا ما يتردد المثل الشعبي القائل: "سال المجرب ولا تسال الطبيب".

ومن بين ما تقوم به المشرفة على رعاية الوليد، هو دهن أعضاء جسمه بزيت الزيتون أو الزيت العادي والحنة، ولنجبار * بالنسبة للبعض اعتقادا أن ذلك يريحه ويمكنه من النوم الهادئ.

وتكحل عيني الطفل، حتى تتسع ويبصر جيدا وطوال مدة الأسبوع الأول من حياته، يوضع له الحنة أسفل إبطيه وعانته خاصة إن كان المولود بنتا حتى لا ينمو الشعر في هذه الأجزاء من الجسم، كما يقيها هذا من رائحة العرق الكريهة عندما تكبر، وفي نفس هذا السياق يواظب على عصر ثدي الطفل طوال الأسبوع الأول من حياته.

وغالبا ما يلبس الطفل قطعة قماش أبيض مستطيلة أو مستديرة الشكل، مثقوبة في الوسط، ليدخل رأسه فيها، ويلف جيدا والغرض منها وقاية جسمه داخلها جيدا،

* لنجبار هو نوع من أنواع التوابل تستعمل لأغراض كثيرة في الطبخ وفي التطيب الشعبي بشكل خاص.

حتى تلتصق بها الزيوت والحنة وغيرها من المواد المستعملة في تدليكه، ولا تنزع له إلا بعد مرور أربعين يوما.

وهذه القطعة من القماش تعرف باسم "الخراقة"، وعادة ما يحتفظ بها للفال كما يقال.

كما يلف الطفل في قطع قماش أخرى بيضاء اللون هي الأخرى وهي ما يعرف بـ"القماطة" * يساعد هذا الإجراء على حمل الطفل بسهولة لإرضاعه، والاعتقاد الآخر من هذا هو تجبير عظام الطفل الحديث الولادة حتى يثبت قوامه سليما وسالما من بعض التشوهات التي قد تصيبه وتدوم فترة القماطة مدة شهر في الغالب.

وقد ذكرت لي إحدى السيدات المستجوبات أن هناك من يقمن بتجبير رأس المولود، وذلك بوضع قليل من الصوف فوق رأسه برفق ثم تطلى هذه الصوف بخليط من البيض والحنة، ويغطى بقطعة قماش، ولا تنزع هذه الصوف إلا بعد مرور سبعة أيايم.

وهنا أذكر بأن الوليد لا يستحم بالماء إلا بعد مرور شهر أو أكثر على ولادته حتى لا يصيبه البرد.

* القماطة: قطعة قماش أبيض يلف فيها الطفل ويربط بحزام من القماش.

وعند ولادته، عادة ما يصوم الطفل مدة 24 ساعة وهناك من يفطره بقليل من الشيح المذاب في زبدة حرة * أو قليل من عسل النحل مع قليل من صفار البيض الطازج، وبعد هذا فقد يقدم له حليب الأم أو الحليب الاصطناعي، وعادة ما تقدم مشروبات دافئة في البزازة تتمثل في شراب الكمون وحبة الحلاوة أو الحلبة ومن شأن ذلك أن يساعده على إخراج الغازات بسهولة، الاسترخاء والنموم الهانئ.

ومن الاعتقادات الشائعة تلك المتعلقة بضرورة غسل الألبسة الأولى للطفل من طرف ارمأة ضاحكة وبشوشة، حتى يكبر الطفل ضاحكا وبشوشا.

وعن ظروف العناية بالنفساء، فعندما تضع الحامل مولودها، وخلال الأربعين يوم التي تعرف بفترة النفاس، تتناول الأم مشروبات ساخنة وتقدم لها أكلة تقليدية معروفة وهي "البركوكس" * المعطر بالتوابل الحارة وبعض الأعشاب، حيث يعتقد أن مثل هذا الأكل يسخن بطن الأم ويصفيها من دم النفاس، ويساعدها على استعادة عافيتها وقوتها بسرعة، كما أن ذلك يجعل حليب الأم غزيرا، ومن بين التوابل المستعملة والتي تساعد على وفرة الحليب، لنجبار والمكسرات المطحونة في هذه المناسبات، وكثيرا ما تخشى المرأة من نزلات البرد في النفاس حيث يشيع المثل القائل: "ضربة النفاس ولا برد النفاس" نظرا لما له من أثر بليغ على صحة النفساء.

ويقال أن الملائكة تحيط بالنفساء مدة أربعين يوم التي الولادة، لذلك كثيرا ما تطلب منها الزائرات أن تدعو الله لهن بالخير، للاعتقاد بأن دعواتها مستجابة.

---

* دهان عرب أو زبدة الصحراء وهي الزبدة المستخلصة من حليب البقر.

* البركوكس وكسكس غليظ مع الحساء وكثير من التوابل.

ثالثا: العادات المتعلقة بالسبوع ووقاية الطفل من الحسد

أ- السبوع:

السبوع وهو اليوم السابع لولادة الطفل، ويعتقد بأنه اليوم الذي تفارق فيه الملائكة الطفل بعد حراسته من الجن، وقد جرت العادة أن يحتفل الأهل بها اليوم وهي عادة مستمدة من السنة النبوية الشريفة.

والسبوع شرعا هو "العقيقة" والعقيقة هي الذبيحة التي تذبح عن المولود وهنا تجدر الإشارة إلى ما جاء في كتاب فقه السنة عن هذا الموضوع حيث قال صاحب مختار الصحاح: العقيقة والعقة بالكسر هي الشعر الذي يولد عليه كل مولود من الناس والبهائم، ومنه سميت الشاة التي تذبح عن المولود يوم أسبوعه.

وعن أصلها الديني، فالعقيقة مؤكدة ولو كان الأب معسرا، فعلها الرسول صلى الله عليه وسلم وفعلها أصحابه، ولا تجوز فيها المشاركة، وعن فضلها روى أصحاب السنن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل مولود رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويحلق ويسمى». أي تنشئته الصالحة وحفظه حفظا كاملا مرهون بالذبح عنه، وعن وقت ذبحها فيكون يوم السابع بعد الولادة إن تيسر وإلا ففي اليوم الرابع عشر وإلا ففي اليوم الواحد والعشرين من يوم ولادته، فإن لم يتيسر ففي أي أي يوم من الأيام.[189]

[189] السيد سابق، فقه السنة، المجلد الثاني، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة 11، 1994، الصفحة 32.

ومن الأفضل أن يذبح عن الولد شاتان متقاربتان شبها وسنا وعن البنت شاة، فعن أم كرز الكعبية قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « عن الغلام شاتان متكافئتان وعن الجارية شاة».[190]

وعادة ما يرافق الذبح في السبوع، تسمية المولود والحلق ، ومن السنة أن يختار للمولود اسم حسن ويحلق شعره ويتصدق بوزنه فضة إن تيسر ذلك، ومن السنة أيضا أن يؤذن في أذن المولود اليمنى ويقيم في اليسرى، ليكون أول ما يطرق سمعه اسم الله، وروى ابن السيني عن الحسن بن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « من ولد له فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى لم تضره أم الصبيان».[191]

هذا عن السبوع شرعا، ولا يزال العديد من الناس يستعينون بهذه السنة النبوية كتقليد متوارث، وبالإضافة إلى ذلك فتظم الأسرة حفلة ومأدبة غذاء يحضر فيها أفراد العائلة والأحباب والأصحاب وهناك من يغسل للطفل لأول مرة في اليوم السابع ويلبسه ملابس نظيفة وجديدة وبعد الغذاء وقبل أذان العصر، توقد للطفل شمعة، وتضع له إحدى أفراد أسرة الأب قليل من الحنة بداخلها شيء من الذهب الخالص، وذلك حتى يشب محبوبا لدى الجميع كمعدن الذهب وغنيا ومرزوقا.

وبعد هذا تتلى آيات من القرآن الكريم لمباركة المولود، وتجدر الإشارة إلى عادة شائعة كثيراغ وهي امتناع الوالدين عن أكل كبد وطحال وقلب الشاة التي تذبح

---

[190] بداية المجتهد ونهاية المقصد.

الإمام القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي الشهير بـ"ابن رشد الحفيد".

دار الفكر بيروت، الجزء الأول.

[191] السيد سابق، المرجع السابق، الصفحة 33.

في السبوع وكذلك رأسها ففي الاعتقاد السائد أن أكلهم لها يعني أكل رأس وكبد الطفل وهو نذر شؤم على حياته، في حين ينصحان بأكل رقبة الشاة لوحدهما حتى يأتي الطفل مطيعا لوالديه.

ب- <u>العادات المتعلقة بوقاية الطفل من العين والحسد:</u>

يخشى الكثير من أثر العين والحسد على النفوس وكثير ما يبرر هذا الاعتقاد لدينا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: « العين حق والطيرة باطلة»، والعين حسب ما ذكره لي أحد الأئمة في سيدي بلعباس هي ذلك الأثر الذي يتركه الفرد في نفس الآخرين بعد وقوع نظرته الأولى على شيء يرغبه بشدة، وبالنسبة للمولود الصغير فعادة ما يكون مرغوب من طرف كل من يراه، ويخشى عليه أكثر من عين والديه، حيث يقول المثل الشعبي: "عين الحاسد ولا عين الوالد"، ولاستقطاب انتباه من يحضر لمباركة المولود وزيارة الأم، عادة ما توضح خامسة من الذهب، أو كتاب صغير من الذهب على ملابس الطفل أو حجاب حتى تسقط عين الناظر إلى الطفل على هذه الأشياء وتحميه منها، ويفترض أن يكون في الحجاب آيات قرآنية تحمي الوليد، والحقيقة أن هناك أكثر من إجراء لحماية الطفل من العين الشريرة ومن الحسد، ومنها ما هو شائع وكثير الانتشار كأن تقوم الأم أو إحدى قريباتها بوضع قليل من الشب والملح والحرمل [*] في كفها وتسبع* بها رأس الوليد وتقرأ بعدها المعوذتين سبع مرات ثم تضعها فوق النار وبعد حرقها، تقوم بوضعها داخل قطعة قماش، وحكها فوق رأس الوليد، وهي تردد: «عين الفار وعين الجار وعين الداخل

[*] الشب والحرمل: مادتان تباعان لدى باعة الأعشاب الطبية.

[*] تسبع: أي تقوم بلف يدها سبعة مرات متتاليات على رأس الطفل وهي تردد البسملة.

باب الدار» سبع مرات، ثم ترمها في مكان فيه ماء كالمجاري أو قناة صرف المياه أو دورات المياه، وهي تقول: «العين المحسودة، تروح في المدحوسة».

والمعتقد أن هذا الإجراء كفيل بنزع عين الحاسد من نفس الوليد، وأنه كثير ما ينام الطفل مباشرة بعد هذه العملية، ويهدأ ويرتاح، ولحمايته من القرينة أي الجان، توضع عادة تحت وسادة الطفل أو في المكان الذي ينام فيه، مصحف كما هناك من يضع أشياء أخرى، كحجرة صغيرة قليل من الماء في زجاجة صغيرة، مشط ومرآة وقليل من الخبز اليابس والفيجل * والحرمل والشب والملح* وسكينة صغيرة.

وهناك من يضع هذه الأشياء كلها مجتمعة، وهناك من يضع بعضها فقط، ويقال بأن من يترك طفله محاطا بهذه الأشياء فلا خوف عليه من الجان والشياطين، وقد ذكرت لي إحدى العجائز أسطورة لتوضح لي قدرة رائحة الفيجل القوية على إبعاد الجن، فقالت لي أنه كان ذات يوم أحد المزارعين عائدا من بستانه وقت الغروب ويحمل بين يديه ربطة من الفيجل وقبل مروره بمذبح المنطقة رآه نفر من الجن فأراد أحدهم ضربه ولكنه لم يستطع فقال للآخر، أضربه إن استطعت أنت، إنه يحمل معه "الفشّال" أي الفيجل.

وفي هذا المثال صورة، لارتباط العادات والتقاليد بنواحي أسطورية وخرافية، وهناك من يكتفي برقية الطفل أي بوضع اليد على جبينه وقراءة آيات من القرآن الكريم، وعادة ما يقوم بهذا الوالد.

---

* الفيجل: هو نبتة قوية الرائحة.

* الملح: ملح الطعام العادي.

رابعا: العادات المتعلقة بالتطبيب الشعبي

كثيرا ما يرفض أهل الطفل أخذه إلى المستشفيات أو المراكز الصحية، إلا إذا بلغ المرض درجة يستعصى منها العلاج وذلك لاعتقاد أن حل الأمراض التي تصيبه مصدرها الجن أو العين الشريرة و الحسد وهناك من يعتقد بأن الأطباء لا يفهمون في بعض الأمراض الخاصة بالطفل على حد تعبير إحدى المستجوبات وحاولت هنا جمع بعض طرق التطبيب الشعبي السائدة في علاج أكثرية الأمراض التي تصيب الأطفال الرضع.

أولا: خت الصغار Les convulsions

أو ما يعرف بالفصحى بالقرينة، ما يعرف في الطب الحديث بـ les convulsions ويقال أيضا في العامية للتعبير عن هذا الداء "فيه خوه" أي يسكنه أخوه بمعنى قرينه من الجن، وعن مواصفات هذا الداء، فتتمثل في رفض الطفل للرضاعة وغيابه عن الوعي أحيانا وعند استيقاظه الإكثار من البكاء وهناك عدة طرق يعتقد أنها الأصوب للعلاج في هذه الحالات أكثر انتشارا: أن يغطى الطفل بقطعة من القماش الأسود ويوضع إناء كبير فوق رأسه وتقوم الأم أو إحدى النساء بكسر زجاجة فوق ذلك الإناء.

ويقال بأنه إذا تفطن الأهل بأن الطفل مصاب بالقرينة فعليهم أن لا يذيعوا ذلك ويجب أن يبقى الأمر سرا وإلا خطفه الجن، كما يجب أن لا يترك لوحده، ويبقى

دائما محاطا بأقربائه، وهناك من ذكرت لي بأنها تجلس وتضع وليدها عند رجليها وتغطيه بلباسها وتقرأ المعوذتين والبسملة.

كما هناك من تحضر دم الكلب الصغير، وتمسح به خلف أذني الطفل وعند كوعيه، وتضع قليل منه في لسانه وفكه العلوي وتمسح به ظهر الطفل من أعلى العنق إلى أسفل الظهر، أو تضع قليل من حليب الأم في ملعقة وتخلطه مع النيلة الحرة وقليل من البارود وهي مواد تباع لدى العطارين، تخلطها جيدا وتضع قليل منها خلف أذنه وأسفل ظهره، وفي كوعيه، ثم تضع قليل منها في فمه، ويقال بأنه "فطور خوه"، فيستريح وينام الطفل بعد ذلك.

ثانيا: الليل La déshydratation

يعرف مرض الليل لدى الطفل في العادات الشعبية عندما يكون كفه مر عند المذاق، وأبيض اللون وينتشر وقت وجود الخيار والبطيخ والقرع من بين الخضروات في السوق، أي عندما يرضع الطفل حليب الأم التي أكلت مثل هذه الخضروات يصيبه الليل.

وأما عن طرق علاجه، فهناك من يحلق للطفل وسط رأسه، وهي معروفة بالعامية بـ"القنة" ويكتب الطالب (آيات من القرآن الكريم) أو يشرط له جبهته وبين

عينيه، بشكل سطحي، ويقوم الطالب * بعصر قليل من الدم بين عينيه ووضعه في فكه العلوي.

وهناك امرأة معروفة في المنطقة بقطعها لليل أي بمعالجته، وتدعي بأنه على المريض بالليل أن يزورها صباحا قبل طلوع الشمس، لأنه بعد طلوعها يذهب الليل للنوم على حد تعبيرها وعن أسلوب قطعها لليل فقالت بأنها تقوم: بتدليك الطفل بالقطران. ولم تشأ أن تفصح عن بقية الطريقة المتبعة للعلاج، بحجة أنها حكمة من عند الله، ولا يجب أن تكشف سرها، ولأنها أيضا مصدر رزقها.

كما هناك من تضع قليل من الحنة وقشور الرمان وقشرة البصل في الماء، تغطيهم وتدعهم يبيتون في ضوء النجوم، وصباحا تضع قليل من الماء في بزازة الطفل ويشربها.

وقد ذكرت لي إحدى السيدات المسنات بأنها عالجت كل أطفالها المقدر عددهم بسبعة من الليل، وذلك بأخذهم صباحا قبل طلوع الشمس إلى جذع إحدى أشجار التين المتواجدة في الشارع خارج البيت وتعرف بالعامية بـ"الذكارة" وتقوم بأخذ ورقة من الشجرة أو حبة تين غير ناضجة تعصر حليبها بين عيني الطفل وخلف الأذنين وترميها أمام الشجرة وتعود إلى البيت.

ثالثا: البوسفير L'ictère

* الطالب أو الطلبة هم من يحفظون القرآن الكريم، وكثير منهم من يقوم بعلاج الأمراض عن طريق "التسباب" كما يعرف بالعامية أي كتابة بعض الآيات القرآنية، في إناء وغسل هذا الإناء وشرب الماء أو في طع من الحلوى أو الخبز أو أشياء أخرى وأكلها بعد ذلك.

لعلاجه تقوم الأم بإحضار عشبة تعرف باسم "مليلس" وتغليها في الماء، ثم يشرب الطفل منه، كما تقوم بطحن قليل من الكمون أو الكركب وهي من أنواع التوابل المعروفة، وتخلطها بعسل النحل وتضع قليل منها في فم الطفل. كما هناك من تعطي للطفل "بوله" يقوم بشربه، وهناك من تقوم بطبخ البيض في "بول" الطفل ثم يأكله، وذلك ليشفيه من البوسفير.

رابعا: البوحمرود La rougeole

رغم تعميم التلقيح ضد هذا الداء وتوسع نطاقه منذ مطلع الثمانينات، وبالتالي ندرة انتشاره اليوم، إلا أنني ارتأيت ذكر طرق علاجه التي كانت سائدة إلى وقت غير بعيد حيث يلبسون الطفل لباسا أحمر اللون ويطحن قليل من الحلحال وهو عشبة تباع أيضا لدى العطارين، ويخلط بالزبدة، ويأكل الطفل القليل منه، وهناك من يغلي أزهار النعمان الحمراء، في الماء ليشرب منه الطفل بعد ذلك.

خامسا: السعال الديكي

يخلط قليل من سكر القندلي بالحليب ويشربه الطل أو تدهن جنبي الطفل بالكحول أو "القاز"، ويدفى بألبسة صوفية حتى يشفى.

أو يقطع خضار "اللفت" دوائر صغيرة، وترش بسكر القندلي، ثم يقوم المريض بأكلها فيشفى من السعال.

سادسا: كثرة البكاء

أو ما يعرف بالعامية بالحرنة، فعادة ما يعتقد أن مصدرها العين الشريرة، فتنزع العين بالطريقة التي أوردتها سابقا، وإذا لم تجدي هذه الطريقة نفعا، فهناك قبة سيدي محمد يحي القرابة الشعبي، بميدنة سيدي بلعباس، وقبة سيدي بن سكران، وسط المدينة، تزاران لهذا الغرض فيؤخذ الطفل الذي يكثر من البكاء إلى ساحة إحدى القبتين، وتقوم والدته بدق مسمار في أحد أطراف لباسه فوق بلاط الساحة ثم تقوم برفع الطفل بسرعة، بحيث يبقى قليل من قماش اللباس ملتصق بالمسمار، والمعتقد من وراء هذا الأسلوب هو أن البكاء يبقى ملتصق أيضا بذلك المكان.

وبعيدا عن أساليب التطبيب الممارسة، فهناك بعض التقاليد التي تعود الناس على ممارستها كأن يذبح الديك عند ولادة البين، والدجاجة عند ولادة الولد، وذلك حتى يتزوج كل منهما ولا يبقيان من دون زواج.

أو بالنسبة للطفل الذي ينام نهارا ويستيقظ ليلا فيكفي أن تقوم الأم بلبس ألبستها بالمقلوب وتلبس طفلها الأبسة الداخلية بعكس ما تعودت فعله، ثم تقوم بكنس البيت من الخارج إلى الداخل بدل العكس، حتى يعود الطفل إلى عادة النوم ليلا والاستيقاظ نهارا.

كما أن الطفل الذي يتأخر في المشي فتقوم والدته بإحضار سلحفاة إلى البيت وتغسل له أقدامه فوق السلحفاة، وتضع رجلاه سبعة مرات متتاليات فوقها، وتنتظر أن يمشي الطفل بعد ذلك، وفور رميه الخطوات الأولى، ترمي الأم قليل من الماء بين رجليه، حتى يجري كالماء.

أما بالنسبة للذي لا يتكلم باكرا، فتجمع له سبعة ألسنة خرفان، يشترط أن تكون أضحيات عيد، وتقوم بطبخهم وتقديمهم للطفل ليأكل منها.

وحتى يبقى الطفل هادئ وكثير النوم وقليل البكاء، فتخرج النفساء من مكانها إلى خارج البيت، وفي سرها تحضر حجرة بإصبع رجلها إلى غاية داخل البيت، ثم تضعها في سرير الطفل أو المهد، فيبقى كالحجرة ساكنا وهادئا.

وعندما تخرج الأم لأول مرة وليدها من البيت، تضع في سريره "كسكاس"، وهو الإناء الذي يطبخ فيه الكسكس، حتى لا يأخذ مكانه قرينه من الجن. وعند عودتها تمسح له أقدام رجليه بملعقة كبيرة وتردد: "قلعت لك الشوك بالمغرف" حتى لا يسقط أو تصيبه العين.

وعندما يبلغ تسعة أشهر أو السنة، هناك من يحلق له رأسه، ويؤخذ عادة إلى الحمام ويدخل بالشموع والزغاريد وعند استحمامه ترمي الأم باللباس الذي دخل به في ركم من أركان الحمام والاعتقاد من وراء هذا الفعل هو ترك المرض والألم مع ترك اللباس، كما ترشه بالسكر والكمون وعند خروج الأم من الحمام فلا ترضع طفلها بعد ذلك مباشرة حيث يكون الحليب ساخنا وقد يضر الطفل، وعليها أن تضع أقدامها في الماء البارد حتى يبرد الحليب في جسدها، بعد ذلك فقط يمكنها أن ترضعه.

وفي قدوم العيد الكبير كما يعرف بالعامية أي عيد الأضحى تضع الأم لطفلها قليل من الحنة في اليد اليسرى ورجله اليمنى أو العكس ويقال أنه من الأحسن أن تضع له الحنة في العيد الكبير حتنة يشب قلبه كبيرا ولا يكون سريع الغضب.

وعندما تريد المرضعة فطم طفلها، فتضع قليل من مادة تباع لدى العطارين تعرف باسم "مر واصبر" نظرا لمرارة ذوقها، وذلك حتى ينفر من طعم الحليب ويستطيع نسيان عادة الرضاعة.

كما هناك طريقة أخرى وهي "التسباب" الذي سبق وأن شرحت معناه أي أخذه عند الطالب ليكتب له في البيض المسلوق أو في الحلوى ويقوم بأكلها الطفل وقد استطعت أن استجوب أحد هؤلاء الطلبة وسألت عن محتوى ما يكتبه فردّ علي بذكر الآية التالية:

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إن رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون له عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون».[192]

[192] الآيات 6، 7، 8، 9، 10، 11، 12 من سورة القصص.

أو تكتب فقط الآية من « وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون».[193] ويأكل الطفل قطعة الحلوى أو البيضة التي تكتب فيها الآية القرآنية الكريمة.

ووفقا للعادات والتقاليد دائما، فإن الطفل الذي يسيل لعابه كثيرا يقال بأنه "مرزوق" أي يجلب الرزق لوالديه عندما يكبر كما أن ذلك الذي يتخذ شعره شكر دائري ويأخذ كشكل النخلة يقال عنها أنها "نخلة الربح" أي أنه سعيد الطالع والطفل الذي يضع أحد رجليه فوق الأخرى عندما ينام بأن أمه ستلد بعده مثله في الجنس إن كان ذكرا أو أنثى.

والطفل الذي يضحك كثيرا عندما يدغدغ يقال أنه يكبر غيورا من غيره إلى غير ذلك من الاعتقادات الكثيرة السائدة، وهي كثيرة، وفي المبحث الموالي سوف نتطرق إلى نتائج الاستجوابات والاستمارات التي قمت بها في مصلحة طب الأطفال.

[193] الآية رقم 11 من سورة القصص.

المبحث الثاني: الدراسة الميدانية التي أجريت مع الأمهات والأطباء (دراسة مقارنة)

عرض للجداول مع قراءة تفسيرية:

مناقشة الفرضية الأولى:

لمناقشة الفرضية لأولى

العادات والتقاليد المتوارثة تحمل العديد من القيم التي يسعى المجتمع لتكريسها الحفاظ عليها، وهذا ما يجعلها محتفظة دائما بمكانتها في نفوس الأفراد وصامدة في وجه التغيير والحداثة والتفتح العالمي.

الجداول التي تخدم الفرضية من العينة المسنات.

الجدول رقم 1 المتعلق بالسؤال رقم 46 حول ما إذا كانت الأمهات تلجأن أكثر إلى العادات والتقاليد.

	التكرارات	النسبة
نعم	13	%13
لا	87	%87
المجموع	100	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 100 مبحوثة من النساء المسنات، في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

كان هذا السؤال 46 من جملة أسئلة المقابلات التي أجريت مع الجدات المسنات، وقد بدت أغلبية المستجوبات مقتنعات في إجاباتهن بأن الاتجاه السائد في الوقت الراهن هو نحو ما هو طبي، وبأن التقدم العلمي، وارتفاع المستوى السوسيو ثقافي والاقتصادي للناس جعلهم يتبعون ما هو متجدد ومتماشي مع روح العصر، في حين أن 13 مستجوبة، لم تردد في التأكيد على أن عادات الأجداد المتوارثة، لا يمكنها أبدا أن تزول.

الجدول رقم 2 المتعلق بالسؤال رقم 47 حول الشعور بالحنين نحو العادات والتقاليد الاجتماعية.

	التكرارات	النسبة
نعم	100	%100
لا	00	%00
المجموع	100	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 100 مبحوثة من النساء المسنات، في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

إن هذا السؤال جعلنا نضع أيدينا على مكمن الجرح لدى النساء المسنات واللواتي، بالرغم من مرارة إحساسهن بفقدان السيطرة على ما كان بالأمس القريب يشكل مساحة لخصوصيتهن، يستطيعون من خلاله ممارستهم للتقاليد، الاستمرار في الحياة الاجتماعية، وبعطاءاتهم كن يشعرن دوما بتلك المكانة المعززة التي منحتها لهن وظائفهن الاجتماعية داخل الأسرة، فالكل يشعر بذلك الحنين إلى الماضي (تطوير أكثر العدي الهواري وصورة الشيخ بين الأمس واليوم مكانة الشيخ في كتاب المسنين).

الجدول رقم 03 المتعلق بالسؤال الثاني هل ترى بأن أساليب العناية بالرضيع المستمدة من العادات والتقاليد منتشرة أو قليلة الانتشار؟

	التكرارات	النسبة
منتشرة	28	%40
قليلة الانتشار	42	%60
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

من مجموع 70 طبيب، يرى 60% منهم من خلال ممارساتهم المهنية اليومية بأن أساليب العناية بالرضع المستمدة من العادات والتقاليد قليلة الانتشار .

الجدول رقم 04 الخاص بالسؤال الرابع حول أساليب التطبيب الشعبي الخاص بالرضع.

	التكرارات	النسبة
منتشرة	27	%38,6
قليلة الانتشار	43	%61,4
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

تماشيا مع نتائج الجدول السابق، فإن 61,4% يرون أيضا بأن أساليب التطبيب الشعبي قليلة الانتشار.

آراء الأطباء

الجدول رقم 05 المتعلق بالسؤال الأول المتعلق برأي الأطباء حول مكانة العادات و التقاليد المتوارثة في حياتنا اليومية.

	التكرارات	النسبة
ضرورية	3	%4,3
مستحسنة	53	%75,7
لا حاجة لها	14	%20
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

وربما هذا راجع للروح العلمية التي قد لا تقيل الكثير من الأشياء الغير مؤسسة منطقيا في العادات والتقاليد والممارسات الحاملة أو المرافقة لها.

75,7% من مجموع العينة يرون أن العادات الاجتماعية بشكل عام مستحسنة وليست ضرورية، في حين ينظر 20% منهم أنه يمكن الاستغناء عنها، ولا حاجة لها اجتماعيا.

الجدول رقم 06 التعلق بالسؤال رقم 27 والمتعلق بتمسك الناس بالعادات والتقاليد.

	التكرارات	النسبة
نعم	60	%85,7
لا	10	%14,3
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

وعند سؤالنا عن رغبة الناس في التمسك بالعادات والتقاليد الاجتماعية بشكل عام دون الإشارة إلى تلك الخاصة برعاية الرضع بشكل خاص. فأجاب الأطباء نسبة 85,7% بالإيجاب وبأن في تقديرهم الخاص هناك بالفعل رغبة اجتماعية في التمسك بالعادات الاجتماعية عموما.

الجدول رقم 07 المتعلق بالسؤال رقم 8 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات والمتعلقة بما إذا كان هناك من يجبر الأم على إتباع العادات والتقاليد في رعاية الرضع.

	التكرارات	النسبة
نعم	37	%18,5
لا	163	%81,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

من هنا نلاحظ أنه قد يكون هناك تراجع من طرف جيل المؤطرين، أي الأجيال السابقة فيما يخص بفرض رؤاهم ووجهات نظرهم حول مسائل كانت تشكل بالماضي القريب الأرض الخصبة التي تمارس فيها الجدات والنساء المسنات سلطاتهم على الأمهات، وهذا ما قد يتأكد لنا لاحقا.

الجدول رقم 08 المتعلق بالسؤال 10 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات والمتعلقة بحالة ما إذا كان هناك من يقترح على الأمهات بعض الطرق التقليدية الخاصة برعاية الرضع؟

	التكرارات	النسبة
نعم	129	%64,5

لا	71	%35,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

عندما يتعلق الأمر بإعطاء النصيحة، فلا يزال المسنون من الأصدقاء والجيران والأهل في المقدمة مستعدين لمنح بعض معارفهم حول رعاية الرضع.

وهذا ما يثبته أيضا الجدول الآتي:

الجدول رقم 09 المتعلق بالسؤال 11 حول هوية من يقدم النصائح اقتراحا لا إلزاما.

	التكرارات	النسبة
المسنين	125	%62,5
الجيران	4	%2,0
الأصدقاء	5	%2,5
غير معنيين بالإجابة	66	%33

المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

الجدول رقم 10 المتعلق بالسؤال رقم 12 حول ماذا يتناول الرضيع عادة بعد الولادة ما عدى الحليب.

	التكرارات	نسبة الإجابات	نسبة الحالات
يتناول العسل	98	%41	%49,5
يتناول زيت الزيتون	15	%6,3	%7,6
يتناول صفار البيض	60	%25,1	%30,3
يتناول الأعشاب الطبية	5	%2,1	%2,5
لا يتناول شيء	8	%3,3	%4,0
يتناول التمر	44	%18,4	%22,2
الماء المحلى	9	%3,8	%4,5

المجموع	239	%100	%120

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

لقد بدا لنا هذا السؤال جد مهم لمعرفة مدى إتباع الأمهات في الحاضر للعادات الاجتماعية في طريقة العناية بالرضع، خصوصا ما يتعلق بما يتناوله الرضيع، وهو ما يتماشى مع سؤال كنا طرحناه للجدات في المقابلة التي أجريناها معهن، حول أهمية الفطور الاعتيادي الذي يقدم للرضع وبالفعل نرى هنا أن 49,5% من مجموع المبحوثات يقدمن العسل لأطفالهن أمام 30,3% يقدمن صفار البيض وسنرى ما يفكر في ذلك الأطباء فيما بعد أمام 4% لا يقدمن شيئا ما عدا الحليب للرضع.

الجدول رقم 11 الخاص بالسؤال 21 من أسئلة المقابلة الموجهة للجدات حول أهمية الفطور الذي يتناوله الرضع.

	التكرارات	النسبة
نعم	98	%98
لا	2	%2
المجموع	100	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 100 مبحوثة من النساء المسنات، في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

لقد جاءت الإجابات لتؤكد أن 98% من المستجوبات المسنات يرون بأن الفطور ضروري بالنسبة للرضع... ولقد فصلنا في مدخل هذا الفصل الميداني معنى الفطور وأهميته في الاعتقادات الشعبية السائدة.

الجدول رقم 12 الخاص بالسؤال 14 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات حول الاعتقاد في فائدة العسل للرضع.

	التكرارات	النسبة
نعم	177	%88,5
لا	23	%11,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

نجد من خلال هذا الجدول أن 88,5% من مجموع المستجوبات يعتقدن أن العسل مفيد للصحة، وهو اعتقاد متوارث يؤيد ما وجداه في الجدول رقم 3، حيث تبين أن 49,5% من الأمهات، يمنحن أطفالهن العسل كأول وجبة، بعد الولادة.

الجدول رقم 13 والخاص بالسؤال رقم 15 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات والمتعلق بكيفية العناية بالحبل السري.

	التكرارات	النسبة
الكحل	19	%9,5
الحنة	8	%4,0
الأدوية	173	%86,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يتضح لنا من هذا الجدول أن هناك تراجع بالفعل في الاستعانة بالأساليب التقليدية، إذ نجد أنه عندا يتعلق الأمر بالحبل السري، وهو موضع جد حساس في

جسم الرضيع فإن 86,5% من الأمهات اختزن استعمال الأدوية بدل استعمال الكحل أو مواد تعليبية أخرى وهي ما كان شائعا في الماضي، وهو ما يتنافس مع آراء النساء المسنات إذا كشفق لنا الجدول الآتي وأي معايير تماما.

الجدول رقم 14 والخاص بالسؤال رقم 25 من المقابلة المصممة لاستجواب النساء المسنات.

	التكرارات	النسبة
أساليب تقليدية	81	%81
أساليب طبية	2	%2
الاثنين معا	17	%17
المجموع	100	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 100 مبحوثة من النساء المسنات، في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

فهذا الجدول يوضح أن المسنات يفضلن إتباع الأساليب التقليدية، وعدد كبير منهن صرحن لنا في المقابلة بأن طريقة الاعتناء المثلى الآن بالحبل السري تكون باستعمال ضمادات معقمة والأدوية، وفي حالة عدم الشفاء، يوضع الكحل أو الشب، التي تعده الكثيرات أمثل طريقة لعلاج الحبل السري، وما قد يصيبه من التهابات.

الجدول رقم 15 والمتعلق بالسؤال رقم 16 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات الخاص بالعناية بعيني الرضيع.

	التكرارات	النسبة
الكحل	43	%21,5
الأدوية	155	%77,5
وسيلة أخرى	1	%0,5
غير مصرح	1	%0,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

مرة أخرى نجد أن أغلبية الأمهات المبحوثات 77,5% تختار الأدوية في الاعتناء بعيني الرضيع، أمام 21,5% يفضلن الكحل، وهو تقليد متوارث كان معمول به، ولا يزال البعض يفضله على الأدوية، وذلك اعتقادا أن ذلك يجعل نظره يصبح حادا والعينين واسعتين وجميلتين (حسب آراء النساء المسنات).

الجدول رقم 16 والمتعلق بالسؤال رقم 17 الخاص باستحمام الرضيع فور ولادته.

	التكرارات	النسبة
نعم	100	%50
لا	100	%50
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

إن هذا الجدول يبين لنا أن 50% م النساء المستجوبات يغسلن لأطفالهن فور الولادة أمام 50% يرفضن ذلك تخوفا من الإصابة بالبرد أو بمكروه آخر فللاستحمام طقوس أخرى كنا قد أشرنا لها عندما استعرضنا ذلك الكم الهائل من العادات والتقاليد المتوارثة والمتعلقة برعاية الرضع التي أفادتنا بها النساء المسنات.

الجدول رقم 17 والمتعلق بالسؤال رقم 19 الخاص بالاعتقاد أولا في إصابة الرضيع بالأذى بعد الاستحمام.

	التكرارات	النسبة
نعم	39	%19,5
لا	111	%55,5
أحيانا	50	%25,0
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

هذا الجدول يؤكد لنا أن 55,5% من الأمهات لا يعتقدن أن الاستحمام قد يؤذي الرضيع، ولكهن لا يقمن كلهن بذلك، الأفكار المتوارثة حول ضعف جسم الرضيع أمام إمكانية إصابته بمس من الجن أو العين جراء تجريده من ملابسه للمرة الأولى، كما سنرى ذلك فيما بعد عند تحليل النتائج.

الجدول رقم 18 والمتعلق بالسؤال رقم 20 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات الخاص بـ(التقماط).

	التكرارات	النسبة
نعم	168	%84,00
لا	31	%15,5
غير مصرح	1	%0,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يبين لنا هذا الجدول أن أكثر من 80% يستعملن القماطة أمام 15,5% فقط لا يستعملن ذلك وهي تعتبر التقليد المتوارث الأكثر شيوعا.

الجدول رقم 19 والمتعلق بالسؤال رقم 21 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات والخاص بالاعتقاد بضرورة القماطة.

	التكرارات	النسبة
نعم	117	%58,5
لا	37	%18,5

أحيانا	45	%22,5
غير مصرح	1	%0,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يبدو من خلال هذا الجدول أن 58,5% يعتبرن أن القماطة ضرورية للطفل الحديث الولادة. سنقدم بعض المعلومات الحديثة عن هذا الأسلوب الشائع الاستعمال حتى في الدول المتقدمة و التي لا تقاسمنا نفس الموروث الثقافي .

الجدول رقم 20 والمتعلق بالسؤال رقم 22 منم الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات والخاص بدوافع إتباع أسلوب القماطة.

	التكرارات	النسبة
لمجرد إتباع التقاليد	32	%16
لفائدة ذلك لصحة الطفل	42	%21
حتى لا يؤذي نفسه بالخدش	45	%22,5

من أجل قوام سليم	49	%24,5
غير معيين بالإجابة	32	%16
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

هذا الجدول إنما يبين لنا أهمية العادات الاجتماعية إذ نجد أن 16% من المستجوبات اللواتي تفضلن إتباع أسلوب التقماط، يقمن بذلك لمجرد كونها عادة متوارثة أمام 21% مثلا يعتقدن بأن ذلك مفيد صحيا للرضيع، ذلك أن المسنين هم من نقلوا للجيل المؤطر هذه الاعتقادات.

الجدول رقم 21 المتعلق بالسؤال رقم 23 الخاص بإقبال الأمهات على التدليك بالزيوت لأطفالهن أم لا.

	التكرارات	النسبة
نعم	158	%79
لا	38	%19
غير مصرح	4	%2

المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

جدول يبين أن 79% من الأمهات يستعملن التدليك بالزيوت وهو أمر متوارث أيضا، أمام 19% لا يقمن بذلك. أما عن نوعية الزيوت المستعملة فهذا ما يوضحه لنا الجدول الآتي.

الجدول رقم 22 المتعلق بالسؤال رقم 24 حول أنواع الزيوت المستعملة للتدليك.

	التكرارات	النسبة
زيت الزيتون	107	%53,5
زيت المائدة	38	%19
زيوت الصيدلية	17	%0,5
غير معني	38	%19
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

الزيت الأكثر استعمالا في التدليك هو زيت الزيتون لفوائده الصحية طبعا، ورغم ذلك فهناك 8,5% من النساء من تستعمل الزيوت التي تباع عند الصيدلاني.

الجدول رقم 23 المتعلق بالسؤال رقم 31 والخاص بتناول الرضيع لمنقوع الأعشاب les tisanes من طرف الأمهات.

	التكرارات	النسبة
نعم	175	%87,5
لا	22	%11,2
غير مصرح	3	%1,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

نجد من خلال هذا الجدول أن 87,5% من الأمهات يمنحن أطفالهن منقوع الأعشاب وهذا ما يحيلنا إلى أهمية الأعشاب الطبيعية في ما يسمى بالتطبيب الشعبي وهي أمور متوارثة و86% يظنون بأن ذلك ضروري حسب ما يبينه الجدول الآتي.

الجدول رقم 24 المتعلق بالسؤال رقم 33 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات.

	التكرارات	النسبة
نعم	172	%86
لا	27	%13,5
غير مصرح	1	%0,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

نجد أن 27% فقط لا يظنون بأن تناول منقوع الأعشاب ضروري.

الجدول رقم 25 والمتعلق بالسؤال رقم 55 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات والخاص. بما إذا كانت الأم تشعر بالأمان عند وجود شخص مسن لرعايتها ورعاية مولودها عند الوضع.

	التكرارات	النسبة
نعم	151	%75,5
لا	19	%9,5
أحيانا	30	%15
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

من خلال هذا الجدول يتبين لنا أن 75,5% من الأمهات يشعر بالأمان عند وجود أشخاص مسنين، لرعايتهن ورعاية أطفالهن وهو ما يثبت دائما ثقة المجتمع في العادات المتوارثة.

الجدول رقم 26 والمتعلق بالسؤال رقم 56 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات، والخاص بحاجة الطفل إلى طبيب مختص أو أشخاص مسنين لهم دراية بشؤون الرضع أو الاثنين معا فكانت الإجابات كالتالي:

	التكرارات	النسبة
الأطباء المختصين	50	%25
المسنين	24	%12
الاثنين معا	24	%12
غير مصرح	1	%0,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يبدو أنه في الوقت الراهن هناك اتجاه واضح نحو تبني الأساليب الطبية التي هي عملية ولكن دون إغفال ذلك الرقم الهائل من العادات الاجتماعية التي تكون قد أثبتت جدارتها بالاتباع منذ عصور وعصور.

إذ أن 62,5% يفضلن إتباع آراء الأخصائيين وأيضا المسنين في رعاية الرضع.

الجدول رقم 27 والمتعلق بالسؤال رقم 57 من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات، والخاص بالمصادر التي تستمد منها الأمهات طرق رعايتهن للرضع.

	التكرارات	نسبة الإجابات	نسبة الحالات
المحيط الأسري	161	%58,1	%87
الطبيب المعالج	70	%25,3	%37,8
كتب ومجلات	23	%8,3	%12,4
الإنترنت	9	%3,2	%4,9
نصائح الأصدقاء	14	%5,1	%7,6
المجموع	277	%100	%149,7

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يبين لنا هذا الجدول أنه إذا كانت نسبة 58,1% تعتمد على المحيط الأسري والنصائح المقدمة لها في رعاية الرضع، فإن 25,3% فقط تعتمد على الأطباء المعالجين، أمام 3,2% فقط تعتمد على وسائل لا تزال حديثة نسبيا كالإنترنت.

الجدول رقم 28 والمتعلق بالسؤال السابع الخاص بمن يتكفل برعاية الطفل فور ولادته من الاستمارة الاستبيانية الموجهة للأمهات.

	التكرارات	نسبة الإجابات	نسبة الحالات
الأم الوالدة	123	%53,5	%61,8
والدة الأم	64	%27,8	%32,2
الحماة	43	%18,7	%21,6
المجموع	230	%100	%115,6

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

ومن خلال هذا الجدول يتبين لنا أن نسبة كبيرة وهي 53,5% من الأمهات يشرفن شخصيا على رعاية أطفالهن الرضع، وقد يكون ذلك بسبب انتشار ظاهرة السكن الفردي، إذ قد نجد الأم نفسها وحيدة، في مواجهة مولودها الجديد، فتقوم بالتكفل شخصيا بهذه المهمة. وهو ما سنسعى للتأكد منه في تحليل الفرضية الثانية.

مناقشة الفرضية الثانية:

بالرغم من مكانة العادات والتقاليد في النفوس إلا أنها لا تضاهي الأساليب الطبية الحديثة في الأمن والسلامة الطبية للأطفال.

الجدول رقم 29 والخاص بالسؤال الأول من الاستمارة الموجهة للأمهات والمتعلق بمكان الولادة.

	التكرارات	النسبة
في البيت	1	%0,5
في المستشفى	177	%88,5
في عيادة خاصة	22	%11
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

إن هذا الجدول جد مهم إذ يعطينا صورة عن التغيير الذي طرأ على المجتمع الجزائري، في الذهنية، ففي الماضي القريب كانت الأم تضع مولودها على يد القابلات التقليديات، وهي مهنة كانت شائعة قبل انتشار المراكز الاستشفائية، بالشكل

الذي هي عليه الآن، فالأسباب اقتصادية ولكن أيضا ثقافية واجتماعية، إذ كان المجتمع في الماضي يحبذ المرأة أن تلد داخل البيت مستورة على أن تذهب للمستشفيات فالمعايير الاجتماعية السائدة آنذاك لم تكن تسمح للمرأة بمغادرة المنزل حتى للعلاج، بسبب ما قد تجلبه من العار للعائلة حسب ما جاءت به فضيلة لمرابط في كتابها جزائريات وعموما يمكن التماس هذا التغيير الاجتماعي ما بين هذه الدراسة التي أجريناها الآن، وما بين دراسة مماثلة حول صيغة العادات الاجتماعية المتعلقة برعاية الرضع في منطقة سيدي بلعباس في سنة 2000-2001 حيث تبين لنا أنه من بين 100 مبحوثة هناك ثمانية كانت تقوم بوضع موالدهن في البيت.

الجدول رقم 30 الخاص بالسؤال الثاني من الاستمارة الاستبيانية الخاصة بالأمهات والمتعلق بأخذ الرضيع لزيارة الطبيب أم لا.

	التكرارات	النسبة
نعم	158	%79
لا	17	%8,5
أحيانا	25	%12,5
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

عموما يكون إجراء روتيني أن يزور الطبيب الرضيع عند ولادته، ولكن وأمام الحالات الخاصة التي قد تقع، فإننا وجدنا أن 8,5% لا يأخذن أطفالهن لزيارة الطبيب بعد الولادة، للتأكد من سلامتهم البدنية، أمام 79% يفعلون ذلك.

الجدول رقم 31 الخاص بالسؤال الثالث من الاستمارة الاستبيانية الخاصة بالأمهات والمتعلق بآراء المستجوبات حول ضرورة الرعاية الطبية للرضع.

	التكرارات	النسبة
نعم	158	%79
لا	6	%3
أحيانا	36	%18
المجموع	200	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 200 مبحوثة من الأمهات في دراسة ميدانية لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثربولوجيا بعنوان رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

من خلال هذا الجدول يتضح لنا أن أخذ الرضيع لزيارة الطبيب تبدو ضرورية بالنسبة لـ79% من المستجوبات، في حين 3% لا يعتبرن ذلك ضروريا.

الجدول رقم 32 الخاص بالسؤال رقم 5 من الاستمارة الموجهة للأطباء والمتعلق برأيهم في أساليب التطبيب الشعبي الخاصة بالرضع.

	التكرارات	النسبة
أحيانا مفيدة	46	%65,7
ليست مفيدة	24	%34,3
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

إن نسبة 34,8% من الأطباء يرون بأن أساليب التطبيب الشعبي ليست مفيدة ولكن 65,7% يرون أنها قد تكون مفيدة أحيانا.

الجدول رقم 33 الخاص بالسؤال رقم 6 من الاستمارة الموجهة للأطباء والمتعلق بما إن كانت أساليب التطبيب الشعبي مضرة أم لا.

	التكرارات	النسبة

أحيانا مضرة	62	%88,6
ليست مضرة	8	%11,4
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يبين هذا الجدول رأي الأطباء حول الآثار السلبية لأساليب التطبيب الشعبي ويقر 88,6% مهم بأنها قد تكون مضرة.

الجدول رقم 34 الخاص بالسؤال 7 من الاستمارة الموجهة للأطباء والمتعلق بما إن صادف الأطباء حالات كانت فيها الأساليب التقليدية مفيدة.

	التكرارات	النسبة
نعم	25	%35,7
لا	28	%40
أحيانا	17	%24
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يرى 40% من بين الأطباء المستاجوبين أنهم فعلا صادفوا في حياتهم حالات شفي أصحابها بلجوئهم إلى الأساليب التقليدية.

الجدول رقم 35 الخاص بالسؤال رقم 8 في الاستمارات الموجهة للأطباء. والمتعلق بما إن صادف الأطباء حالات تعقدت وزادت خطورتها بفعل إتباع الأساليب التقليدية.

	التكرارات	النسبة
نعم	65	%92,9
لا	3	%4,3
غير مصرح	2	%2,9
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

وفي هذا الجدول يتضح لنا أن 92,9% من الأطباء المبحوثين صادفوا بالفعل حالات تعقدت بفضل انتهاج أصحابها لأساليب التطبيب الشعبي.

وقد أوضح لنا هؤلاء أن هذه الحالات في الغالب هي حالات الحمى، ارتفاع درجة الحرارة، والصرع والإسهال التي كثيرا ما تصيب الأطفال.

الجدول 36 الخاص بالسؤال 10 والمتعلق بمدى اعتقاد المبحوثين من الأطباء في فاعلية ونجاعة الأساليب المستمدة من العادات والتقاليد في التطبيب.

	التكرارات	النسبة
نعم	12	%17,1
لا	42	%60
أحيانا	16	%22,9
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

60% من الأطباء لا يؤمنون بفاعلية ونجاعة الأساليب التقليدية في التطبيب الشعبي أمام 17,1% يؤمنون بذلك.

الجدول 37 والخاص بالسؤال رقم 14 المتعلق بما إن كان الطبيب المستجوب يوصي مرضاه بعدم اللجوء إلى الأساليب التقليدية في رعاية الرضع.

	التكرارات	النسبة
نعم	31	%44,3
لا	14	%20
أحيانا	25	%35,7
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

44,3% من الأطباء يوصون مرضاهم بعدم اللجوء لأساليب التطبيب الشعبي عامة، لما قد تسببه من آثار قد تكون وخيمة على صحة المريض حسب اعتقاد الأطباء.

الجدول رقم 38 المتعلق بالسؤال رقم 15 من الاستمارة الموجهة للأطباء حول إقباله أم لا على منع الأقرباء من اللجوء للأساليب التقليدية في رعاية الرضع.

	التكرارات	النسبة
نعم	35	%50
لا	6	%8,6
أحيانا	29	%41,4
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

من خلال هذا الجدول يتبين لنا أن 50% من الأطباء المستجوبين يقبلون على منع أقربائهم من اللجوء للأساليب التقليدية في رعاية الرضع...

كما قد صرحوا لنا أنه في الغالب في حالات كالإسهال أو الحساسية أو ارتفاع درجة الحرارة والحمى.

الجدول 39 المتعلق بالسؤال رقم 17 من الاستمارة الموجهة للأطباء حول رأيهم حول ما هو مستمد من التقاليد والعادات في رعاية الرضع.

	التكرارات	النسبة

غير صحي ومنطقي	59	%84,3
أحيانا منطقي وصحي	11	%15,7
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يبدو أن 84,3% من الأطباء المبحوثين لا يرون أن التقاليد صحية ومنطقية في حين أن 15,7% يرون أنها أحيانا منطقية وصحية.

الجدول رقم 40 المتعلق بالسؤال رقم 18 بالنسبة لنفس الاستمارة الموجهة للأطباء حول فائدة الكحل.

	التكرارات	النسبة
مفيد	7	%10
مضر	36	%51,4
تقليد لا يفيد ولا يضر	27	%38,6

المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يتبين لنا من هذا الجدول أن 51,4% من الأطباء يرون أن الكحل مضر بصحة عيي الرضيع في حين أن 38,6% يرون أنه مجرد تقليد لا يفيد ولا يضر.

الجدول رقم 41 المتعلق بالسؤال رقم 19 من نفس الاستمارة والمتعلق بفائدة القماطة بالنسبة للأطباء.

	التكرارات	النسبة
مفيدة	34	%48,6
غير مفيدة	34	%48,6
غير مصرح	2	%2,9
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

الجدول رقم 42 المتعلق بالسؤال رقم 20 من نفس الاستمارة والمتعلق بإمكانية التضرر من القماطة.

	التكرارات	النسبة
أحيانا	67	%95,7
أبدا	2	%2,9
غير مصرح	1	%1,4
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يرى 95,7% من الأطباء المبحوثين أن القماطة قد تضر أحيانا الرضيع.

الجدول رقم 43 المتعلق بالسؤال رقم 21 من نفس الاستمارة حول فائدة الحنة والزيوت والتمر الذي يستعمل في العناية بالحبل السري.

	التكرارات	النسبة
مضر	52	%74,3
مجرد تقليد لا ينفع ولا يضر	13	%18,6
غير مصرح	5	%7,1
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

74,3% من الأطباء المبحوثين يرون أن مثل هذه الممارسات قد تضر الطفل الرضيع، وذلك نظرا لحساسية تلك المنطقة من جسم الرضيع.

الجدول رقم 44 المتعلق بالسؤال رقم 22 من نفس الاستمارة والخاص بفائدة منقوع الأعشاب للرضع.

	التكرارات	النسبة
مفيدة	59	%84,3
لا تنفع ولا تضر	11	%15,7

المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

يرى 84,3% من الأطباء المستجوبين أن منقوع الأعشاب مفيد من حيث أن قد يهدئ الطفل غير أنه هناك آراء أخرى سنتطرق لها فيما بعد حول أهمية تناول الرضع لغذاء كامل متكامل في أول أشهر حياته.

الجدول رقم 45 المتعلق بالسؤال رقم 23 من نفس الاستمارة الموجهة للأطباء والخاص بالتطور الاعتيادي الذي يتناوله الرضيع وأهميته أو أضراره على فيزيولوجية الطفل.

	التكرارات	النسبة
مفيد	13	%18,6
مضر	48	%68,6
تقليد لا يفيد ولا يضر	9	%12,9
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

لقد تطرقنا أعلاه في جرد كل تلك العادات والتقاليد والخاصة برعاية الرضع في المنطقة إلى أهمية التطور في تقاليد رعاية الرضع، وكل مكوناته وخطورتها أو فوائدها أحيانا غير أن الأطباء المبحوثين يرون أنها مضرة بنسبة 68,6% وبأنها مجرد تقليد لا ينفع ولا يضر بنسبة 12,9%.

الجدول رقم 46 والمتعلق بالسؤال رقم 24 من نفس الاستمارة الموجهة للأطباء بأسلوب التشراط في رأي الأطباء.

	التكرارات	النسبة
مفيد	4	%5,7
مضر	59	%84,3
غير مصرح	1	%1,4
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

5,7% من الأطباء المستجوبين يرون أنه مفيد كأسلوب في حين أن 84,3% يرون أنه مضر.

الجدول رقم 47 والمتعلق بالسؤال رقم 25 من نفس الاستمارة الموجهة للأطباء والخاص بحالات تعقدت بفعل استعمال التشراط.

	التكرارات	النسبة
نعم واجهت حالات تعقدت بسبب التشراط	47	%67,1
لا لم أصادف في حياتي المهنية	23	%32,9
المجموع	70	%100

المصدر: بحث ميداني أجري مع عينة مكونة من 70 طبي لإجراء دراسة لإعداد رسالة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بعنوان: رعاية الرضع قراءة في العادات والتقاليد المنتشرة في سيدي بلعباس ومقارنتها بالأساليب الطبية الحديثة.

ولقد أكد لنا 67,1% من الأطباء المستجوبين أنهم بالفعل صادفوا في حياتهم المهنية حالات تعقدت بفعل اعتمادهم على التشراط كأسلوب علاج تقليدي.

تخمينات حول خاتمة العمل

ان بحث كهذا أردنا من خلاله الوقوف بالدرجة الأولى على الفروق الصحية بين ما هو تقليدي و ما هو حجيث جعلني أشعر بأنني فوق رمال متحركة فلم أستطع التطرق الى الموضوع دون التطرق للعادات و التقاليد و مواجهتها للتغيير هذا التغيير الذي أصبح جزء من حياة الانسان على اعتبار أن الحاضر حامل لكل جديد و أن الزمن لا يتوقف عند الماضي و أننا نسارعه كما يسارعنا فلا نستطيع البقاء متمسكين بأسالب حياتنا خلفه

و مع كل ما يعترينا من خوف من الجديد المجهول ننتشي حينا باكتشافه و ننبهر بمزاياه و حينا آخر و لأن البنيات لم تتحدد معالمها في هذا الجديد المتخرك على الدوام لأننا نعيش عصر التحولات الغير محدودة لا في الزمن و لا في المكان تحولات لا تعطينا ختى دقات ثواني لاستيعابها مع هذا و أحيانا نحن لماصينا عندما نحن للراخة و الى أشكال طال أمد التغيير فيها بشكل بدت معه ثابثة مستقرة فكما قال لي أحد الأطباء المستجوبين الحياة كانت محكمة البناء الآن لا شيء يعرف الثبات و الاستقرار كل ما يحيط بنا وقتي غير دائم يبعث على الخوف من هذه الحياة زمن المخاطر و المغامرات على كل الأصعدة كما قال بعض الاجتماعيين و لكن مع تأمل بسيط للأشياء و للوقائع ما الذي تغير في هذه الحياة ؟ و من أي منظور ننظر الى هذا التغير الحاصل ؟ الصناعي التكنولوجي السياسي أم الاعلامي ثورة المعلومات العارمة التي مست كموجات التسونامي ما مصدر شعور الفرد منا بأن الوقت أضحى لا يستجيب لقوانينه السابقة ؟من أين

يأتينا هذا الاحساس بالمرور السحري للوقت و تسارعه ؟ ألا تجب علينا اعادة النظر في العدسات التي استعنا بها حتى اللحظة لمحاولات الامساك برأس المتيهة ؟

أليس الأنسان هو محور كل شيء هو الفاعل و المفعول به في نفس الآن و هو من يرى الأشياء كما أراد و كيفما أراد ظ من هنا قد يحق طرح السؤال من وجهة أخرى ؟ من هو هذا الانسان فالفاعل ليس هو دائما المفعول به أو المتلقي ان صح التعبير ليس دائما هو المرسل بمعنى أنه لكل مجتمع وتيرته الخاصة و لا يشعر بالصياع أو الانسلاخ أو الاغتراب من يعيش في مجتمعات تصنع تحولاتها بنفسها و تكون بالتالي على أهبة الاقلاع من مرحلة الى أخرى غير أن المجتمعات المنتلقية التي حكمت عليها العولمة بالمجابهة بنفس القدر للمستجدات التي كان السبب في وجودها غيرنا هي التي تعاني حالة الضياع هذ فنبدو كمن يقحم في تسابق غير مستعد له بل لا يدرك حتى .

الخاتمة

إن موضوع كهذا حملنا لأكثر من تخصص فمن علم الاجتماع إلى الأنثروبولوجيا الثقافية وتلك الطبية ذو أهمية بالغة، ويقودنا لا محالة إلى طرح قضية الساعة، ألا وهي التغير الاجتماعي ومشكل الحداثة وضرورة الانتقال إلى المجتمع التعاقدي، فنحن لا نزال في عمقنا مجتمع جماعي تحكمه العديد من ردود الأفعال العتيقة، المصبوغة بالعرف والعادات والتقاليد، إلا أننا وجدنا أنفسنا في موقع المتلقي للكمات الحداثة والانفتاح على العالم الذي فرضته العولمة ووسائل الإعلام والاتصال ثم الظروف الاقتصادية وما إنجر عنها من سلوكات وممارسات اجتماعية، وعموما وإن كنا لا نزال في مرحلة مراوحة المكان والتأرجح بين القديم والجديد، فالثابت واليقين أننا نحن دائما للماضي ونشعر بالتعلق ببقاياه من العادات والتقاليد لكن ربما منحنا هذا التفتح فرصا للإطلاع على الجانب الآخر من المرآة، ووضع اليد على بعض النقائص والسلبيات التي لا تخدم أفراد مجتمعنا ككائنات بيولوجية، ومنه وجب علينا الآن التنبيه والتقصي وطرح الأسئلة قبل الانصياع الأعمى خلف ما ورثونا إياه أجدادنا من عادات وتقاليد.

فما قاله أمه إبراهيم صلى الله عليه وسلم إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهذبون لدليل على أن الإنسان وإن كان مغلوبا على أمره اجتماعيا، فإنه

لحقيقة أنه ليس كل ما هو موروث هو سليم ويجب إغماض الأعين عن انتقاده وقبوله.

وأخيرا أسأل الله أن أكون قد وفقت في هذا المغامرة العلمية التي أمتعتني كثيرا.

الملاحق

مدخل:

معطيات ثقافية وحضارية حول منطقة سيدي بلعباس

تقع منطقة سيدي بلعباس على بعد ستين كيلومتر جنوب وهران وسط أرض مستوية واسعة و خصبة يجري على ربوعها واد مكرة ،يقدر عدد سكانها ب537.27نسمة و تحوي أزيد من 4700 هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة.

تتربع على مساحة قدرها 9150.63كم2 و تشترك في حدود إدارية مع ولاية وهران من الشمال و سعيدة و البيض من الجنوب و معسكر من الشرق و تلمسان و عين تموشنت من الغرب[194].

تتميز المنطقة بطابعها الزراعي و ساعدها على ذلك وفرة المياه، فكانت مهدا لفئة من الناس يعيشون على الزراعة و تربية المواشي و ربما جعلتها هذه الميزة قبلة للمهاجرين، و مطمعا للغزاة.

يعتبر البربر أقدم شعوب أفريقيا ،ولذلك يعدون السكان الأصليين للمنطقة ،وقد قسم الرومان البربر إلى عدة طبقات و أطلقوا على القبائل التي استقرت في التل اسم المغاربة ،ومن هؤلاء المغاربة كان السكان الأوائل لمدينة سيدي بلعباس.

[194] Fiche signalétique de la wilaya de sidi bel abbés de l'année 2001,DPAT.

و يتميزون بتقاليد حضرية و باهتماماتهم بالبستنة و بزراعة الحبوب ،ويبدو أن مجرى الماء قد جذبهم إلى هذه المنطقة، و قد استغل السكان قربهم من وادي مكرة في سقي بساتينهم بطريقة منتظمة ،و توجد آثار قديمة جدا لقنوات كانت موجودة في الماضي.

إن تاريخ المنطقة قديم، رغم محاولات الطمس و التشويه، حيث عاش الإنسان في هذه المنطقة منذ عصور قبل التاريخ مثلما تدل الآثار التي عثر عليها في مناطق "بوصي"- الضاية- واد سفيون- سيدي حمادوش على وجود الإنسان النيوليتي ،ثم إن إنسان باليكاو لا يبعد –تغنيف- لا يبعد عن المنطقة الا ب70كم ، إن بربرية المنطقة يمكن لمسها في أسماء المناطق –تغاليمات – تلوين- أما المناطق الرومانية فتدل على نفسها في آلبيلا albulaé ،سيدي علي بن يوب ، تساله astacilys ، و إذا عدنا إلى العصر الوسيط فيذكر الإدريسي أنه كان هناك مجمع سكني بالقرب من جبال تساله قامت فيه أبراج مراقبة عسكرية بعين بنت السلطان و عين زطيطة التي كانت تسمح للرومان بحراسة و مراقبة سهول المكرة و ملاتة و في القرن الرابع عشر الميلادي وصلت القوافل الأولى من بني هلال و التي أنجبت قبيلة بني عامر على مستوى منطقة سيدي بلعباس كالآتي :

- أولاد إبراهيم : و موطنهم الجنوب الغربي للمنطقة (مسار –سيدي خالد – سيدي لحسن – بوخنفيس – سيدي يعقوب).

- العمارنة :أربع فرق (الحنايشية – أولاد مالك – أولاد بن عيسى – أولاد بلاحة).
- الحجز : و موطنهم المحاديد – سيدي حمادوش – عين ثريد – تساله).و من أهم فروعهم أولاد رياب ، النمايشية – العثمانية – اولاد غازي .
- أولاد سليمان : موطنهم (موطنهم المبطوح – تلوين – سفيزف – بوجبهة ملغيغ – المسيد).
- أولاد علي : من أهم فروعهم (أولاد علي الفواقة ، اولاد علي التحاتة ، أولاد على الغوالم – اولاد علي المهاجة)
- أولاد عبدالله : موطنهم واد برقش في اتجاه عين تموشنت .
- الحساسنة : و هم فرقة من قبيلة الحساسنة الكبيرة التي هاجرت من منطقة سعيدة و استقرت بالقرب من غابة الموكسي (قرب القهوة سابقا وادي سفيون حاليا).
- حميان : منهم حميان تنيرة، حميان سعيدة، حميان وهران ، يوب berthélot
- أولاد سيدي علي بن يوب و دوي عيسى ،و منطقتهم شانزي (سيدي علي بن يوب) و الشيطوان (تفيلاس).
- قبيلة الجعافرة و تنقسم إلى : جعفر الثوامة و المحاميد التي تتشكل من الفروع التالية (الثوامة، المحاميد ، أولاد سيدي يحي أولاد داود و أولاد الصغير).
- أولاد بالغ و منطقتهم مزاورو– تادمونت– الضاية – تلاغ و راس الما ، و يعود جدهم إلى بالغ بن شافع بن عامر بن زغبة الهلالي ، و من أهم

فروعهم (أولاد سيدي علي بن خراج ،أولاد سيدي الشيخ –أولاد بالغ أو زناتة)

.

- قبيلة بني مطهر و تنقسم إلى قسمين : بني مطهر أولاد عمران و بني مطهر أولاد عطية(موسلان ،جنوب شرق الضاية) أولاد شعيب و هم فرقة من قبيلة سويد[195].

فالمنطقة لها تاريخها الضارب في القدم يعود إلى عصر ما قبل التاريخ ثم سكنها البربر و غناها الاقتصادي جعلها مقصدا لأكثر القبائل العربية الهلالية التي حولتها إلى منطقة قوية بسكانها و نفوذها.

لقد ذكرت بعض المصادر الفرنسية[196] بأن الأعراش التي تشكل قبيلة بني عامر كانت متحمسة جدا للحروب و كانت مرتبطة مع الأمير عبد القادر الجزائري و أصحابه و هذا ما دفع السلطات الاستعمارية الفرنسية إلى إرسال وحدات عسكرية أولى للتغلغل داخل محيط هذه القبيلة لحماية المعمرين الأوائل و انطلاقا من مدينة وهران شمالا.

لهذا توجهت قافلة من وهران في جوان من سنة 1843م ،نحو سيدي بلعباس و بدأت في تشييد قبة سيدي بلعباس على الضفة اليسرى من وادي مكرة .

---

[195] عبد القادر حلوش قباءل سيدي بلعباس و دورها في المقاومة –1830–1847 مكتبة الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع . الجزائر 2002ص 59–60

[196] فلتاردي برنيار "وثائق غير منشورة عن سيدي بلعباس"عدد24 السنة السابعة(جويلية،اوت ن سبتمبر)1961،ص05–10

و هكذا ظهر إلى الوجود أكواخ خشبية استعملت كملاجئ و مستشفى و مخازن للذخيرة و المؤونة، و كان السبب من هذه التحصينات التدخل السريع للقوات الاستعمارية ، و منها الكتيبة الأولى للفيف الأجنبي ،لقهر و احتواء النشاطات الثورية التي كانت تقام هنا و هناك .

اعترف رؤساء القبائل للجهة الغربية بإمرة الأمير عبد القادر لهم،الذي ما لبث أن باشر في ضرب جيش فرنسا ،محدثا فيه أضرارا مادية و بشرية،أجبرت فرنسا على الاعتراف بإمرته،وعقدت معه معاهدة دي ميشال في فبراير سنة 1843م،و هو ما مكن الأمير من إعادة الجيش و إنشاء إدارة تشرف على تسيير القبائل التي كانت تحت إمرته و القيام من جهة ثانية بالقضاء على جمع العصابات التي كانت موالية للحكم العثماني تحت قيادة مصطفى بن إسماعيل،إلا أن الاستعمار الفرنسي لم يحترم المعاهدة و بقي يضايق الأمير عبد القادر ،مما نجم عنه المعاهدة الثانية بتافنة في الثالث من شهر ماي 1837م التي اعترف فيها الفرنسيون بإمرة الأمير عبد القادر في الجهة الغربية و وسط الجزائر باستثناء الساحل[197].

و في سنة1842م نقض الفرنسيون معاهدتهم تحقيقا لمخطط "بيجو" BEGEAUD و أقاموا مستوطنة عسكرية بمنطقة بني عامر التابعة لإحدى القبائل الموالية للأمير عبد القادر بجانب قبة سيدي بلعباس على ضفاف واد المكرة،مما دفع الأمير إلى ضرب ذلك المعسكر عدة مرات ، و في سنة 1843قام الأمير عبد القادر بمهاجمة المعسكر مرتين في شهر أوت

[197] Guide de sidi bel abbes conçu par la sureté de wilaya de sidi bel abbes 1986 ,p3.

و أكتوبر ،و تواصلت الحملات على الجيش الفرنسي تحت ضربات قبيلة بني مطهر و بالأخص في سنة 1844م و سنة 1845م قامت مجموعة من الدرقاوة بعملية انتحارية بمهاجمة المعسكر الفرنسي بالعصي و الخناجر ، راح ضحيتها 50شهيدا يوجد ضريحهم بالحديقة العمومية بسيدي بلعباس .

لقد تميزت نهاية القرن التاسع عشر باختفاء جميع المقاومات الكبرى ،و انتصار الاستعمار الفرنسي و عندما بدأت فرنسا بمصادرة جميع الأراضي الفلاحية،و بطرد أهاليها منها مع زعزعة النظام الاقتصادي و الاجتماعي السائد في أوساط القبائل ،و بطردهم إلى المناطق الوعرة و الجبلية،و ما بقي من السكان الفقراء أقاموا بيوتا قصديرية،و حول المعمر الفرنسي طبقة من المنتجين الجزائريين إلى طبقة كادحة تعمل تحت سيطرته.

قد عرفت المدينة ثلاث مراحل للهجرة الريفية الأولى بدءا من سنة 1904م إلى غاية 1954م و الثانية سنة1958م متمثلة في مشروع قسنطينة للجنرال "ديغول"و ثالثتها بعد الاستقلال حيث شهدت نزوحا ريفيا مكثفا[198] هذا النزوح الذي زادت حدته في العشرية السوداء التي عرفتها الجزائر بفعل الظروف الأمنية التي واكبت هذه الفترة.

أصل التسمية و نبذة تاريخية عن حياة الولي الصالح سيدي بلعباس

إن سيدي بلعباس البوزيدي من من أحفاد الرسول محمد (صلعم)

[198] متحف الجهاد لمدينة سيدي بلعباس ،وثيقة.

إن والده سي البوزيدي قد جال داخل العالم الإسلامي و هو يبحث في الميادين العلمية ،الثقافية و الدينية و قد سافر إلى البقاع المقدسة لتأدية فريضة الحج و قد دام هذا السفر مشيا على الأقدام عدة سنوات مما سمح له بالتعرف على تاريخ البلدان التي زارها و نهل من أصول الدين و الشريعة و الفقه و غيره من العلوم آنذاك و عند رجوعه إلى الوطن الجزائر،استقر في قعدة آفلو و وافته المنية بعد عدة سنوات من وصوله إلى هذه الناحية تاركا وراءه أربعة عشر ابنا و كان قد التحق واحد منهم بالقوافل التي كانت تجوب الصحراء الكبرى و انتقل إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى طلبا للعلم ،و بعد سنوات قلائل انتقل إلى مدينة تلمسان أين درس بمدرستها و نظرا لقوة علمه ولشخصيته الدينية و الأدبية فأصبح يشكل النقطة التي يتوافد كل عالم و طالب علم ، لقد أصبح سيدي بلعباس ابنا ذكيا خارقا للعادة الشيء الذي أهله إلى الاستجابة إلى قرار والده الذي عينه كي يكون ممثله في توحيد قبائل بني عامر داعيا إلى السلم و الوفاق وصل إلى مشارف وادي مكرة أين استقر بجواره داخل قبة لا تزال واقفة اليوم بالضفة اليسرى للوادي ،وهنا تابع عمله الوحدوي و تدريسه لأصول الدين و القرآن الكريم و الإحسان إلى المساكين و قد توفي سنة 1771م و أصبحت هده المدينة تحمل اسمه بعدما اقترح المعمرين على الإمبراطور نابليون الثالث خلال زيارته للمدينة يوم 05ماي 1865 م منح اسمه لهذه المدينة كي تصبح نابليون فيل ،لكن لم يكن هذا الأخير متحمسا لمثل هذه الاقتراحات كما كان يرفض المعاملة السيئة للأهالي من طرف المعمرين و الجيش الاستعماري الذي كان ناويا من خلال ذلك

إنشاء مملكة عربية تحت حماية فرنسا ، و شاء القدر أن يعطي اسم سيدي بلعباس للمدينة إلى الأبد.

ملامح ثقافية للمنطقة

لقد عرفت الثقافة في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي تطورا ملحوظا حيث كان كل جزائري يعرف القراءة و الكتابة إلى جانب العادات و التقاليد النابعة من مجتمع عربي و إسلامي ،بالإضافة إلى تعلم القرآن الكريم و الحديث و العلوم العربية بطرق تقليدية وان كان هذا النشاط الثقافي قائما على الجهود الفردية ، فانه ساعد على توفير عناصر التحصين و المقاومة و حماية الشخصية الجزائرية من محاولة التنصير و الإدماج التي كانت تشكل التوجيه الاستعماري في الجزائر ،وقد كان للعلماء و المثقفين دور حاسم في نشر التعليم و المحافظة على التراث و التقاليد و العادات ، و كان لهذا التوجيه دوره الايجابي في تأسيس نوادي ثقافية و علمية و فرق مسرحية ،ساهمت بفعالية في المحافظة على الشخصية الجزائرية ،و توعية الشعب في محافظته على مقوماته و تراثه .

سيدي بلعباس التي انبثقت كولاية عن التقسيم الإداري لسنة 1974م تجمع الآن 15 دائرة و 52 بلدية و عددا من المداشر و القرى النائية تحوي 537.276نسمة يوجد 189.625نسمة من بينهم يقطنون المدينة، مركز الولاية و البقية موزعين على الأرياف و أغلب سكان المدينة يسكنون الأحياء الشعبية و التي كانت مجالا خصبا للفلكلور و نشأته.

لقد كان للمدينة فقهاء يعتد بهم في مجال العلوم الشرعية أمثال الشيخ بخالد بن كابو و الشيخ البدوي بويجرة مفتي الديار العباسية و الشيخ الأعلى و الشيخ مولاى المعزوزي ،كان لها شعراءها و مثقفوها من أمثال مصطفى بن ابراهيم و تمكنت ثلة من هؤلاء العلماء من إنشاء مدارس تعليمية حرة كمدرسة التربية و التعليم سنة 1942م و الموجودة بحي الأمير عبد القادر و مدرسة النصر سنة 1952م في حي عبد الكريم (حي عبو)[199] .

تميزت المنطقة أيضا بفنها التقليدي و أغاني البدوي و قد برع في هذا الفن الشيخ المدني و الشيخ عبد المولى العباسي و الصايم لخضر الذين أضفوا على المدينة طابعا بدويا أصيلا ، لا تزال أغانيهم و كلماتهم تردد على ألسنة الكثيرين من أبناء المنطقة ، و قد عرفت فضاءات ثقافية تحتضن مثل هذه الأجواء كالقرابة و الطحطاحة و حي العربي بن مهيدي قمبيطة أين كانت تنظم حلقات و لقاءات و حفلات فلكلورية ، و لا تزال المدينة محتفظة بهذا الطابع الثقافي لغاية الآن و تواصل سلطاتها المحلية تنظيم مهرجان الفلكلور بشكل منتظم و دوري ،تضفي البهجة في قلوب أبناء المنطقة اللذين يحنون إلى هذه الحفلات و حتى يتعرف الخلف على التراث الثقافي و الفني الذي تركه السلف.

[199] وثيقة صادرة عن دار الثقافة

المراجع

1. أحمد بهاء الدين، اللغة العربية حين نريدها سلاحا سياسيا واستراتيجيا وحضريا، العربي العدد 278 الصادر بتاريخ يناير 1982.
2. بداية المجتهد ونهاية المقصد الإمام القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي الشهير بـ"ابن رشد الحفيد" دار الفكر بيروت، الجزء الأول.
3. جمال محتوق، علم الاجتماع في الجزائر من النشأة إلى يومنا هذا الطبعة الأولى 2006.
4. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة.
5. د. أحمد بن نعمان، سمات الشخصية الجزائرية، من منظور الأنتروبولوجيا النفسية الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.

6. د. أسامة عبد الرحمان النور ود. أبو بكر يوسف شلابي: الأنثروبولوجيا العامة: فروعها واتجاهاتها النظرية وطرق بحثها، المركز القومي للدراسات والأبحاث، طرابلس 2002.

7. د. بودون وف بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع ترجمة سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة 1، الجزائر 1986.

8. د. حسان محمد لحسن، دراسة تحليلية في تغير العائلة والقرابة والزواج في المجتمع العربي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الثانية، ديسمبر 1985

9. د. حمدوش رشيد. مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة امتدادية أو قطيعة؟ (دراسة ميدانية: مدينة الجزائر نموذجا توضيحيا) دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2009.

10. د. حمدوش رشيد، مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة، امتدادية أم قطيعة؟ (دراسة ميدانية: مدينة الجزائر نموذجا توضيحيا)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2009.

11. د. عاطف وصفي: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت 1981، الطبعة الثالثة

12. د. عاطه وصفي، الثقافة والشخصية، دارا لمعارف، مصر 1975.

13. د. محمد عبد المعين خان، الأساطير والخرافات عند العرب، بيروت دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع.

14. دور كايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، تقديم عبد الرحمان أبو زيدة، موفم للنشر، 1990.

15. دينكن ميتشل، معجم علم الاجتماع، ترجمة ومراجعة: إحسان محمد الحسن، الطبعة الثانية، بيروت دار، مارس 1986.

16. السيد سابق، فقه السنة، المجلد الثاني، الفتح للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة 11، 1994.

17. صالح الشماع، مدخل إلى علم النفس، الطبعة 3، بيروت، مكتبة الفكر الجامعي منشورات عويدات، أفريل 1978.

18. طيب تيزيني، مشروع رؤية جديدة لفكر العربي في العصور الوسطى، الطبعة 5، دار دمشق للطباعة والنشر 1981.

19. عشراتي سليمان، الشخصية الجزائرية، الأرضية التاريخية والمحددات الحضارية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2002.

20. عفيفي، محمد الهادي، في أصول التربية، المكتبة الأنجلو عصرية، القاهرة.

21. علي الزين، العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية، الطبعة 1، دار الكتاب اللبناني بيروت، دار الكتاب المصري القاهرة، 1977.

22. عمر رضا كحالة، النسل–الجمال–جولة في ربوع التربية، ج 11–14، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984.

23. فرودريش فون ديرلاين، الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، الطبعة 1، بيروت، دار القلم، 1973.

24. فلتاردي برنيار "وثائق غير منشورة عن سيدي بلعباس"عدد24 السنة السابعة(جويلية،اوت ن سبتمبر)1961

25. فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية: مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية، الطبعة 1، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1980.

26. قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة: عبد الرحمان حاج صالح، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1987.

27. قاموس جون ديوي للتربية، مختصرات من مؤلفاته، جمعها: رالفن، وين، ترجمة محمد علي العريان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964.

28. قباءل سيدي بلعباس و دورها في المقاومة 1830-1847- مكتبة الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع . الجزائر 2002ص 59-60 عبد القادر حلوش

29. متحف الجهاد لمدينة سيدي بلعباس ،وثيقة.

30. محمد الحسيني و آخرون ، دراسات في التنمية الاجتماعية ،الطبعة 4 ،دار المعارف ، القاهرة

31. محمد الحسيني وآخرون، دراسات في التنمية الاجتماعية، القاهرة، الطبعة 4، دار المعارف.

32. محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2003.

33. محمد المسي قنديل، وادي ميزاب تراث جزائري حي، العربي، العدد 445، ديسمبر 1995.

34. المختار الهراس، إدريس بن سعيد ،الثقافة و الخصوبة، دراسة في السلوك الإنجابي بالمغرب ،الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت 1996

35. مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه الكتاب الثاني، المدخل إلى علم الاجتماع، القاهرة، مطبعة لجنة العهد العربي، 1962.

36. مصطفى نبيل، عالم مزاب المسحور "رحلة إلى الصحراء الجزائرية"، العربي، العدد 286، الصادر بتاريخ سبتمبر 1982.

37. المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الحادية والعشرون، بيروت، دار المشرق.

38. موريس أنجرس :منهجية البحث في العلوم الانسانية –تدريبات عملية– ،ترجمة :بوزيد صحراوي و آخرون ،دار القصبة ، الجزائر ،2004

39. هنري مندارس، مبادئ علم الاجتماع، ترجمة د. ملحم حسن الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

40. وثيقة صادرة عن دار الثقافة

41. Adam A. Les influences occidentales dans les villes maghrébines à l'époque contemporaine, France, Aix 1974.

42. Al-Hassan, Ihsan, Social structure and family change in Iraq, under condition of industrialization.

43. Burgess E. Loche, H. Thomas, M. the family from transition to companionship, 4th edition, New York.

44. Charles, Henri Favrod, l'anthropologie, Encyclopédie du monde actuel, 1977.

45. Davis, K. Human society, New York, 1967.

46. Dominique Champault, Journal de la société des africains, XXIII, Paris 1953.

47. E. Daummas, Mœurs et Coutumes de l'Algérie, Paris, la bibliothèque arabe Sind Bad, 1988.

48. Edward Sapir (1921), Anthropologies, tome I : culture et personnalité, version électronique, internet, Paris Editions de Minuit, 1967, Collection le Sens Commun.

49. El Mangli, de la chasse, Paris, Sindibad, 1984.

50. Fadela Lamrabet, les algériennes, cahiers libres 103, François Maspero, Paris 1967.

51. Fadela M'rabet : les algériennes ; cahiers libre 103, François Maspero, Paris, 1967.

52. Fiche signalétique de la wilaya de sidi bel abbés de l'année 2001,DPAT.

53. Fox R. Kinship and Marriage, A pelican book, Middlesex England, 1967.

54. Freedman R. Marx on economics, A pelican book, Middlesex England, 1968.

55. Gilles ferréol et al,sociologie-cours,méthodes,applications-(édition bréal)2004

56. Ginsberg M. Sociology, London, 1960.

57. Good Sell W. A History of marriage and family, New York, 1955.

58. Goode W.J. World Revolution and family Patterns, the free Press of glean coe, 1963.

59. Guide de sidi bel abbes conçu par la sureté de wilaya de sidi bel abbes 1986.

60. Hinkle R. and et al . The development of Modern Sociology, New York, 1963.

61. Johnson H. Sociology: A systematic introduction, London, 1996.

62. Lacheraf M. Ecrits didactiques sur ka culture, l'histoire et la société, Alger, ENAP 1988.

63. Lahouari Addi, Les mutations de la société algérienne, famille et lien social dans l'Algérie contemporaine, édition la découverte, Paris 1999.

64. Le Robert dictionnaire d'aujourd'hui.

65. MacIver R. and Page, C. Society, London, 1962.

66. MacIver R. Society : A text book of sociology Rinehart and To.

67. MacIver, R. and Page, C. Society, London, 1962.

68. Madelaine grawitz,méthodes des sciences sociales,(éditionsDALLOZ,11éme édition),2001.

69. Male Chebal : l'imaginaire arabo-musulman.

70. Malek Chebel, l'imaginaire arabo-musulman, Paris, PUF 1993.

71. Mitchell D. A dictionary of sociology, London, 1973.

72. Mostafa Boutefuouchet, la société algérienne en transition, OPU, 2004.

73. Ogburn W. and Ninkoff, M. A handbook of society, New York, 1958.

74. Paris Match N°27 du 06 Septembre 2010.

75. Richrd F. Behrendt, L'homme à la lumière de la sociologie, Paris Payot, 1964.

76. Rudolf Brown A. The structure and function in primitive Society, London, 1956.

77. Ruth Benedict, Echantillon de civilisation, Paris : Edition Gallimard, 1950, Collection : NRF les essais XL II, Page 05, version électronique, internet.

78. Titmouse R. M. The family as a social institution, British National Conference on Social Work, 1953.

79. Westermarck E. A short history of marriage and family, London, 1962.

80. Yasmina Khadra, les agnaux du seigneur, édition poket, Paris 1999.

81. Zakarya Daoud, féminisme et politique au Maghreb, Maisonneuve et Larose, Paris 1993.

ملخص

من خلال هذا البحث حاولنا رصد مكانة العادات و التقاليد الاجتماعية في نفوس الأفراد أمام ما طرأ على حياتنا اليومية من التغيير الناجم عن عوامل عدة و لأننا اخترنا الحديث عن تلك العادات و التقاليد و المعتقدات الخاصة برعاية الرضع فبدا لنا من الضروري أن لا نغفل مقارنتها بالأساليب العلمية الحديثة في التطبيب حتى يتسنى لنا إدراك حجم ما تغير في حقيقة التعلق أم لا بعاداتنا المتوارثة و اخترنا ثلاث عينات أولها تلك المتكونة من الأمهات الحديثات الوضع ثم تلك المكونة من النساء المسنات اللواتي قدمن لنا نظرة جد مفصلة عن طبيعة العادات و الوسائل المتبعة بها و النتائج المتوخاة منها و سلم القيم التي تسعى الجماعة للحفاظ عليه من خلال العادات و التقاليد كما تبين لنا أن الاستدلال برأي الأطباء ضروري ليعطونا فكرة عن مدى تمسك النساء بالعادات من جهة بحكم تعاملهم اليومي معه و من جهة أخرى ما يظنوه في الأساليب التقليدية من فائدة أو ضرر ، و بعد تفريغ النتائج بدا لنا واضحا أنه بالفعل هناك تخلخل في بنية الأسرة وهو ما يؤدي بالضرورة إلى تراجع في التعلق بالعادات غير أنها لا تزال توجد رغبة قوية في التمسك بها كما بدا لنا واضحا أن هناك العديد من العادات و التقاليد تؤدي إلى عدة أضرار فزيولوجية على صحة الطفل و في المقابل هناك أيضا بعض الدراسات العلمية التي أثبتت صحة بعض الممارسات التقليدية .

الكلمات المفتاحية ،العادات الاجتماعية، التغير الاجتماعي،رعاية الرضع،الأساليب التقليدية ،الأساليب الحديثة.

RESUME

Dans cette étude, nous avons essayé de contrôler l'état des coutumes et traditions sociales dans le cœur des individus par rapport à ce qui s'est passé dans la vie quotidienne de la variation causée par plusieurs facteurs, y compris ce qui est du patrimoine culturel et technique et certains sont d'ordre social et politique, et parce que nous avons choisi de parler de ces habitudes, traditions et croyances pour les soins des nourrissons , il nous semblait nécessaire de ne pas négliger le besoin de comparer les méthodes scientifiques et modernes en matière de télémédecine, de sorte que nous pouvons comprendre l'ampleur de ce qui a changé dans

l’application des coutumes héritées, pour cela nous avons choisi trois échantillons , le premier était composé des mères qui venaient d’accoucher, le deuxième était composés de femmes âgées qui nous ont donné une idée très détaillées sur la nature des habitudes et des moyens utilisés et les résultats escomptés ainsi que l'échelle des valeurs que le groupe cherche à maintenir à travers les coutumes et les traditions aussi nous avons jugés qu’il était nécessaire de prendre l’avis des médecins comme un troisième échantillon.
D’après nos résultats il nous semble évident qu'il ya un déséquilibre dans la structure familiale, qui peut conduire nécessairement à une diminution de l'attachement aux coutumes, mais il reste encore un fort désir à appliquer ces derniers aussi nous avons sus que l’application de nombreuses coutumes et traditions peuvent causer des dommages physiologiques sur la santé des enfants, d’autre part, des études scientifiques ont prouvé la validité de certaines pratiques traditionnelles.
mots clés : les coutumes sociales, le changement social, la puériculture, les méthodes traditionnelles, les méthodes scientifiques modernes.

ABSTRACT
In this study, we tried to control the state of the habits and social traditions in the heart of the invidious compared to what occurred in the everyday life from the variation caused by several factors, including cultural and technical inheritance and some are of a social and political nature, and because we have chosen to speak about these practices, traditions and beliefs in the child welfare
, it seemed necessary to compare scientific and modern methods as regards
As telemedicine, so that we can understand the width what changed in the application of the inherited habits, for that we have chosen three samples, the first was composed of the mothers who had just been confined, the second was made of old women who gave us an very detailed idea on the nature of the habits and the means used and the results anticipated as well as the scale of values that the group seeks to maintain through the habits and the traditions. we judged that it was necessary to take the opinion of the doctors like a third sample to give us an idea on the tenacity of the women to the practices to give us an idea on the tenacity of the women to the practices on the one hand, and on the other hand on what they think on the advantages and the disadvantages of the application of the traditional methods.
According to our results it seems obvious that it is an imbalance in the family structure, which can necessarily lead to a reduction in the attachment to the habits, but there remains still a strong desire to apply the latter as we knew as the application of many habits and traditions can cause physiological damage on the children’s helth, in addition, others scientific studies proved the validity of some traditional practice.
Key words: social habits, the social change, child welfare, traditional methods, modern methods.

يكاد يخلو أي سلوك من سلوكياتنا الاجتماعية أو طقس من الطقوس المرافقة لأفراحنا أو أحزاننا، من عادات أو تقاليد متوارثة نأخذ بها، فكثيرا ما ترددت على أسماعنا مقولة " سال المجرب و لا تسال الطبيب"، أو "الوالفة و لا التالفة"، لن نخفي بأن تجربتنا الخاصة(الحمل و الوضع) أثناء التحضير للماجستير في تخصص الأنثروبولوجيا كانت من أهم دواعي اختيارنا لموضوع العادات و التقاليد للبحث و الدراسة فكم كانت مكانة المعتقدات و العادات و التقاليد مثيرة للفضول و الدهشة مع ما كان يلفها من القداسة و الرهبة و الخوف أو التطير من تركها و من هنا تولدت لدينا رغبة مقترنة بشيء من الإلزامية في البحث في طبيعة العادات و التقاليد من حيث انتماءنا –كباحثين– إلى هذه المجتمعات التي لا تزال إلى غاية اللحظة ترتكز على سلم من القيم الاجتماعية تمليه و تتجلى فيه الكثير من هذه العادات السائدة ، مجتمعات مقاومة للتغيير إلى حد ما .. لماذا إلى حد ما ؟ لأنه ثبت أن مجتمعنا على غرار باقي المجتمعات العربية يعيش حراكا سسيوثقافيا و اقتصاديا عميقا ليس منتظم الوتيرة رافقته تغيرات عميقة و تطورات متلاحقة في شتى ميادين الحياة خصوصا منذ العقود الثلاث التي خلت– وعموما فان هذه التغيرات يشهدها العالم أكمل– و أمام مراوحتنا المكان بين تقاليد لا تزال مستحبة في النفوس و بين رغبة في نفض غبار الماضي و التخلص من بقايا مجتمع جماعي تحكمه العادات والأعراف و المعتقدات بغية ولوج فضاء مجتمع تعاقدي تفرضه الظروف العالمية فإننا لم نتخلص كليا بل قد لن نتخلص أبدا من تلك الظلال الجاثمة على يومياتنا و المشكلة من

الملخص :

العادات و التقاليد والأعراف و المعتقدات التي لا تزال لها الكلمة الأولى في الكثير من ممارساتنا الثقافية.

بعيدا عن الإرادة التي تراودنا مند مدة في تركيز البحث على الصمود أو الضمور الذي يكون قد طرأ على عاداتنا و تقاليدنا أو التطور و الاختلاف الذي يكون قد طرأ على أدوارها و وظائفها في المجتمع فإننا اخترنا كموضوع للبحث الكشف عن العادات و التقاليد المحيطة برعاية الرضع و السعي لوضعها على المحك للكشف عن مدى صمودها أمام تطور الاستعانة بالأساليب الطبية الحديثة و التي قد تكون أكثر أمنا و سلامة للرضع ، فهل مازلنا متمسكين بالعادات والتقاليد كما كانت الأجيال

السابقة ؟ هل لازلنا نحترمها بل و نقدسها كما فعل أسلافنا؟ و هل مازلنا نلجأ إليها في رعاية فلذات أكبادنا؟ هل مازالت محل ثقتنا؟ لتتجلى محاور إشكالية هذا البحث في ما يلي أولا : الكشف عن أهم العادات و التقاليد الممارسة في عملية رعاية الرضع و القيام بمسحها و وصفها و تحليلها، و تحليل تلك الآلية التي تحكم الاستعانة بها أي ثنائية "الوسيلة و الهدف"، و بالتالي الكشف عن سلم القيم الذي يملي علينا الاستعانة بهذه العادات وهو ربما ما يشكل قوة ذاتية في العادات الاجتماعية تجعلها صعبة التغيير لصالح ما هو علمي حديث .

ثانيا : وصف الأساليب الطبية الحديثة مع رفع التناقضات بين ما هو طبي وما هو تقليدي مع محاولة الكشف عن الطريقة المثلى لرعاية فلذات أكبادنا ، مع ضرورة تقصي الآثار التي قد تتركها هذه العادات و التقاليد على فسيولوجية الطفل و إذا كانت دائما مفيدة أم لا ؟ ثم أي الطريقتين أكثر فعالية وأكثر انتشارا في الواقع ؟

إن ما نراه اليوم يؤكد تطور و انتشار الأساليب الطبية الحديثة بنسبة أكبر

مما كان عليه الأمر سابقا ، فمبدئيا يبدو الآن أن الأدوات متاحة للإطلاع والاستعانة بالأساليب الحديثة نظرا لوسائل الإعلام بكل أنواعها من كتب، مجلات و الانترنت التي جعلت في ظرف قياسي العالم بين أيدينا، و على حافة أطراف أناملنا ، أو تعدد القنوات الفضائية الموضوعاتية و المتخصصة ، أو تعدد الإذاعات الجوارية ، كل هذا جعل من المعلومة العلمية أو بالأحرى النصيحة الطبية متاحة و منتشرة أكثر من أي وقت مضى ، و مع هذا فليس من مؤشر يؤكد لنا الاستغناء عن العادات و التقاليد المتوارثة في مجال رعاية الرضع ، في مقابل تفضيل الاستعانة بالنصائح الطبية و في هذا السياق حاولنا في أول خطوة الاحتكاك بالواقع – الذي كان بمثابة الجولة الاستطلاعية –و مكننا ذلك من وضع الفرضيات التي شكلت إجابات ممكنة و مبكرة لأسئلة الإشكالية و ساعدت على تحديد وجهة البحث دون وجود لبرهان صدقها أو ثباتها إذ تعين علينا توخي الحذر بغية التمتع بهامش من الحرية لتقبل ما قد يجود به الميدان.و التي كانت كالآتي :

الفرضيات:

- إن قوة العادات و التقاليد المتوارثة تكمن في منظومة القيم التي يسعى المجتمع لتكريسها و الحفاظ عليها،و هذا ما يجعلها محتفظة دائما بمكانتها في نفوس الأفراد و صامدة في وجه التغيير و الحداثة و التفتح العالمي .
- إن افترضنا بأن هناك تغيير في طبيعة المكانة التي تحتلها العادات و التقاليد داخل المجتمع فقد تكون الظروف الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية هي السبب في إقبال أو إدبار الناس عن التعلق بها في مقابل الإدبار أو الإقبال عن إتباع الأساليب الطبية الحديثة.
- بالرغم من مكانة العادات و التقاليد في النفوس إلا أنها لا تضاهي الأساليب الطبية الحديثة في الأمن و السلامة الصحية للأطفال.

منهج البحث

لقد تعددت المناهج و المقاربات التي تناول من خلالها علماء لاجتماع و الأنثربولوجيا دراسات مثل هذه مرتكزة على المجتمع و التغير الاجتماعي أو العادات و التقاليد ،و أهمية المنهج تكمن في اعتباره بمثابة المسبار أو العدسة العلمية التي من خلالها يمكننا أن ننظر إلى ظاهرة ما بغية تحليلها و شرحها و فهمها ، و ارتأينا أن يكون المنهج البنائي الوظيفي أسلوب لدراستنا هذه و ذلك بوصف و تحليل ما يحدث داخل بنى المجتمع و ما يستجد أو يطرأ على هذه البنى من تغيير و كيف تتفاعل الأنساق الفرعية داخل المجتمع باعتباره نسقا عاما من أجل تحقيق التوازن العام و الضروري لوجوده ثم ماذا عن حيثيات الوظائف الساعية للحفاظ على هذا التوازن وفقا للمنظور البنيوي الوظيفي الذي استحدثه تالكوت بارسونس ..و لكن و قبل التحليل البنيوي الوظيفي استدعت دراسة كهذه اعتماد و صف العادات و التقاليد المنتشرة و الخاصة برعاية الرضع من أجل تأملها و رصد دواعي استمرارها أو أسباب زوالها .

مجتمع البحث

قبل التطرق للعينات المختارة ،تجب علينا الإشارة إلى المجال الجغرافي الذي تم الاعتماد عليه و هو منطقة سيدي بلعباس لماذا؟ قلنا منطقة و ليس ولاية سيدي بلعباس ..لأن التقسيم الإداري لا يأخذ في الحسبان الانتماءات القبلية في الجزائر و لا يهمنا هذا التقسيم الرسمي و لكن ما يهمنا هو الاختلاف و الثراء الموجود في المنطقة و الذي يكون عبر الزمن و بفعل الاحتكاك و التحوير الذي يطرأ على الثقافات في محاولة إعادة تشكل و تموقع من أجل الاستمرار قد اصطبغ بصبغة محلية تميزه عن باقي جهات الوطن هذا من جهة ومن جهة أخرى ربما وجب أيضا تبرير اختيار المنطقة على حساب مناطق أخرى ؟و هذا ما يجد جوابه في كوننا من هذه الولاية ولدنا و ترعرعنا فيها و مدينة ألفناها أيضا إضافة إلى أنها مدينة حديثة نسبيا مقارنة بباقي المدن المحيطة بها كتلمسان أو وهران أي أنها مدينة –عمرانا – بناها المستعمر و عرفت على مر فترات متلاحقة من الزمن توافد الكثير من القبائل و البطون التي كانت تعيش على ضفاف وادي مكرة و التي أخذت في النزوح أكثر فأكثر منذ أم شرع المستعمر في وضع المعالم العمرانية الأولى و كان سهل ملاتة والمياة المتوفرة من أكثر ما يستهوي الناس على الاستقرار بها [200] و بالنظر لعدد البطون المتواجدة في المنطقة تعتبر في نظرنا عبارة عن فسيفساء من حيث التركيبة البشرية و هو ما يزيد الزخم الثقافي الموجود بها غنى و تنوعا.

المعاينة و التقنيات المعتمدة

إن العينة هي مجموعة من الناس أو الوحدات الذين تم اختيارهم ليكونوا ضمن الدراسة و اختيار العينة هو اختيار لهؤلاء الأفراد أو الوحدات أو المنظمات من مجتمع بعينه بحيث أننا إذا درسنا ظاهرة ما أمكننا بعد ذلك تعميم نتائج الدراسة على المجتمع الذي اخترناها منه ، و لدواعي تفرضها طبيعة الموضوع ارتأينا أن تكون طبيعة عيناتنا قصدية و اختلفت وحداتها ، إذ في البداية و قصد مسح العادات و التقاليد السائدة في المنطقة و التعريف بها توجهنا إلى سيدات مسنات و جدات كانت لهن فرصة الإشراف على رعاية أولادهن ثم أحفادهن و تباين انتماءهن بين مناطق ريفية و أخرى حضرية كلها

[200] و هي كلها تفاصيل نجدها بدقة أكثر في المدخل الخاص بالفضاء التاريخي و الجغرافي للمدينة.

كانت في منطقة سيدي بلعباس و تجدر الإشارة هنا إلى أننا و قبل الشروع في المقابلات التي كانت فردية اعتمدنا أسلوب المقابلات البؤرية و التي كانت بمثابة البحث الاستطلاعي و يمكن القول بأنها أتيحت لنا بشكل عفوي حيث كنا نتحين فرصا تمكن من الاتصال بهؤلاء النسوة في العديد من المناسبات و كنا في الغالب نعمد إثارة مواضيع خاصة بالعادات و التقاليد و الحنين إلى الأزمنة التي ولت و انقضت – و هي حاجة من الممكن استثارتها و استثمارها بسهولة لكونها شعور عام يقتسمه العديد من الأفراد في الوقت الراهن- و قد ساعدتنا هذه المرحلة على بلورة و تحديد الأسئلة النهائية التي من شأنها أن تساعدنا في جمع معلومات ذات طبيعة كيفية حول العادات المنتشرة و الخاصة برعاية الرضع و في مرحلة موالية سطرنا محاور المقابلة بشكل نهائي وقد جاءت نصف موجهة، و شملت مائة مستجوبة، ساعدنا طلبة قسم علم الاجتماع في الاتصال بهن و جمع المعلومات و التي حملت لنا حين تفريغها ثراءا و تنوعا في طرق الإشراف على رعاية الرضع في سيدي بلعباس و كل ما يحيط بهذه العادات المتبعة في هذا السياق من أسرار و اكتشاف بعض ما يكتنفها من غموض حيث يعتمدن غالبا على بعض التفسيرات الغير مؤسسة منطقيا و لكنها جد مقبولة لدى العامة و مهضومة بشكل لا تستثار معه الأسئلة،و قد كانت هذه الخطوة جد مهمة في بحثنا هذا إذ لعبت الجدات دور المخبرات أما المعلومات المستقاة فقد ساعدتنا في مرحلة لاحقة على توجيه أسئلة الاستمارة التي خصت مائتي مبحوثة كعينة ثانية مكونة من الأمهات الحديثات الوضع بهدف معرفة مدى التمسك أولا بالعادات و التقاليد في العناية بالرضع أو طبيعة الطرق المستعملة سواء كانت تقليدية أو حديثة و بدا لنا امثل مكان لتوزيع استماراتنا هو إحدى العيادات المتخصصة في طب الأطفال في ولاية سيدي بلعباس و التي تعرف توافد بمعدل 30 مريض يوميا مرفقين في الغالب بالأمهات ، فكنا نوزع بمعدل 10 عشر استمارات في اليوم حسب الظروف المواتية و بالنظر لحالات المرضى و الأمهات التي كانت تتيح في الغالب فرصة الحديث عن موضوع البحث و قد كان توزيع الاستبيان بهذا الشكل المباشر جد فعال إذ و نحن على مقربة من الأمهات كنا على ثقة بأنهن يجبن شخصيا على أسئلة الاستمارة و ساعدنا ذلك على استجلاء الكثير من المعلومات كما كنا نسأل و ندون إجابات الأمهات اللواتي لا يجيدون القراءة و الكتابة ، و في

مثل هذه الحالات كان الاستجواب أمثل طريقة لاستقاء هذا النوع من المعلومات و ملء الاستمارات ، و كان الحديث يضفي شيئا من الدفء و الحميمية على الكلام ، جعلت الكثيرات تسترسلن في الكلام و تدلين بتفاصيل تجاربهن في التربية، و معاناة بعضهن من المحيط الأسري، لا سيما أمام الجدات اللواتي تضطلعن بهذه الأمور، و تفرضن أشياء لا تلقى دائما الاستحسان لدى الأم الوالدة.

و بغية إكمال البحث اتضح لنا بأنه لا بد من أخذ آراء الأطباء كطرف ثالث في هذه المعادلة حتى يكتمل المشهد و ذلك بالتطرق إلى ما تمليه الأساليب الطبية الحديثة و بعد توزيع ما يزيد عن المائة و عشرون استمارة استطعنا استرجاع سبعون استمارة فقط خصت سبعون طبيب شكلوا أعضاء عينتنا الثالثة بعضهم متخصص في طب الأطفال و البعض الآخر عام و استطعنا أخذ أرائهم عن طريق أصدقاءهم و زملاء لهم في المهنة أحيانا ، و أحيانا أخرى عن طريق الأطباء المنتدبين لشركات بيع الأدوية فبحكم مهنتهم يتنقلون كثيرا إلى العيادات الخاصة و تلك التابعة للقطاع العام بهدف إقناع الأطباء بفعالية الأدوية التي يروجون لها ،و قد لبى البعض ممن نعرفهم دعوتنا لتوزيع الاستمارة على الأطباء الذين يزورونهم و قاموا باستعادتها و تسليمها لنا و قد دامت فترة العمل الميداني هذه قرابة السنتين وذلك على فترات متباينة ابتداء من 2007، إلى غاية العام الماضي إلا أنها كانت الأمتع من حيث ثراء ما يحمله الأفراد واختلافهم في طرق تفكيرهم و سلوكيات حياتهم داخل الجماعة و نظراتهم المختلفة للآخر و للمجتمع ،بانتقاد ضغوطاته حينا و بالتعبير عن سعادة الانتماء إليه أحيانا أخرى.

أما عن أدوات البحث فبالإضافة إلى تلك التي ذكرت أعلاه من استجواب و استمارات، و كذا المقابلات مع النساء المسنات فقد عمدت أيضا إلى الملاحظة الشخصية ،و أتاحت لي تجربتي الخاصة في فترات البحث فرص الملاحظة بالمشاركة، و عموما ساعدتنا الملاحظة على تأمل ازدواجية المواقف و السلوكات و التعابير عند بعض الأطباء و بعض الأمهات و سنعود إلى ذلك لاحقا فقد شكلت هذه المواقف عوائق معرفية لاستشفاف الواقع و لكن لحسن الحظ لم تكن بالقدر الذي يؤثر على تمثيلية la représentativité العينات.

أسباب اختيار الموضوع و أهميته

لقد ذكرت أعلاه في الصفحة 1 و 2 بعض الأسباب التي دفعت بنا إلى اختيار هذا الموضوع و كانت كلها ذاتية غير أن الأسباب الموضوعية تختلف ومنها ما شد انتباهنا من نتائج وخيمة أحيانا على صحة الرضع جراء اعتماد بعض الأولياء لطرق تقليدية مأخوذة من الموروث الشعبي الخاص بالتطبيب و هو أمر واقع أطلعنا عليه العديد من الأطباء و لكن و لسوء الحظ أنه عندما طالبنا بإحصائيات تثبت الحالة علمنا أن الإحصائيات الصحية في الجزائر لا تأخذ بعين الاعتبار هذه التفاصيل الكيفية حول أسباب الوفيات و قد أسر لنا بعض الأطباء أنه في حيات مهنية مقدرة بحوالي العشرين سنة شوهدت الكثير من الحالات التي يلقى الرضع فيها حتفهم جراء تأخر التدخل الطبي و اعتماد الأساليب التقليدية و في الواقع فالعوائق في وجه الحصول على احصائيات بهذا الشكل تعود الى مردين أساسيين هما : أولا – أننا ننتمي الى مجتمعات قدرية التفكير في كل ما هو متعلق بالحياة أو الرزق أو الموت.

ثانيا- أن طبيعة الألم أو ما يعرف في علم النفس بالجراح النرجسية التي قد يعاني منها الأولياء الذين فقدوا أحد فلذات أكبادهم تحول دون إمكانية الاستفسار أو الحصول على المعلومات الدقيقة حول تفاصيل ما تعرض له الطفل من أساليب تطبيبية تقليدية و عموما سنعود إلى هذه النقطة لاحقا..

كان هذا أهم انشغال موضوعي جعلنا نلقي الضوء على العادات و التقاليد التي تخص رعاية الرضع دون غيرهم من فئات المجتمع الأخرى فالكل منا معني بالعادات و التقاليد و لكن العبرة على المتلقي، و بحلوها أو بمرها فلا تعنينا أبدا بنفس القدر و لا بنفس الأثر ..

صعوبات الدراسة

لا يخلو أي جهد من العقبات التي قد تحول دون بلوغ المبتغى غير أن الرغبة في بلوغ الهدف و المتعة التي عشناها و نحن نكتشف اختلاف و ثراء العادات و التقاليد المتوارثة جعلتنا نستمر في هذا العمل بكثير من الارتياح و هذا لم يمنع من مصادفة بعض المعوقات الابستمولوجية نذكر منها تلك

الخاصة بطبيعة المكان الذي اخترناه(عيادة طبية متخصصة في طب الأطفال)لتوزيع الاستمارات أو ملءها أحيانا و الخاصة بالأمهات حيث كانت العديد منهن ترفض الاستجابة للطلب مبدية قلقها على حالة المريض الذي يرافقها و أحيانا أخرى كانت المعنيات بالبحث تملأن الاستمارة بالشكل الذي يتماشى مع توجيهات الطبيب المعالج و الذي كان في الغالب يوصي بترك العادات القديمة و تبني الأساليب الطبية الحديثة و هو ما من شأنه أن يشكك في كل النتائج المتوصل إليها و قد تفطننا لذلك بسبب التعليقات التي كانت تتلفظ بها العديد من الأمهات مما كان يدفعنا إلى شرح أسباب العمل و دواعيه و كيف أنه لا علاقة للطبيب بهذا العمل و أنه على المبحوثة أن تتقيد بواقع ما يحدث معها و ليس بما يرضي الطبيب

هذا من جهة ،ومن جهة أخرى ما لمسناه من تناقض بين المواقف المعبر عنها في الاستمارات و تلك التي شاهدناها في تعامل بعض الأطباء مع مرضاهم إذ يذهب البعض منهم إلى درجة شرح وصفات تقليدية تجعل الرضع ينامون بسرعة و بعمق و لكن نفس هؤلاء الأطباء عندما نمدهم باستمارة للملء تطفو على محياهم ملامح الخوف من المكتوب و يقع اختيارهم على الاقتراحات تتناقض في الغالب مع ما لمسناه في الواقع هذا من جهة و من جهة أخرى فالأطباء كانوا الأقل تفاعلا معنا و استجابة لنا بالرغم من أننا –ولعدد كبير من الاستمارات- لجأنا إلى زملاء لهم في الغالب و مع هذا فلم نسترجع سوى 70 استمارة من أصل مائة و عشرون.

الدراسات السابقة

من أهم الدراسات السابقة التي اعتمدنا عليها و ساعدتنا في رسم ملامح هذا البحث منهجيا و معرفيا نذكر :

1 _كتاب بعنوان العائلة و القرابة و الزواج،دراسة تحليلية في تغير نظم العائلة و القرابة و الزواج في المجتمع العربي الصادر سنة 1985لاحسان محمد الحسن و قد ساعدنا هذا الكتاب على اختيار

المنهج البنيوي الوظيفي كأسلوب بحث اعتمده الكاتب في رصد وقائع و تطورات طرأت على نظم العائلة و القرابة و الزواج باعتبارها أهم النظم البنيوية التي تؤثر في شكلية و استمرارية و فاعلية و ديناميكية البناء الاجتماعي .

2 _ الكتاب الثاني بعنوان العائلة الجزائرية تطور و خصائص حالية la famille algérienne évolution et caractéristiques récentes لصاحبه المختص في علم الاجتماع العائلي مصطفى بوتفنوشت و الذي ساعدنا كثيرا في فهم المنحى و المسار الذي أخذته العائلة الجزائرية في صيرورتها و الأسباب التي كانت وراء التغيير الحاصل عليها كبنية كان من الواجب تسليط الضوء عليها لفهم المجتمع الجزائري و باعتبارها المرآة العاكسة و بصدق للأنماط السياسية و الثقافية و الاقتصادية و القانونية التي عرفها المجتمع و تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها الأولى من نوعها غداة الاستقلال و قد أشار الكاتب إلى الصعوبات التي صادفها خاصة في جمع المعلومات العلمية لقلتها و عول على أداة الملاحظة بالمشاركة والتحقيق الميداني الذي أجراه في المدن الثلاثة الكبرى كمراكز حضرية و صناعية استقطبت العمال للتركز فيها و هي الجزائر آنذاك و هي وهران الجزائر العاصمة و عنابة و استطاع وضع اليد على القرائن المرجعية التي حددت معالم التغير الطارئ على الأسرة الجزائرية ، تطرق الباحث إلى تطور البنياتdomesticoéconomiques من الجزائر التقليدية إلى الجزائر العصرية و ذلك وفق محور تاريخي يحيلنا إلى التغيير الحاصل على مدى ثلاثة أجيال بدءا من مطلع القرن العشرين و إلى حين انجاز الدراسة سنة 1976 مع العلم أن الكتاب طبع سنة 1980 - حيث كان قبل ذلك موضوع رسالة دكتوراه في جامعة بوردو2 ، ومن أهم المصطلحات التي استخدمها الباحث في هذا المؤلف مصطلح البنية التي لا يمكن اعتبارها المظهر الساكن للتنظيم الاجتماعي بل باعتبارها مالكة لديناميتها الخاصة و التي لا تظهر و لا تدرك إلا بعد مرور فترات متباينة تمكن التغيير منها و من جهة أخرى كبنية تستجيب للحاجات الوظيفية للمجتمع و هذه الحاجات هي التي تبرر التغيير الطارئ عليها كما تجب الإشارة إلى المصطلح الذي استخدمه الباحث للتعبير عن العائلة بمفهومها العريض و بمظهرها الأكثر تعقيدا و التي تضم الأجيال الثلاثة بخصوصياتها الاقتصادية و الثقافية و الاجتماعية التي تميزها

عن الأسرة النووية و هذا المصطلح هو le groupe domesticoéconomique يبقى أن الجزائر المعاصرة التي شهدت بلورة ملامح التغيير –وفق هذا المرجع الهام- تحددت بداياتها في الفترة الممتدة مابين 1930 و 1940 فترة تميزت ببروز الحركة الإصلاحية للشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان رائدا في بعث بوادر ثورة ثقافية و اديولوجية في الجزائر بوادر مست شريحة عريضة من الشباب الجزائري آنذاك ممن كانوا أعضاء في العينة التي قام بدراستها الباحث و قد خلص الباحث إلى مجموعة من الاستنتاجات التي تؤكد وجود التغيير البطيء الذي استدعته مجموعة من العوامل الاقتصادية و السياسية .

3 _ كتاب آخر شكل نقطة انطلاق لنا في هذا البحث و هو بعنوان في إشكالية المقدس لصاحبه نورالدين طوالبي و هو باحث نفساني تناول في دراسته هذه ظاهرة التقاطب أو الصراع القائم عند الجماعات بين العقائد و التقاليد الأصولية الراسخة المتعلقة بالدين الإسلامي و بين المكتسبات الحديثة التي أدخلتها عليها الثقافة الغربية الفرنسية بالنسبة للجزائر كما يلاحظ من خلال دراسته الميدانية التفاوت في حدة هذا التقاطب بين الجماعات الريفية و الجماعات التي تقطن المدن بحيث يستنتج أن الأولى أقل تقاطبا من الثانية و أشد ارتباطا من بالممارسات المقدسة التي يشوبها الغموض في حين أن الفرد في المدن الجزائرية يعيش ثقافته بشكل تقاطبي للغاية تتجاذبه الرغبة في بلوغ الحداثة و يعاني في الوقت ذاته قلقا جراء خوفه من فقدان الأصالة و قيمه التقليدية،كتاب صدر سنة 1985 استطاع الباحث من خلاله و بحكم تخصصه في الطب النفسي تسليط الضوء على قضايا التغيير و التقاليد و الحداثة في الجزائر من زوايا علم النفس أو علم النفس الاجتماعي .

4 _ تحولات المجتمع الجزائري ، العائلة و الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة هو كتاب آخر لصاحبه لهواري عدي الذي اعتمد مقاربات أنثروبولوجية في توضيح معالم التغيير الاجتماعي الحاصل في الجزائر من فترة الستينات إلى فترة الثمانينات هذه الفترة التي تميزت بظاهرتين اجتماعيتين مرتبطتين و هما تطور مكانة المرأة و تنامي الإسلام السياسي في الجزائر و بين المؤلف في هذا الكتاب كيف أن النزوح

الريفي الذي شهدته الجزائر غداة الاستقلال و الذي تسبب في تهديم بنية العائلة كما عرفتها جزائر ما قبل الاستقلال و إعادة تشكيل العوائل داخل الفضاءات الحضرية الجديدة و ما تولد عن ذلك من حالات الصراع و الإحباط بالنسبة للبعض أو التطلعات الجديدة أحيانا بالنسبة للبعض الآخر و كيف أن اندثار الأسس الجماعية للثقافة الأبوية و منظومة القيم الخاصة بها دفع بالكثيرين للبحث في الإسلام عن مرجعيات جديدة أو نماذج بديلة في المجتمع من أجل إعادة خلق أو إبداع فضاءات جديدة و كيف أن هذه الظروف أدت إلى إعادة تموضع فيما يخص دور المرأة في المجتمع و هو ما قد يحدث تناقضات أو صراعات عنيفة داخل المجتمع .

5 _ كتاب لفوزية دياب بعنوان القيم و العادات الاجتماعية مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية المنشور سنة 1980 كتاب تطرقت فيه الباحثة إلى التعريف بالعادات والتقاليد و الأعراف و المعتقدات و القيم من حيث النشأة و الخصائص و الوظائف و الأهمية الاجتماعية مع إبراز دورها خاصة في المجتمعات العربية .

6 _ و هناك كتاب جاء في نظرنا ليسد فراغا في المكتبة الجزائرية خاصة فيما يخص مسألة الرباط الاجتماعي و تطور العائلة الجزائرية و هو حديث نسبيا إذ صدر في سنة 2009 لكن استفدنا منه كثيرا انه متاب لصاحبه الباحث حمدوش رشيد بعنوان مسألة الرباط الاجتماعي في الجزائر المعاصرة امتدادية أم قطيعة مع دراسة ميدانية في مدينة الجزائر كنموذج توضيحي و الذي رمى الباحث من خلاله إلى رصد للشبكة العلائقية و الكيفية التي تنتج بها هذه الروابط وسط فئة الشباب و تكمن أهمية هذه الدراسة في جملة المسائل و النقاط التي عالجها كالحداثة و التقاليد و الهوية و ميكروسوسيلوجيا الأسرة الجزائرية و الرباط الاجتماعي في الجزائر .

الاستنتاجات والخاتمة

إن بحث كهذا أردنا من خلاله الوقوف بالدرجة الأولى على الفروق الصحية بين ما هو تقليدي و ما هو حديث جعلنا نشعر بأننا فوق رمال متحركة فلم نستطع التطرق إلى الموضوع دون التطرق

للعادات و التقاليد و مواجهتها للتغيير هذا التغيير الذي أصبح جزء من حياة الإنسان على اعتبار أن الحاضر حامل لكل جديد و أن الزمن لا يتوقف عند الماضي و أننا نسارعه كما يسارعنا فلا نستطيع البقاء متمسكين بأساليب حياتنا خلفه. و مع كل ما يعترينا من خوف من الجديد المجهول ننتشي حينا باكتشافه و ننبهر بمزاياه و حينا آخر نخشاه فنلوذ إلى رموز عاداتنا و أعرافنا سواء كان ذلك في اللباس أو الأجواء الاحتفالية الأخرى و لأن البنيات لم تتحدد معالمها في هذا الجديد المتحرك على الدوام لأننا نعيش عصر التحولات الغير محدودة لا في الزمن و لا في المكان تحولات لا تعطينا حتى دقات ثواني لاستيعابها مع هذا و أحيانا نحن لماضينا عندما نحن للراحة و إلى أشكال طال أمد التغيير فيها بشكل بدت معه ثابثة مستقرة فكما قال لي أحد الأطباء المستجوبين الحياة كانت محكمة البناء الآن لا شيء يعرف الثبات و الاستقرار كل ما يحيط بنا مؤقت غير دائم يبعث على الخوف من هذه الحياة زمن المخاطر و المغامرات على كل الأصعدة كما قال بعض الاجتماعيين و لكن مع تأمل بسيط للأشياء و للوقائع ما الذي تغير في هذه الحياة ؟ و من أي منظور ننظر إلى هذا التغير الحاصل ؟ الصناعي التكنولوجي السياسي أم الإعلامي ثورة المعلومات العارمة التي مست كموجات التسونامي أدق التفاصيل في يومياتنا و تسببت في مصدر شعور الفرد منا بأن الوقت أضحى لا يستجيب لقوانينه السابقة ؟من أين يأتينا هذا الإحساس بالمرور السحري للوقت و تسارعه ؟ ألا تجب علينا إعادة النظر في العدسات التي استعنا بها حتى اللحظة لمحاولات الإمساك برأس المتيهة ؟

أليس الإنسان هو محور كل شيء هو الفاعل و المفعول به في نفس الآن و هو من يرى الأشياء كما أراد و كيفما أراد و من هنا قد يحق طرح السؤال من وجهة أخرى ؟ من هو هذا الإنسان فالفاعل ليس هو دائما المفعول به أو المتلقي إن صح التعبير ليس دائما هو المرسل بمعنى أنه لكل مجتمع وتيرته الخاصة و لا يشعر بالضياع أو الانسلاخ أو الاغتراب من يعيش في مجتمعات تصنع تحولاتها بنفسها و تكون بالتالي على أهبة الإقلاع من مرحلة إلى أخرى غير أن المجتمعات المتلقية التي حكمت عليها العولمة بالمجابهة بنفس القدر للمستجدات التي كان السبب في وجودها غيرنا هي التي تعاني حالة الضياع هذه فنبدو كمن يقحم في تسابق غير مستعد له.

إن موضوع كهذا حملنا لأكثر من تخصص فمن علم الاجتماع إلى الأنثروبولوجيا الثقافية وتلك الطبية ذات الأهمية البالغة، ويقودنا لا محالة إلى طرح قضية الساعة، ألا وهي التغير الاجتماعي ومشكل الحداثة وضرورة الانتقال إلى المجتمع التعاقدي، فنحن لا نزال في عمقنا مجتمع جماعي تحكمه العديد من ردود الأفعال العتيقة، المصبوغة بالعرف والعادات والتقاليد، إلا أننا وجدنا أنفسنا في موقع المتلقي للكمات الحداثة والانفتاح على العالم الذي فرضته العولمة ووسائل الإعلام والاتصال ثم الظروف الاقتصادية وما انجر عنها من سلوكات وممارسات اجتماعية، وعموما وإن كنا لا نزال في مرحلة مراوحة المكان والتأرجح بين القديم والجديد، فالثابت واليقين أننا نحن دائما للماضي ونشعر بالتعلق ببقاياه من العادات والتقاليد لكن ربما منحنا هذا التفتح فرصا للإطلاع على الجانب الآخر من المرآة، ووضع اليد على بعض النقائص والسلبيات التي لا تخدم أفراد مجتمعنا ككائنات بيولوجية، ومنه وجب علينا الآن التنبيه والتقصي وطرح الأسئلة قبل الانصياع الأعمى خلف ما ورثونا إياه أجدادنا من عادات وتقاليد.

فما قاله أب إبراهيم عليه السلام إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون.. لدليل على أن الإنسان وإن كان مغلوبا على أمره اجتماعيا، فإن الحقيقة أنه ليس كل ما هو موروث هو سليم ويجب إغماض الأعين عن انتقاده وقبوله.

وأخيرا أسأل الله أن أكون قد وفقت في هذا المغامرة العلمية التي أمتعتني كثيرا.

ملخص

من خلال هذا البحث حاولنا رصد مكانة العادات و التقاليد الاجتماعية في نفوس الأفراد أمام ما طرأ على حياتنا اليومية من التغيير الناجم عن عوامل عدة و لأننا اخترنا الحديث عن تلك العادات و التقاليد و المعتقدات الخاصة برعاية الرضع فبدا لنا من الضروري أن لا نغفل مقارنتها بالأساليب العلمية الحديثة في التطبيب حتى يتسنى لنا إدراك حجم ما تغير في حقيقة التعلق أم لا بعاداتنا المتوارثة و اخترنا ثلاث عينات أولها تلك المتكونة من الأمهات الحديثات الوضع ثم تلك المكونة من النساء المسنات اللواتي قدمن لنا نظرة جد مفصلة عن طبيعة العادات و الوسائل المتبعة بها و النتائج المتوخاة منها و سلم القيم التي تسعى الجماعة للحفاظ عليه من خلال العادات و التقاليد كما تبين لنا أن الاستدلال برأي الأطباء ضروري ليعطونا فكرة عن مدى تمسك النساء بالعادات من جهة بحكم تعاملهم اليومي معه و من جهة أخرى ما يظنوه في الأساليب التقليدية من فائدة أو ضرر ، و بعد تفريغ النتائج بدا لنا واضحا أنه بالفعل هناك تخلخل في بنية الأسرة وهو ما يؤدي بالضرورة إلى تراجع في التعلق بالعادات غير أنها لا تزال توجد رغبة قوية في التمسك بها كما بدا لنا واضحا أن هناك العديد من العادات و التقاليد تؤدي إلى عدة أضرار فزيولوجية على صحة الطفل و في المقابل هناك أيضا بعض الدراسات العلمية التي أثبتت صحة بعض الممارسات التقليدية .

الكلمات المفتاحية ،العادات الاجتماعية، التغير الاجتماعي،رعاية الرضع،الأساليب التقليدية ،الأساليب الحديثة.

RESUME

Dans cette étude, nous avons essayé de contrôler l'état des coutumes et traditions sociales dans le cœur des individus par rapport à ce qui s'est passé dans la vie quotidienne de la variation causée par plusieurs facteurs, y compris ce qui est du patrimoine culturel et technique et certains sont d'ordre social et politique, et parce que nous avons choisi de parler de ces habitudes, traditions et croyances pour les soins des nourrissons , il nous semblait nécessaire de ne pas négliger le besoin de comparer les méthodes scientifiques et modernes en matière de télémédecine, de sorte que nous pouvons comprendre l'ampleur de ce qui a changé dans l'application des coutumes héritées, pour cela nous avons choisi trois échantillons , le premier était composé des mères qui venaient d'accoucher, le deuxième était composés de femmes âgées qui nous ont donné une idée très détaillées sur la nature des habitudes et des moyens utilisés et les résultats escomptés ainsi que l'échelle des valeurs que le groupe cherche à maintenir à travers les coutumes et les traditions aussi nous avons jugés qu'il était nécessaire de prendre l'avis des médecins comme un troisième échantillon.

D'après nos résultats il nous semble évident qu'il ya un déséquilibre dans la structure familiale, qui peut conduire nécessairement à une diminution de l'attachement aux coutumes, mais il reste encore un fort désir à appliquer ces derniers aussi nous avons sus que l'application de nombreuses coutumes et traditions peuvent causer des dommages physiologiques sur la santé des enfants, d'autre part, des études scientifiques ont prouvé la validité de certaines pratiques traditionnelles.

mots clés : les coutumes sociales, le changement social, la puériculture, les méthodes traditionnelles, les méthodes scientifiques modernes.

ABSTRACT

In this study, we tried to control the state of the habits and social traditions in the heart of the invidious compared to what occurred in the everyday life from the variation caused by several factors, including cultural and technical inheritance and some are of a social and political nature, and because we have chosen to speak about these practices, traditions and beliefs in the child welfare

, it seemed necessary to compare scientific and modern methods as regards

As telemedicine, so that we can understand the width what changed in the application of the inherited habits, for that we have chosen three samples, the first was composed of the mothers who had just been confined, the second was made of old women who gave us an very detailed idea on the nature of the habits and the means used and the results anticipated as well as the scale of values that the group seeks to maintain through the habits and the traditions. we judged that it was necessary to take the opinion of the doctors like a third sample to give us an idea on the tenacity of the women to the practices to give us an idea on the tenacity of the women to the practices on the one hand, and on the other hand on what they think on the advantages and the disadvantages of the application of the traditional methods.

According to our results it seems obvious that it is an imbalance in the family structure, which can necessarily lead to a reduction in the attachment to the habits, but there remains still a strong desire to apply the latter as we knew as the application of many habits and traditions can cause physiological damage on the children's helth, in addition, others scientific studies proved the validity of some traditional practice.

Key words: social habits, the social change, child welfare, traditional methods, modern methods.

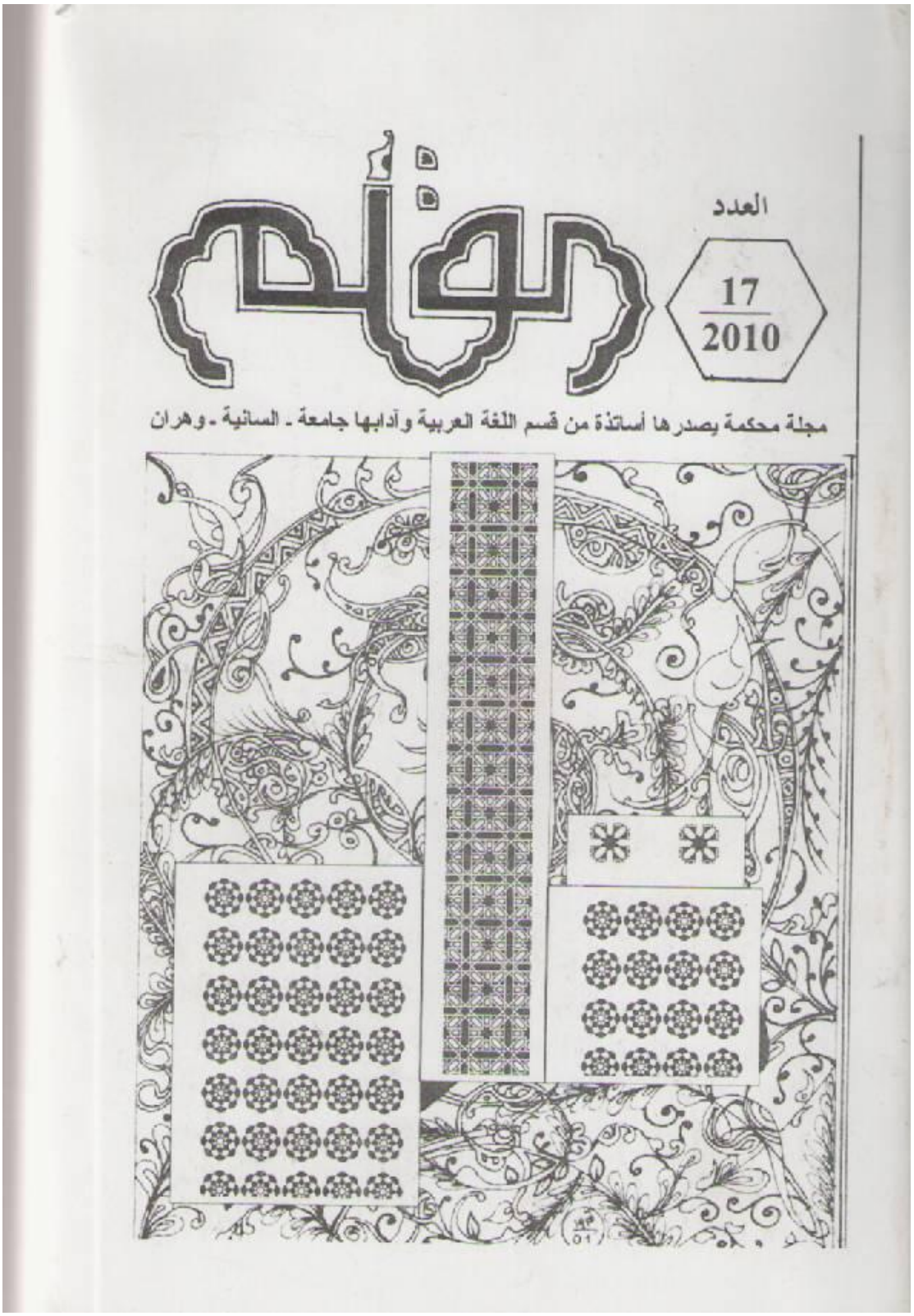
رؤى
العدد
17
2010
مجلة محكمة يصدرها أساتذة من قسم اللغة العربية وآدابها جامعة - السانية - وهران

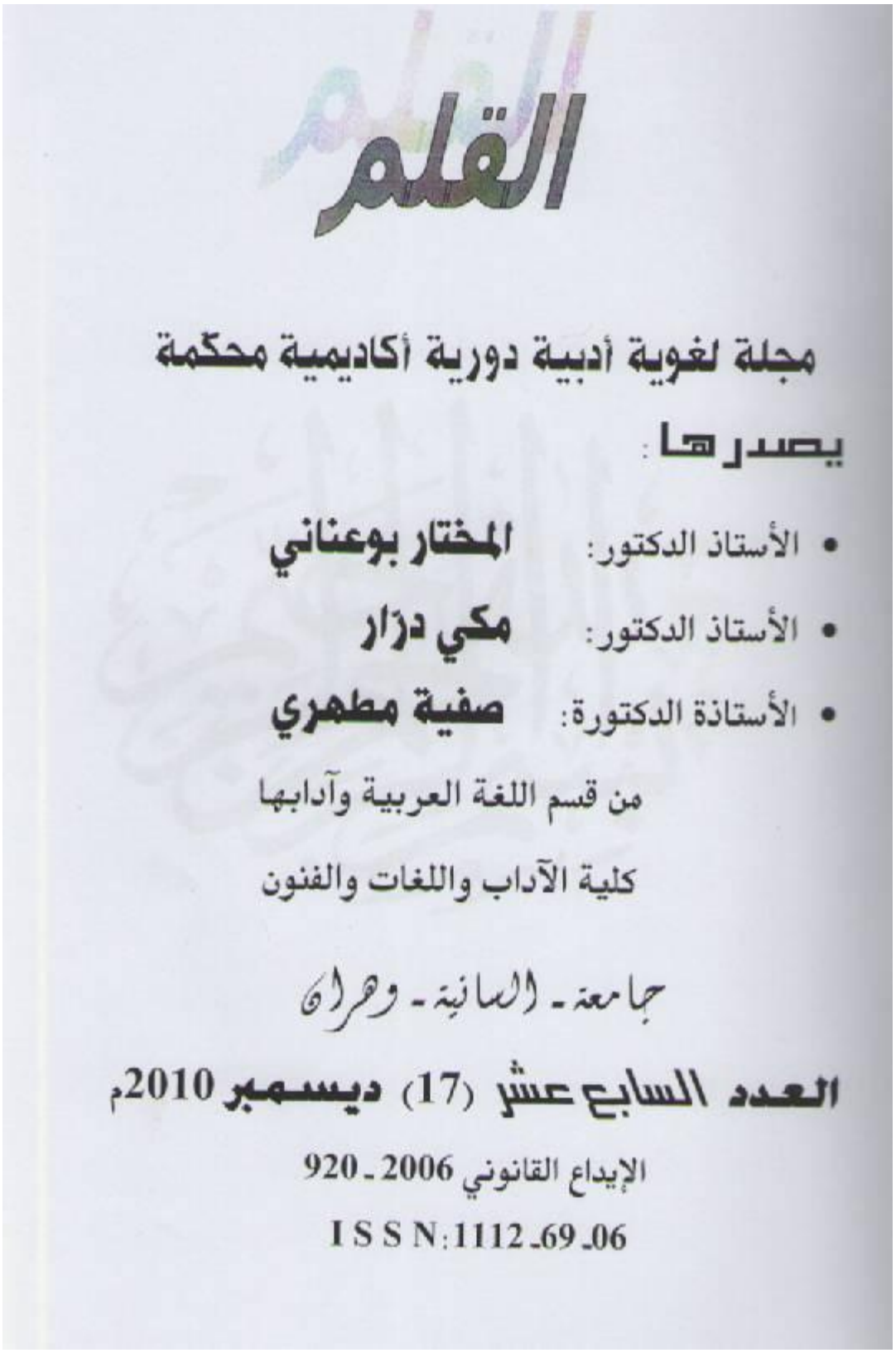
القلم
مجلة لغوية أدبية دورية أكاديمية محكمة
يصدرها:
• الأستاذ الدكتور: المختار بوعناني
• الأستاذ الدكتور: مكي درّار
• الأستاذة الدكتورة: صفية مطهري
من قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة السانية وهران
العدد السابع عشر (17) ديسمبر 2010م
الإيداع القانوني 2006 ـ 920
I S S N:1112 ـ 69 ـ 06

رعاية الطفل الرضيع ، قراءة في العادات و التقاليد المنتشرة بمنطقة سيدي بلعباس

إن اختيار الحديث أو البحث في موضوع العادات و التقاليد، و عن فعاليتها في المجتمع،أو عن آثارها الجانبية – على حد التعبير الطبي – يذكرني بقول اوغست كونت الذي و بعد أربعة قرون من تحديد ابن خلدون لموضوع علم الاجتماع أقر أن" رسالة هذا العلم هي السيطرة على تجربة المستقبل و تقديم كافة المعلومات التي تفيد البشر في حياتهم داخل المجتمع".[201]

و قد وجب علينا كباحثين ، ننتمي إلى ثلثي العالم التي قال عنها هرتزل بأنها تعيش في مجتمعات ساكنة عتيقة مقاومة للتغيير[202] أن نبحث في طبيعة هذه العادات و التقاليد، و إن كانت مقولة هرتزل في الوقت الراهن تثير حفيظة البعض و التردد في الاستعانة بها ، على أ ساس ، ما نلحظه يوميا و ما نعيشه من ازدياد في وتيرة التطور الاقتصادي و ما يرافقه من تطور اجتماعي و ظهور لممارسات ثقافية و اجتماعية جديدة ، فقد ثبت أن مجتمعنا على غرار باقي المجتمعات العربية يعيش تغيرات عميقة و تطورات متلاحقة في شتى ميادين الحياة خصوصا منذ العقود الثلاث التي خلت[203]، و عموما فما زالت العادات و التقاليد تكتسح شتى ضروب حياتنا من أفراح و أحزان و لهذا فقد وجب علينا البحث في طبيعة هذه العادات و التقاليد و فعاليتها وكذا مدى الاستعانة بها .

---

[201] جمال محتوق، علم الاجتماع في الجزائر من النشأة إلى يومنا هذا الطبعة الأولى 2006.ا الصفحة 4 .

[202] محمد الحسيني و آخرون ، دراسات في التنمية الاجتماعية ،الطبعة 4 ،دار المعارف ، القاهرة، الصفحة 376.

[203] المختار الهراس، إدريس بن سعيد ،الثقافة و الخصوبة، دراسة في السلوك الإنجابي بالمغرب ،الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت 1996 الصفحة 6.

لا أحد يجهل ما للعادات و التقاليد الاجتماعية من قيمة في الحفاظ على وحدة المجتمع و انسجام أنظمته الغير رسمية ، و عموما لا يكاد يخلو أي سلوك من سلوكاتنا الاجتماعية أو طقس من الطقوس المرافقة لأفراحنا أو أحزاننا ، من عادات أو
تقاليد متوارثة نأخذ بها، فكثيرا ما ترددت على أسماعنا مقولة " سال المجرب و لا تسأل الطبيب"، وفي هذا السياق، فقد اخترنا كموضوع للبحث الكشف عن العادات ا و التقاليد المحيطة برعاية الرضع ، مع السعي لمعرفة مدى تمسكنا بها هل لازلنا نحترمها بل و نقدسها كما فعل أسلافنا؟ و هل مازلنا نلجأ إليها في رعاية فلذات أكبادنا؟ هل مازالت محل ثقتنا؟

إن ما نراه اليوم من تطور في الأساليب الطبية الحديثة المتاحة بنسبة أكثر
مما كان عليه الأمر سابقا "منذ ثلاثة عقود مثلا" و ذلك بالنظر دائما لحجم التحولات في السلوكات الاجتماعية و الممارسات الثقافية الحديثة، حيث يبدو أن الأدوات متاحة للاطلاع و الاستعانة بالأساليب الحديثة نظرا لوسائل الاعلام بكل أنواعهامن كتب، مجلات و
الانترنيت التي جعلت في ظرف قياسي العالم بين أيدينا، و على حافة أطراف أناملنا ، أو تعدد القنوات الفضائية الموضوعاتية
و المتخصصة ، أو تعدد الإذاعات الجوارية ، و هي كلها وسائل اعلامية تثقيفية أكثر انتشارا، إذ توجه لجمهور أوسع بحكم تجاوزها لملكة القراءة و حاسة السمع بالنسبة للصورة، أو حاسة النظر بالنسبة للإذاعة و بالتالي دخولها الحيز الادراكي لعامة الناس، كل هذا جعل من المعلومة العلمية أو بالأحرى النصيحة الطبية متاحة و منتشرة أكثر من أي وقت مضى ، و مع هذا فليس من مؤشر يؤكد لنا الاستغناء عن العادات و التقاليد المتوارثة في مجال رعاية الرضع ، كما ليس هناك من مؤشر يبرز لنا تفضيل الاستعانة بنصائح الطبيب، و الاستغناء عن العادات العتيقة .

و من أجل تغطية كاملة و شاملة لهذا الموضوع الهام و الحساس تعين علينا اضافة لبحث الأمهات ، الالتقاء بالنساء المسنات، و مقابلتهن بغية الحصول على كل ما يحيط بهذه

العادات المتبعة في رعاية الرضع من أسرار واكتشاف بعض ما يكتنفها من غموض أحيانا ،حيث يعتمدن غالبا على بعض التفسيرات الغير مؤسسة منطقيا، و لكنها جد مقبولة لدى عامة الناس و مهضومة ، و للتوضيح اكثر نقدم على سبيل المثال فكرة علاج داء الليل و هو ما يصطلح عليه الأطباء بالاسهال"اسهال الرضيع"حيث ذكرت لنا احدى الأمهات بأنه يجب على المعالج أن" يقطعه" في الصباح الباكر لأن"الليل"يذهب الى النوم عندما يطلع النهار و معنى كلمة-يقطعه- هنا أي ازاحته عن المريض و ذلك بأساليب لا تقل غرابة عن القصة، اذ تقوم امرأة مسنة بجمع غصن من كلا فصائل النباتات الموجودة في محيط المنزل أو في المكان الذي يتواجد فيه الطفل المريض و تقوم بغليها ثم اعطاء الماء المغلى للطفل حتى يشربه فاذا شربه في الصباح الباكر شفي من الداء ،و قد كانت هذه الخطوة جد مهمة في بحثنا هذا ، تماما كما ارتأينا ملاقاة عدد من الأطباء عامين و اختصاصيين في طب الأطفال لاخذ رأيهم و وجهة نظرهم في هذا الشأن.

هذه هي عموما مجموعة الأسئلة التي تشكل موضوع اشكالية بحثنا هذا .

فيما يخص تقنية البحث و المنهجية المتبعة، فقد ظهر أن أمثل طريقة بالنسبة لهذا الشطر من البحث أن أستجوب النساء المترددات على مصلحة طب الأطفال بالمستشفى الجامعي "الدكتور حساني عبد القادر" بولاية سيدي بلعباس على اعتبار أنها أمثل مكان لمثل هذه المواضيع ، إذ أنها تستقبل بمعدل 30 مريض في الأسبوع يقيمون لفترات متفاوتة حسب طبيعة المرض يتلقون أثناءها العلاج اللازم، أما عن المجال الزمني فقد استغرقت مدة البحث ثلاثة أشهر ابتداءا من

شهر فبراير 2006 حيث أتاحت لي تجربتي الخاصة أثناء ولادتي لابنتي فرصة القيام ببحث أولي و كان ذلك بشكل شبه عفوي فأثناء زيارة كثير من أفراد عائلتي

و الأصدقاء لي، كنت أثير محادثات حول موضوع التقاليد و الأساليب المتبعة في رعاية الرضع، فكن بمثابة المخبرات les informateurs و قد استقيت الكثير من المعلومات التي ساعدتني في توجيه الأسئلة الخاصة بالبحث الميداني و الذي قمت به في مصلحة طب الأطفال في شهر أكتوبر من نفس السنة، حيث وزعت استمارات مست مائة مستجوبة، امهات الأطفال المرضى المقيمين بالمصلحة،كان الهدف منها معرفة مدى الاعتماد على العادات و التقاليد، و مدى الاستعانة بها مقارنة بالاستعانة بالاساليب الطبية، و الحقيقة أن اختيار مكان البحث هنا شكل عائقا معرفيا إلى حد ما ،كون الأطباء يوصون بضرورة اتباع الأساليب الطبية الحديثة، و ترك الأساليب القديمة، لما قد تسببه من خطورة على صحة الأطفال و هذا الأمر جعل المستجوبات كثيرات الحذر و التردد قبل الشروع في الحديث عن عاداتهم و تقاليدهم، و قد كان الاستجواب أمثل طريقة لاستقاء هذا النوع من المعلومات و ملء الاستمارات ، وبالأخذ و الرد في الكلام الذي كان يضفي شيئا من الحميمية و الدفء على الحديث ، استطاعت الكثير من المستجوبات الاسترسال والتداعي و الادلاء بتفاصيل تجاربهن في التربية، و معاناة بعضهن من المحيط الأسري، لا سيما أمام الجدات اللواتي تضطلعن بهذه الأمور، و تفرضن أشياء قد لا تكون مستحبة لدى الأم الوالدة.

بالنسبة للمنهج المتبع، فقد استعنا بالمنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على وصف السلوك الاجتماعي للأفراد، و ما يبرزه من تمسكهم بالعادات والتقاليد

المتوارثة و بالإضافة إلى أدوات البحث التي ذكرنا أعلاه من استجواب عن طريق الاستمارات، فقد عمدنا أيضا الى الملاحظة الشخصية، و أتاحت لي تجربتي الخاصة في فترة البحث فرصة الملاحظة المشاركة.

لقد عرضنا من خلال هذا البحث تلك العادات و التقاليد التي تحيط بعملية رعاية الطفل الرضيع في منطقة سيدي بلعباس و ذلك من خلال دراسة عينة تكون في اعتقادنا ممثلة لشريحة حريصة على اتباع العادات و التقاليد أكثر من غيرها، و هي شريحة كانت في

نهاية المطاف منحدرة في غالبيتها من الريف أو من أطراف المدينة ، و هي ممثلة لتلك المجتمعات التقليدية التي وصفها العديد من علماء الاجتماع بميزا ت معينة ، نذكر منها أراء د.هاجن–E.Hagen [204]الذي وضع نظرية عن التغير الاجتماعي، و التي حدد فيها مظاهر المجتمع التقليدي، في خمسة و هي :

طرق السلوك التي تستمر مع تغير قليل و تنتقل من جيل الى جيل.

السلوك المحكوم بالعرف و ليس بالقانون.

النسق الاجتماعي الذي يؤثر بالتدرج الثابت في العلاقات الاجتماعية الأساسية.

عادة ما يكون وضع الفرد في المجتمع موروثا أكثر منه مكتسبا.

انخفاض الانتاجية الاقتصادية.

أما من حيث قابلية تغير هذا النوع من المجتمعات فانه يميل الى رفض كل ما هو جديد و التمسك بالنماذج الموروثة، بحيث ينظر أفراده الى أي تغيير كعمل شاذ ويشكل انتهاكا للأشكال التقليدية فمن خلال البحث تبين لنا أنه من بين مائة مستجوبة وجدنا أن 53 واحدة تنتمين للدوائر و البلديات و هن حريصات على

إتباع العادات و التقاليد كونهن أمام رعاية فلذات أكبادهن،و أغلبهن يبررن ذلك الحرص، على أساس أن الأمهات من الاجيال السابقة لم يتبعن أبدا الوسائل الحديثة الطبية، و رغم ذلك، فقد شب أطفالهن بشكل جيد و سليم و صحي

و كثيرا ما رددت لنا المستجوبات بعض الأمثلة الشائعة مثل "سال المجرب و لا تسال الطبيب"، أو"الوالفة خير من التالفة"، بمعنى ان أساليب الرعاية المألوفة خير من تلك الحديثة الغير مضمونة الأثر و الفعالية حسب وجهة نظرهن.

[204] محمد السويدي ، بدو الطوارق بين الثبات و التغير ،الصفحة 5

و بقراءة في الجداول بعد تفريغ البيانات تبين لنا بالنسبة للاجابة عن السؤال الأول، أن انتشار القطاعات و المراكز الصحية التي تغطي بالتقريب كل تراب الولاية، سهل من عملية الولادة التي أصبحت تتم في ظروف طبية حسنة، و رغم هذا فمن بين أفراد العينة المستجوبة هناك ثمانية نساء قمن بالولادة في البيت، و من بين المائة مستجوبة 85 قام الطبيب بفحص أطفالهن فور الولادة،و 15 لم تتح لهن هذه الفرصة ، أما بالنسبة لإفطار الطفل فور ولادته ، ف 90% من المستجوبات يقدمن لأطفالهن العسل لوحده ، أو مرفق بأشياء أخرى، كالفيجل أو زيت الزيتون أو الحنتيت أو البارود و غيرها من المواد المستعملة بكثرة في التطبيب الشعبي و الحقيقة أن كل الأطباء بالمصلحة اللذين تحادثنا معهم لا يحبذون ذلك لما قد يكون له من تأثير على فيزيولوجية الرضيع حديث الولادة ،حيث يوصون بالرضاعة الطبيعية فقط، و من جهة أخرى، كان قد استوقفني مقال في جريدة [205]مفاده أن "وزارة الصحة الألمانية تحذر من تغذيةالأطفال الرضع من عمر دون السنة الواحدة بعسل النحل و ذكر في تصريح نشرته مجلة فوكس الألمانية المعروفة أن العسل يحتوي هلى مادة كلوستريد البوتلينيوم السامة التي قد

تؤدي إلى موت الطفل المفاجيء، واستندت الوزارة في تحذيرها الى تقرير المعهد "روبرت كوخ" التابع لها ذكر أن العسل يؤدي الى موت الطفل المفاجيء في حالة واحدة من كل 500 حالة وفاة مفاجئة تصيب الرضع في ألمانيا سنويا، فما بال الحال في مجتمعاتنا حيث يستعمل الكثير منا مادة العسل على أساس أن الرسول عليه الصلاة و السلام كان يكثر من تناول العسل، و لكن المجهول لدى عامة الناس أن الرسول القدوة عليه أزكى الصلاة و السلام لم يكن يتناول ابدا العسل وحده و انما دائما محللا في الماء الدافئ، و بالنسبة للسؤال الرابع الخاص بوسائل علاج الحبل السري فقد ظهر لنا كيف أن الكثير من النساء يعتمدن على أساليب تقليدية في

[205] عالم الصحة :تحذير من تغذية الرضع بالعسل، عن الوكالات، يومية الرأي، العدد1001الصادر بتاريخ11 اوت 2001.

علاجه، على اختلاف هذه الوسائل كالحنة و الكحل أو التمر، و زيت الزيتون و هناك من يستعمل هذه الوسائل بالاضافة لمواد صيدلانية يوصي بها الطبيب كالأيوزين Eosine.
نفس الشيء بالنسبة للسؤال الخامس الخاص بوقاية عيني الطفل، ف 66 % يستعملن الكحل، و 43% يستعملن نترات الفضة في شكل قطرات"Des gouttes" و منهن من يستعملن الاثنين ، أمام 11%لا يستعملن أي شيء ،
و عكس توصيات الأطباء التي تفيد بضرورة غسل الطفل يوميا او على الاقل مرة في كل أسبوع وجدنا أن 32% لم يغسلن لأطفالهن في الشهور الأولى من الحياة خشية اصابتهم بالبرد ، وهو اعتقاد سائد لديهم ، أمام 12% فقط يغسلن أطفالهن يوميا.

في حين 90% تفضلن التدليك للأطفال بالزيوت سواء كان زيت الزيتون أو زيت المائدة في حالة عدم وفرة الأول، و يعتقدن بأن هذه الطريقة ترخي الطفل و تساعده على النوم.

و بالنسبة للسؤال الثامن المتعلق بنوعية الحفاظات المستعملة وجدنا بأن 5% فقط من المستجوبات تستعملن الحفاظات التقليدية و 38% منهن تستعملن الحفاظات الحديثة في المناسبات، و قد فاجأتني احدى السيدات من سكان احدى المناطق بالريف من ذوات المستوى المعيشي البسيط بالقول أنها لاقت مشاكل كثيرة مع أم زوجها المسنة حيث أن هذه الأخيرة كانت تمنع الزوج من شراء الحفاظات الحديثة بحجة التوفير والاقتصاد، و أمام ندرة الماء، تأمر الزوجة بالاكتفاء بتجفيف الحفاظات التقليدية في الشمس، ثم نفض الفضلات منها، و اعادة وضعها للطفل من جديد.
و هذه الحالة انما تقدم لنا صورة أخرى عن سيطرة النساء المسنات في العائلة و اشرافهن على التوجيه و اعطاء النصائح للأمهات الحديثات الولادة.

و جل الاجابات على السؤال التاسع تؤكد ذلك فنجد 89% من العينة تستقي أساليب رعاية الأطفال من المحيط العائلي و 10% فقط تعتمدن في ذلك على الطبيب,و 1% على المراجع و الكتب المخصصة لهذا الغرض.

و قد ذكر لنا الأطباء بمصلحة طب الأطفال بالولاية، أن السبب الأول في وفيات الأطفال من عمر دون السنة في البلدان النامية هو الاسهال، الذي هو نتيجة مباشرة لقلة النظافة.

و أخيرا نجد الاجابة على السؤال العاشر التي كانت في محتواها مرتبطة بالسؤال السادس حول استحمام الطفل، فنجد بأن أكثر الأمراض انتشارا في وسط الأطفال هي التهابات المؤخرة، و الاسهال و كلى المرضين حسب الأطباء، مردهما قلة النظافة، و استعمال الحفاظات التقليدية.

من خلال هذا البحث توصلنا الى جملة من الاستنتاجات لعل أهمها :

- أن الاتجاه الواضح في قراءة هذه النتائج هو تعلق الناس بالعادات و التقاليد كما التمسنا ميدانيا تلك الرغبة القوية لدى الناس في التمسك بها و احترامها.
- .أن تلك الرغبة، و ان كانت منتشرة بكثرة في أوساط الريفيين، بسبب طبيعة المجتمع الريفي المنغلق على نفسه و المحافظ على عاداته و تقاليده أو بسبب الاعتبارات المختلفة التي قد تمنع الفرد من التنقل للمراكز الطبية و شراء الأدوية، فان نفس هذه الرغبة منتشرة لدى سكان المدن، و ذلك اعتقادا في الفأل أو التطير من استبدال تلك العادات.

- في أغلب الأحوال و من خلال المحادثات مع المبحوثات وجدنا أن النساء أكثر تمسكا من الرجال بالعادات و التقاليد، و ربما ثبت لنا ذلك لكونهن المشرفات على رعاية الأطفال، دون أن نبحث بتعمق في علاقة الرجال ميدانيا بالعادات و التقاليد.
- إن كثيرا من العادات و التقاليد تنمو و تترعرع في كنف الاعتقادات التي تدفع الناس الى التعلق بها، و كثير من هذه الاعتقادات غير مؤسسة بشكل منطقي و هذا ما ذكرني بقول" سنمر" :"أن أصولها غير منطقية و ان بداياتها ضاعت مع غموض الزمن..." و قد لاحظنا ذلك ميدانيا و كثيرا ما تساءلنا عن تلك العلاقة التي تربط الوسيلة المستعملة بالغاية المرجوة منها في العادة أو التقليد و الأمثلة عن ذلك كثيرة،نذكر منها، عادة دفن بقايا الحبل السري في ركن من أركان البيت إن كانت للفتاة ، حتى تشب الفتاة بيتوتية و محبة لبيتها ،أو عادة رميها في المسجد إن كانت لفتى حتى يشب الذكر متدينا.
- إن فرصة إجراء الدراسة الميدانية في مصلحة طبية مكننا من معرفة بعض الأخطار التي قد تنجم عن اتباع بعض العادات فيما يخص رعاية الرضع، ففضلا عن أخطار تغذيتهم بالعسل، واجهنا الكثير من الحالات التي تضعك أمام تساؤلات عدة حول جدوى اتباع بعض العادات في مجال التطبيب الشعبي ،كتناول الرضع دم الكلاب للعلاج من "القرينة" و بعض المواد كالنيلة أو البارود أو الأعشاب و التوابل مثل"مليلس" و "الكمون" و "الكركب" و "الحلحال" التي قد تكون ضارة في كثير من الأحيان اذا ما استعملت بكميات غير مضبوطة،

نفس الشيء بالنسبة لأسلوب "التشراط" للأطفال، و برأي الأطباء، فان هذه الاساليب لن تساعد على العلاج في شيء و انما قد تعطل من عملية العلاج الحقيقي، و قد ذكر لي بعض الأطباء أن العديد من الحالات تأتيهم متأخرة و ميؤوس منها بسبب تماطل الأولياء في الاستعانة بهم و اعتمادهم على أساليب التطبيب الشعبي و خاصة بالنسبة لؤلئك الذين لا يقطنون المدن.

- إن موروثنا من العادات و التقاليد،لا يخلو من الخير ففيه الكثير من الجوانب الايجابية التي تحدد هويتنا كمجتمع و تعطي لشخصيتنا ملامح و أبعاد خاصة بها، كعادة ارتداء الألبسة التقليدية في المواسم و الأعياد و الحفلات و عادة تقديم أكلات تقليدية شعبية خاصة بكل منطقة، ثم ان الطبيعة الانسانية تجعلنا نحن لكل ما هو منحدر من الماضي، يوصلنا بأسلافنا، و يشعرنا بالأمان،

بحكم انتمائنا لثقافة دامت و توارثت مع عدة أجيال و ربما يؤكد صمودها أماما التغيير سلامة القيم التي تحملها و جدارتها بالاتباع.

و لا يزال الكثير منا يذكر تلك العادات و التقاليد بكثير من الاعتزاز و الافتخار و في هذا السياق يشيع المثل القائل "الجديد حبه و القديم لا تفرط فيه"فلا تزال بعض العادات القديمة تتبع لحد الان لما يرجى و يعتقد فيها من خير،و لما تحمله من قيم مستحبة لدى الناس، فمثلا عادة أكل رقبة الشاة التي تذبح في سبوع المولود من طرف الوالدين فقط، بهدف إخضاعه مستقبلا لولاء و طاعة الوالدين و كثير من العادات الأخرى تحمل قيم معينة،يسعى المجتمع لتكريسها لدى الأفراد.

- إن ما يلتمس من خلال هذه الدراسة، أن هذه العادات و الاعتقادات الشائعة في الوسط الاجتماعي تشكل جزءا من كيان الفرد و هويته و شخصيته و رغم تقدم المستوى الثقافي و العلمي للعديد من الأفراد، فان اعتقادهم الراسخ في سلامة تلك التقاليد السائدة يبقى قائما،و محددا لسلوكاتهم في الكثير من المواقف.

و قد صادفنا بعض تلك المواقف حتى بعد انتهاء الدراسة الميدانية،أذكر منها حالة طفل في الثانية من عمره، و لم يكن ينطق بأي كلمة، مما دفع بوالدته و هي موظفة سامية في مؤسسة عمومية و ذات مستوى جامعي، ان تتبع عادة وضع مفتاح في فمه كل يوم خميس و ذلك اعتقادا منها بأن المفتاح، سيفتح فمه، و ينطق الطفل بالكلام بعد ذلك.

و كثير مثل هذه الحالات تبقى تؤكد المكانة المعززة للعادات و التقاليد المتوارثة في نفوس الأفراد.

الحقيقة أننا خلصنا في نهاية هذا البحث الميداني ، إلى ضرورة تكملته بالتطرق للجانب الآخر المتمثل في مقارنة العادات و التقاليد المعتمد عليها في رعاية الرضع ، بالأساليب الطبية الحديثة بشيء من التفصيل خاصة على مستوى النجاعة و الفعالية ، و الذي هو قيد الانجاز.

قائمة المراجع

1- أحمد بن نعمان ،سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1988.

2- أحمد رأفت عبد الجواد، مبادىء علم الاجتماع ، مكتبة النهضة الشرق، جامعة القاهرة .

3- عبد الرحمن حاج صالح، الأمثال الشعبية الجزائرية ترجمة قادة بوتارن،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1987.

4- مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة،ترجمة عبد الصبور شاهينن مطبعة دار الجهاد القاهرة 1959.

5- محمد حسن غامري، طريقة الدراسة الأنثروبولوجيةالميدانية المكتب الجامعي الحديث الاسكندرية 1989.

6- محمد عبد المعين خان، الأساطير و الخرافات عند العرب، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع-ببيروت.

7- محمد السويدي، بدو الطوارق بين الثبات و التغير.

8- جمال محتوق، علم الاجتماع في الجزائر من النشأة إلى يومنا هذا الطبعة الأولى **2006**

9- محمد الحسيني و آخرون ، دراسات في التنمية الاجتماعية ،الطبعة 4 ،دار المعارف ، القاهرة.

10- المختار الهراس، إدريس بن سعيد، الثقافة و الخصوبة، دراسة في السلوك الإنجابي بالمغرب، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت 1996.

الدوريات

1-عالم الصحة، تحذير من تغذية الرضع بالعسل ، عن الوكالات ، يومية الرأى العدد 1001 الصادر بتاريخ السبت 11 أوت 2001.

المراجع باللغة الأجنبية

1-e.d.aumas M oeurs et coutumes de l'Algerie, paris, la bibliothèque arabe sindbad, 1988.

2-Edward sapir : anthropologie, tome 1 : culture et personnalité, traduction française 1967.un recueil d'article publiés entre 1917 et 1938, paris édition de minuit , collection : le sens commun.

3-Melville, herscovits : les bases de l'anthropologie culturelle, paris François Maspero éditeur,collection la petite collection marabout, 1972.

مهيدة وهيبة

استاذة مساعدة

قسم علم الاجتماع

جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس

مجلة الآداب والعلوم الإنسانية

مجلة أكاديمية علمية محكمة تعنى بالدراسات النقدية والتاريخية
باللغة العربية واللغات الأجنبية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة سيدي بلعباس/ الجزائر

العدد 08

طباعة
مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع - الجزائر

مجلة الآداب والعلوم الإنسانية

مجلة أكاديمية علمية محكمة تعنى بالدراسات النقدية والتاريخية
باللغة العربية واللغات الأجنبية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة سيدي بلعباس/الجزائر

مدير المجلة
أ.د صبار نور الدين

رئيس التحرير
أ.د. مونسي الحبيب

نائب مدير المجلة
أ.د كاملي بلحاج

نائب رئيس التحرير
أ.د. قادة عقاق

هيئة التحرير

د. بركة قـــادة
أ.د. محمد مجـاود
د. باقـــي محمد
د. بلعربي خـــالد
أ.د. هلايلي حنيفي
د. طـبي آمنـــة
د. مخلوف سيد أحمد

الهيئة العلمية

أ.د. بلوحـــي محمد
د. غـــربي شميسة
د. مـــلاح بناجي
د. مـــلوك محمد
د. مـــربوح زواوي
د. حسين عبيد سميرة
أ.د. عبد الجليل منقور
أ.د. بوخاتم مولاي علي

الهيئة الاستشارية

د. أحمد الجـــرة (تونس)
د. محمد العمري (المغرب)
د. موسل فالح العجمي (الكويت)
د. محمد مفرح (المغرب)
د. روزالين ليلى قريش (الجزائر)

الصحة و الاستعمار بمفهوم انثروبولوجي

أ مهيدة وهيبة
شعبة علم الاجتماع
أ بلعربي منور
شعبة علم الاجتماع
جامعة سيدي بلعباس

شهد المجتمع الجزائري تحولات اجتماعية و ثقافية أثرت على مكوناته و مدى انسجام بعضها بالبعض كان أهمها على الإطلاق : الاستعمار ثم الهجرة نتيجة محاولات التنمية بعد الاستقلال و هي أمور مرتبطة بموضوع الخصوصيات الثقافية و إمكانية التغيير الثقافي و ما يتبع ذلك من ظهور لإشكالية الأصالة و المعاصرة كمجال بحث انثر وبولوجي و سيسيوثقافي و تاريخي.

و حيث أن الملتقى الوطني لقسم التاريخ كلية الآداب و العلوم الإنسانية جامعة الجيلالي اليابس بسيدي بلعباس اختار موضوع "الصحة و الاستعمار".

نتشرف بتقديم هذه المداخلة كمساهمة بسيطة في ملتقانا هذا و هي بعنوان:

الصحة و الاستعمار بالمفهوم الأنثروبولوجي.

و هو موضوع يمكن تفريقه لثلاث قضايا و هي:

1. الاستعمار كموضوع انثر وبولوجي.
2. الصحة كموضوع انثر وبولوجي.
3. الصحة و الاستعمار معا كموضوع ذو أبعاد انثروبولوجية.

1. الاستعمار كموضوع انثر وبولوجي.

من المعروف أن المنظور الانثروبولوجي قد تطور من الانثروبولوجيا الطبيعية إلى الانثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية ثم إلى الانثروبولوجيا الديناميكية أو ما أطلق عليه جورج بالانديي اسم انثروبولوجية الحداثة.

فمنذ أن نشر بالانديي أول مؤلفاته حول افريقيا السوداء سنة 1955 دعا إلى ضرورة الاعتناء بجميع الفاعلين الاجتماعيين و عدم الاكتفاء بالمواطنين الأصليين بل الاهتمام كذلك بالمبشرين و الإداريين و الأعوان الآخرين للاستعمار لأنهم جميعا يشكلون جزءا من حقل تقصي الباحث.

كما أسس لنظرية جديدة تقوم على دراسة التغيير الاجتماعي يستعيض فيها عن عبارات مثل "الاتصالات الثقافية" و " الصدمات الثقافية" و "المثاقفة" بعبارة أو مفهوم"الوضع الاستعماري" المتضمن لواقع علاقة اجتماعية غالبا ما تتناسها الأنثروبولوجيا الكلاسيكية.

و منذ ذلك العهد لم تعد الانثروبولوجيا تطرح مسألة البدائيين أو المتوحشين بل "الشعوب المستعمرة" كما صار من الواجب على الانثروبولوجي الاهتمام بمواضيع كعملية الاستعمار و أثاره ثم كيفية التخلص منه أو التخلص من أثاره...

و لأن الثقافات تختلف كثيرا في درجة تكاملها فان رالف لنتون يرى بان أية ثقافة لن تبلغ درجة الكمال في تكاملها أو بعبارة أخرى لن تبلغ وضعا تكون فيه جميع عناصرها في حالة تكيف متبادل تام ما دامت تتعرض للتغيير باستمرار.

و عليه وجب الاهتمام بموضوع التغيير الثقافي او ما يسمى بالعملية الثقافية التي تقوم على الانتشار أو الاختراع اذا كان التغيير يمس مستوى العناصر الثقافية أو التراكيب أو التثقيف من الخارج أو الاتصال الثقافي – حسب تعبير البريطانيين- إذا كان التغيير يمس مستوى النظم أو الأنماط.

و التثقيف من الخارج الذي عرفه ردفيلد و لنتون و هيرسكوفيس هو "تلك الظواهر التي تنشأ عندما يحدث اتصال مباشر مستمر بين جماعات من الأفراد التي تنتمي إلى ثقافات مختلفة و يكون من نتيجة ذلك حدوث تغير في الأنماط الثقافية الأصلية عند احد الثقافتين أو كلاهما"

و التثقيف من الخارج بهذا المعنى لا يتم إلا في حالتين:"الاستعمار أو الهجرة " يقول لنتون " انه من المقطوع به أن الاتصالات الكاملة ناذرة و غالبا ما تتمثل في حالات الجماعات الغازية التي استقرت بين الجماعات المغزوة لاستغلالها أو في حالات المهاجرين".

و قد توصل الباحثون إلى أنه يمكن للعناصر الثقافية أن تنتقل من ثقافة إلى أخرى بواسطة الاحتكاك سواء أكان ذلك من ثقافة أعلى إلى ثقافة أدنى أم العكس أو كان ذلك عن طريق التقليد و المحاكاة طوعيا أو الإجبار كما هو الشأن في الاستعمار.

و بحسب الظروف يمكن أن يحدث تهجين في الثقافتين أو الدخول في مرحلة من الصراع بين الثقافتين مما يعرض شخصية البعض إلى الاضطراب و عدم التوازن أو أن تذوب الثقافة المهيمن عليها في الثقافة المهيمنة و في هذه الحالة قد يحدث أحيانا ما يسمى بالنكسة الثقافية في شكل دعوات إحياء التراث أو البحث عن الأصالة أو في شكل صراع بين دعاة الأصالة و المعاصرة.

.2الصحة كموضوع انثر وبولوجي:

الصحة نمط مثالي من بين الأنماط المثالية المكونة لثقافة المجتمع و هذه الأنماط هي عبارة عن تجريد من وضع أفراد المجتمع أنفسهم فهي تمثل إجماع أفراد المجتمع على ما يجب أن يكون عليه سلوك الناس في مواقف معينة. و تتعرض مثلها مثل عناصر العناصر الثقافية للتغيير الثقافي الذي هن موضوع الأنثروبولوجيا.

و لان سلوك الإنسان و شخصيته تتحددان من خلال جملة من العوامل يمكن حصرها في مجموعتين : المجموعة الأولى بيولوجية جسمية و الثانية ثقافية اجتماعية و هما العاملان اللذان يحددان في الغالب سلوك و سمات شخصية الفرد و نمطه في العيش.

و ينسحب هذا التحديد على ما ينتج عن ذلك من حالة السواء أو حالة اللاسواء الصحية فعوامل الصحة الجسمية أو النفسية هي نفسها العوامل المتسببة في المرض الجسمي أو النفسي سواء أكانت بيولوجية ام ثقافية.

وجب البحث عن الصحة في المجتمعين:

.1 المجموعة البيولوجية أو الجسمية:

و هي تتضمن على الخصوص العوامل الوراثية أي ما يرثه الفرد من سمات و صفات عن والديه و أجداده و مجمل ما ينجم عن وظائف الجهاز العصبي و ما يترتب عن إفرازات الغدد الصماء أو الهرمونات من تأثيرات بالإضافة إلى ما يتعرض إليه الجسم من تسمم أو ما يكتسبه بامتصاص المواد الغذائية أو الدوائية.

و على هذا الأساس درس الموضوع في بعده البيولوجي من خلال أما فرع الانثروبولوجيا الطبية أو من خلال النظرية النفسية القائلة بانتقال السمات الثقافية ذات الطابع النفسي بين الأجيال.

أ. الأنثروبولوجيا الطبية:

في الآونة الأخيرة تزايد الاهتمام بدراسة الإنسان من حيث علاقته بالآخرين من بني نوعه ثم علاقته بالبيئة الفيزيقية و الاجتماعية و الثقافية فظهرت الأنثروبولوجيا الطبية التي أثارت في البداية اهتمام الباحثين في الغرب و وصل ذلك الاهتمام إلى البلاد العربية بداية من سنة 1980

حيث لاحظ الباحثون في الانثروبولوجيا الطبية الروابط العضوية القائمة بين ثقافة الفرد الحضارية و بين أساليب معايشته للحياة و نظرته للأمراض و طرق علاجها، بحيث أن أنواع الأمراض التي تصيب أبناء مجتمع ما و بالتالي كيفية إدراكهم لها و معالجتهم إياها تتنوع إلى حد كبير.

لذلك صار اهتمام الأنثروبولوجيا الطبية بثلاثة مجالات رئيسة للبحث هي:

-تطور ايكولوجية المرض.

-المعتقدات و الممارسات الطبية في المجتمعات المختلفة.

-مكونات الرعاية الصحية المخططة في المجتمعات المختلفة.

و منه صار واضحا أهمية الثقافة في الوقاية من بعض الأمراض أو الإصابة بها انطلاقا من النمط الغذائي أو النظرة إلى المرض و أسبابه و طرق علاجه.

فشرب لبن البقر- مثلا- في المجتمع الأمريكي ضرورة صحية و الاعتقاد راسخ جعلهم مرارا يتبرعون بكميات من الحليب المجفف للشعوب المحتاجة للإعانة فكانت النتيجة أن حرمت تلك الشعوب من الاستفادة من تلك الإعانات لعدم معرفة البعض كيفية استعمال الحليب المجفف أو كونه عند بعض الثقافات موضع اشمئزاز و نفور.

ب. انتقال السمات الثقافية ذات الطابع النفسي بين الأجيال:

و هو ما ذهب إليه كارل غستاف يونغ في دعواه القائلة بانتقال الخبرات اللاشعورية بين الأجيال و التي أطلق عليها اسم :"اللاشعور الجمعي" أو ما جاء في الدراسات التي أثبتت توارث المجد و الشهرة بين الأجيال .

و هي جهود ماكان لها أن تظهر الا لأن موضوعات علم النفس لا يمكن دراستها في الغالب الا في ضوء للمجتمع من تصور عن طبيعة الإنسان و رسالته في الحياة و غايته منها و ما هو سائد فيها من ثقافة ومعايير و قيم.

ففرويد مثلا قد بنى نظريته على قاعدة إمكانية انتقال سمات الشخصية عبر الأجيال و كون أن الإنسان غير سوي في الأصل فمثلا يعلق فرويد على تحريم كل الشرائع السماوية للقتل فيقول :"إن تحريما على هذه الدرجة من القوة لا يمكن أن يوجد إلا ضد حافز مساو له في قوته ، أما ذلك الذي لا ترغبه أي روح بشرية فلا حاجة إلى تحريمه إنما هو يستبعد تلقائيا، و التأكيد ذاته على الوصية لا تقتل تجعل من اليقيني أننا ننحدر من سلالة من المجرمين لا نهاية لها كانت الشهوة آلة القتل تجري في دمهم كما لا يمكن أن يكون الحال معنا نحن أنفسنا الآن". و هو دليل واضح على انتقال السلوك المرضي بين الأجيال.

.2. المجموعة الثقافية الاجتماعية:

و هي التي تتشكل في الأساس من العلاقة التي تربط الفرد بالأشخاص المحيطين به و القيم التي يكتسبها من الوسط الاجتماعي و الثقافي الذي يعيش في ظله، و يأتي في مقدمة هذه العوامل مؤسسات التنشئة الاجتماعية من أسرة و مدرسة و جماعة الأقران و وسائل الإعلام و مساجد و مؤسسات جمعوية كالنوادي و الجمعيات و كل المرجعيات.

و على هذا الأساس يمكن دراسة هذا الموضوع في بعده الثقافي من خلال فرعين من فروع الأنثروبولوجيا الفرع الأول يسمى بالأنثروبولوجيا الثقافية و الفرع الثاني ما يطلق عليه البعض اسم علم النفس عبر الحضاري.

-أ-الانثروبولوجيا الثقافية:

لقد لاحظ الباحثون في الانثروبولوجيا الثقافية الروابط العضوية القائمة بين ثقافة الفرد الحضارية و بين أساليب معايشته للحياة و التي من ضمنها العوامل المتسببة في المرض النفسي ثم أساليب ووسائل علاج تلك الأمراض.

فنظرية فرويد-مثلا- تقوم على أساس الفراغ الذي يولد عليه الإنسان حيث تصطدم رغباته بعد ذلك بالبيئة الثقافية و الاجتماعية و الاقتصادية و هو ما يشكل لدى الإنسان جملة من العقبات و العوائق التي تؤدي بالرغبات إلى أن تدخل في منطقة مظلمة من النفس تسمى اللاشعور.

و انطلاقا من هذا الوصف الطوبوغرافي للنفس استنتج فرويد الوظيفة الديناميكية للشخصية التي يعتبرها تنظيما حركيا داخليا لمجموعة من العوامل النفسية و الجسدية تمثله الأجهزة الثلاثة : الهو- الأنا- الانا الأعلى" بحيث أن الرغبات المكبوتة و التي تركن في أعماق النفس و تشكل ما يسمى باللاشعور هي رغبات نشطة لا يمكنها أن تموت بل تسعى دوما إلى الظهور في أشكال خفية مثل: الأحلام أو النسيان أو الزلات...

و قد نجد من باب مراعاة الخصوصية الثقافية أن المجتمعات الغربية قد أدخلت العديد من التعديلات على المبادئ الفرويدية بحيث تمكنت من تطويع التحليل و جعله صالحا للتطبيق في عياداتها فرأينا مثلا كارين هورني و هي تعدل التحليل لتركز على أهمية الأمومة و دورها بما يتناسب مع المجتمع المسيحي المتميز بأمومته و بالدور الفعال للمرأة و هو ما يتعارض حتما مع التحليل الفرويدي المنبثق عن المجتمع اليهودي يتميز بهيمنة الأب و الرجال عامة.

فلا غضاضة من أن تحاول الدراسات العربية تكييف مبادئ التحليل النفسي وفق القيم و العادات العربية الإسلامية لما لتلك القيم و العادات من أثر على الأنماط المثالية للفرد العربي و ما يترتب عن ذلك من أمراض.

و بالإضافة إلى ذلك فقد برهن يونغ انطلاقا من تحليله للأساطير و الخرافات و الأديان بان هناك أسس مشتركة تظهر في شكل رموز و ميولات رغم غياب كل ما يمكن أن يربط بينهما من تاريخ أو جغرافيا. حيث أورد يونغ في كتابه جدلية الأنا و اللاشعور أنه يمكن للتحويل أن يكون وسيلة للعلاج النفسي يستعمل فيها تفسير الأحلام و التفسير الديني.

-ب- علم النفس عبر الحضاري:

اثر محاولات إدخال العلاج النفسي إلى الدول النامية و خصوصا أمريكا اللاتينية و إفريقيا لاحظ الباحثون :

أولا: عدم صلاحية الاختبارات النفسية الغربية للتطبيق في هذه المجتمعات فقاموا بتعديل تلك الاختبارات بما يلاءم كل مجتمع من تلك المجتمعات.

ثانيا: أدى تراكم ملاحظات هؤلاء الباحثين للأمراض الخاصة ببعض تلك المجتمعات إلى قيام فرع "علم النفس عبر الحضارات و الذي نادت به مجلات ذات شهرة عالمية مثل مجلة علم النفس الدولي و مجلة علم النفس الاجتماعي ثم مجلة علم النفس الحضاري و مجلة رسالة الأخبار...

ثم جاء الدور على بذل الجهد في سبيل تأسيس الجمعية الدولية لعلم النفس عبر الحضاري و التي عقدت عدة مؤتمرات عالمية في هونغ كونغ سنة 1972 و في كندا سنة 1974 و في هولندا سنة 1976 و في ألمانيا سنة 1978 و في تركيا سنة 1987...

و في خطوة أخيرة أقحم هذا الفرع من علم النفس أولا في الجامعات الانجليزية و الأمريكية و الأسترالية ثم في جامعات أندونيسيا و باكستان و الفلبين و تايلندا و بعض الجامعات الافريقية ثم في الأخير في الجامعات العربية إذ ظهرت في لبنان خاصة.

فان كان مفهوم الحضارة عند الأنثروبولوجيين يختصره "هيرسكوفتش" في قوله " الحضارة هي ذلك الجزء الذي صنعه الإنسان من البيئة البشرية " و بذلك لا يختلف عن مفهوم الثقافة مثلما ذهب إلى ذلك العلامة رالف لنتون فيشمل التعريف بذلك الجوانب المادية كالطرق و المباني و الأدوات كما يتضمن الاستجابات الذاتية عما يقوم به الإنسان من أدوار و ما لديه من قيم و اتجاهات و معتقدات.

فان مفهوم عبر الحضاري يشير إلى المقارنات التي تجري بين الحضارات أو ما اصطلح عليه "نارول" بلفظ الوحدات الحضارية و التي يقصد بها :" الناس الناطقون باللسان المحلي و باللغة الأم و الذين ينتمون لنفس الدولة أو لنفس الجماعة".

و يتمثل الهدف الأساسي من علم النفس عبر الحضاري في اختيار عمومية القوانين السيكولوجية و في هذا الصدد قامت مجهودات كبيرة تضمنت العديد من المحاولات لمعرفة ما هي الجوانب العالمية في نظرية جان بياجيه مثلا و هل هي عامة لكل الحضارات أم أنها تتعدل بالمتغيرات الحضارية أم أنها خاصة بأبناء سويسرا فقط.

و تمدنا الوحدات الحضارية بتجارب شبه طبيعية و ذلك باخضاع المتغيرات للبحث و الدراسة عندما تتغير البيئة الحضارية فان التنظيمات الاجتماعية حتما ستختلف .

مثاله: الدراسة التي أجراها أد/محمد فاروق السنديوني للمقارنة بين المجتمع المصري و المجتمع الاسترالي حيث ذكر فيها نموذج الشاب الذي يعاني من حالة إحباط يعتقد اعتقادا جازما بأن عثراته و سوء حظه يتأتيان من جارته العجوز التي تقيم بمفردها و التي تمكنت من ممارسة تأثيرها عن بعد على حياته و أعماله.

فعندما عرضت هذه الحالة على المعالج الاسترالي كان تشخيصه لها على أنها حالة ذهانية لكنه حينما فحصها باعتباره عربي اتضح له انه يؤمن بإصابته بالعين و هو أمر شائع في ثقافات مختلفة مثلها مثل الثقافة العربية.

و رغم ذلك كله فنحن على يقين أن هناك أمورا مشتركة كثيرة بين بني البشر كافة عندما تصيبهم الاضطرابات النفسية و لذلك فان التصنيفات العالمية لهذه الاضطرابات ذات نفع عام.

و لكن هناك تفاصيل خاصة بكل قوم أو مجتمع تجعل من مساهمة الخلفية الثقافية و التراث الاجتماعي عاملا مشكلا للأعراض المرضية و تجعل الأسرة كنظام اجتماعي عاملا مساهما في حدوث و شفاء الاضطراب النفسي بطريقة تميز كل قوم عن غيرهم من الأقوام.

3.الصحة و الاستعمار كموضوع أنثروبولوجي:

تتشكل الثقافة من مجموعة النظم و الأنساق مثل الدين و اللغة و النظم الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية...،النمط الغذائي النمط التفكيري و النمط الصحي و نمط العيش المشترك...

و انطلاقا من كون الصحة نمط مثالي و النمط المثالي هو جملة من العناصر الثقافية ترسم شكل نمط الحياة أو جزءا من الحياة كسائر الأنماط التي سبق ذكرها فان أي تعديل فيه يعد من التغيير الثقافي الذي تظهر تجلياته في سلوك الأفراد أو الأفكار التي يعتقدونها او الوضعيات التي يعيشونها و يخضعون لضوابطها.

و لأن الاستعمار يعد من أهم عوامل التثقيف من الخارج و الذي يعد بدوره أهم أنواع التغيير الثقافي أو العملية الثقافية،فان موضوعا من قبيل الصحة إبان الاستعمار الفرنسي للجزائر و هو طرح يمكن أن يؤسس لمجال معرفي جديد يجمع بين الصحة و الاستعمار كأهم عامل من عوامل التغيير الثقافي من جهة و المنظور الأنثروبولوجي كبعد معرفي سبق له أن درس الاستعمار و آثاره في مجال الثقافة من جهة أخرى.

علاوة على ان هذا الموضوع يمكننا من رصد ظروف التقاء الثقافة الفرنسية ذات الأبعاد الأوروبية و المسيحية بالثقافة الجزائرية ذات الأبعاد العربية و الإسلامية و ما نجم عن ذلك من صراع ثقافي أو حضاري و من قضايا نذكر منها موضوع الآليات و الوسائل المستعملة في عملية التثقيف من الخارج أو الصراع الذي يأخذ أحيانا طابع لغوي أو ديني و أحيانا أخرى يأخذ شكل الصراع بين دعاة الأصالة و دعاة المعاصرة.

المراجـع:

1. السويدي محمد مفاهيم علم الاجتماع الثقافي و مصطلحاته المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر الطبعة الأولى 1991

2.فرويد سيغموند أفكار لأزمنة الحرب و الموت ص 36- 37 دار الطليعة بيروت الطبعة الأولى 1981 ترجمة سمير كرم

3.لابلانتين فرنسوا مفاتيح الأنثروبولوجيا نعريب حفناوي عمارية مركز النشر الجامعي 2000 تونس

4. لنتون رالف دراسة الانسان ترجمة عبد المالك الناشف المكتبة العصرية بيروت

.5. لنتون رالف شجرة الحضارة الأنيس موفم للنشر 1990
.6. هولترانس ايكه قاموس مصطلحات الأنثروبولوجيا و الفولكلور ترجمة محمد الجوهري و حسن الشامي دار المعارف مصر الطبعة الثانية 1973

المراجع باللغة الفرنسية:

.1.jung c.g dialectique du moi et de linconscient folio essais 1986folio
.2.jung c.g l'homme et ses symboles.pont royal paris
.3.mucchielli reger la philosophie bordas France 1963

الدوريات:

.1. السنديونس محمد فاروق مقال الطب النفسي عبر الحضري مجلة الثقافة النفسية العدد 22 نيسان 1995
.2.مكاوي علي مقال الصحة و الظروف البشرية و جهات النظر في الأنثروبولوجيا الطبية مجلة الكتاب السنوي لعلم الاجتماع العدد 7 أكتوبر 1984 دار المعارف